

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



سَائِلُ الثَّقَلَيْنِ

مَجَلَّةُ اِئِمَّةِ اَلْاِمَّةِ جَامِعَةٍ

العدد الخامس والسبعون • السنة التاسعة عشر • خريف سنة ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م

المراسلات والاتصالات باسم رئيس التحرير على العنوان التالي

الجمهورية الإسلامية في إيران - قم. ص.ب: ٨٩٤ - ٣٧١٨٥

هاتف: ٢١٣١١ (٠٠٩٨٢٥١) فاكس: ٢٩١٣١٠٠ (0098251)

موقعنا على الانترنت

WWW.ahl-ul-bayt.org

البريد الإلكتروني للمجلة: Tahrir-thaqalayn@hotmail.com

البريد الإلكتروني لإدارة المجلات: Bc@ahl-ul-bayt.org

محتويات العدد

□ كلمة التحرير

* لَنِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِكَ
الْأَطْهَارِ

..... رئيس التحرير ٤

□ ملف العدد: (ليكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ

* الإساءة إلى رسول الرحمة ﷺ، انتهاك لكل القيم
الإنسانية، من أريج القائد الخامنئي دام ظلّه

..... إعداد: الشَّيْخُ علي محسن ١٥

* البشارة بخاتم النبيين في التوراة والإنجيل

..... د. علي الشَّيْخ ٢٥

* الغرب المستكبر والحريات الكاذبة، فرنسا

والإساءة إلى النبي نموذجاً

..... أ. لطفي رشيد العالي ٤٦

* ثقافة المقاطعة، ردُّ حاسم على التوهين والإساءة

..... أ. أحمد فارح الحاشدي ٥٣

□ دراسات فكرية

* دور الوراثة والمحيط في بناء الشخصية، على

ضوء منهج الثقلين

..... أ. سعيد العذارى ٥٩

• تعنى بالدراسات والنتائج
الفكرية، خصوصاً التي تصبُّ في
خانة الدفاع عن حريم القرآن
الكريم والنبي ﷺ الأمين، وآل
بيته الطاهرين، في جميع الأبعاد
المختلفة.

• تستقبل رسالة الثقلين نتائج
العلماء والمفكرين المشتملة على
الشروط التالية:

◀ أن تكون خاضعة لأسلوب
البحث العلمي منهجاً
ومنهجيةً ومضموناً.
◀ أن لا تكون قد نُشرت سابقاً.
◀ أن لا تكون عملاً مكرراً، بل
لا بدَّ أن تحوي على شيءٍ من
التجديد والحداثة . والأولوية
دائماً للدراسات الفكرية
المستحدثة.

◀ أن لا تتقص عن عشر
صفحات، ولا تزيد على
الخمسين، والصفحة الواحدة
تتضمّن (٢٥٠) كلمة.
◀ أن تُرفق المقالة بخلاصة لها
في صفحةٍ واحدة.

• الآراء الواردة في ما يُنشر لا تعبر
بالضرورة عن رأي المجمع أو
المجلة.

• تسلسل الموضوعات المنشورة
يخضع لاعتبارات فنية محضة.

• لا تعاد المقالات المرسلة إلى
المجلة، نُشرت أم لم تنشر.



المجمع العالمي للإسلام والتنمية

المشرف العام

الشيخ محمد حسن اختري

تصدر عن

المعاونية الثقافية - إدارة المجلات

رئيس التحرير

الشيخ معين دقيق

مدير التحرير

الشيخ علي محسن

العدد الخامس والسبعون

السنة التاسعة عشر

خريف سنة

١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م

المطبعة: إسرائ - قم

٠٠٩٨ ٢٥١ - ٦٦٤٤٥٤٨ ☎

* التناظر في نهج البلاغة، جدلية العدل بين الأنا
والأخ والنظير

..... الأستاذ محمود حيدر ٩٧

* الاستبداد الفكري وجذر العطالة السياسية، أهمية
التكوين والتنشئة الأخلاقية للنخب والقيادات

..... أ. نبيل علي صالح ١١٠

□ قضايا المرأة وهمومها

* قراءة قانونية في اتفاقية القضاء على جميع
أشكال التمييز ضد المرأة (سيداو)

..... د. غادة أحمد عيسى ١٣٤

* المرأة المسلمة وتحديات العصر، الحجاب نموذجا

..... أ. أمينة الهندي ١٤٩

* سيّدة من إيران، نصرت أمين الإصفهانية

..... إعداد: آلاء دقيق ١٦٧

* أطفالنا في الغرب

..... فاطمة إبراهيم الفضلي ١٨٩

□ مناسبات وذكريات

* فكر الإمام الخميني رحمته الله وأثره على الانتفاضة
الفلسطينية

..... إعداد: التحرير ١٩٩

□ من وحي النهضة الحسينية

* خصائص الخطاب العاشورائي، بين تجرّد

الخطاب والمزاوجة بين العاطفة والعقل

..... الشيخ معين دقيق ٢٢١

* مودة النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، أجر لكم

..... السيّد حسن نصر الله ٢٤٣

لبيك يا رسول الله صلى الله عليك وعلى آلك الأطهار

□ بقلم: رئيس التحرير

كنا في الأيام المنصرمة أمام مشهدٍ يدمي القلب لكل من ألقى السمع وهو شهيد .. فمن جهةٍ نجد أن أعظم شخصيةٍ في الوجود وعالم الإمكان - تلك الشخصية التي جعلها ربّ العباد رحمةً للعالمين، أي : ليس للمسلمين فحسب - يتقدم جماعةٌ من الشُّذاذ بتوجيه الإهانة الرخيصة لها ولأبطالها الذين يتجاوز عدد الأحياء منهم المليار مسل م ، عبر فيلم رخيص لمؤلف وضع .

ومن جهةٍ أخرى تدلّ الدلائل الواضحة على وجود الأيدي الخفية والخبیثة وراء صناعة هذا الفيلم المهين؛ لغرض تحقيق أهدافٍ مسمومة يراد من خلالها إضعاف الأمة الإسلامية.

ومن جهةٍ ثالثة نرى أن ردات الفعل على هذا العمل الشنيع على مستوى النُخب السياسية والطبقات الحاكمة في الأمة الإسلامية لم تكن على قدر هذه الإساءة العظيمة، بل نرى البعض منها يدافع عن أمريكا، وينفي دخالتها في

صناعة هذا الفيلم المهين، بل ويقدم لها التعازي الحارة على سفيرها الذي قُتل في بنغازي.

والحال أن بعض هذه الأنظمة السياسية الحاكمة في (بلد نبي الرحمة) قد قطعت علاقتها الدبلوماسية وسحبت سفيرها من بريطانيا في أواخر السبعينات؛ بسبب فيلم (موت أميرة) الذي تمّ تصنيعه في بريطانيا. واعتبرته - آنذاك - مسيئاً للعائلة الحاكمة في بلد رسول الله ﷺ التي غيّر اسم ذلك البلد على اسم تلك العائلة؛ لأنه يروي قصة أميرة سعودية هربت مع عشيقها . ولم تكتفِ السعودية - آنذاك - بسحب سفيرها، بل هدّدت بقطع النفط وسحب استثماراتها من بريطانيا إن لم تسحب الأخيرة هذا الفيلم من التداول في دور السينما وتقدم الاعتذار لآل سعود.

نقول لهؤلاء : ماذا يعتذرون لرسول الله ﷺ عندما يفدون عليه في يوم القيامة!!؟

هل شرف العائلة الحاكمة أهم عندهم من شرف نبي الإنسانية!!؟
هل شرف العائلة الحاكمة يدعوهم إلى سحب سفيرهم، والتهديد بقطع النفط وسحب الاستثمارات، بينما شرف النبي الأعظم ﷺ لا يستحق منهم أن يقطعوا الماء عن السفارة الأمريكية في السعودية لدقائق فحسب؛ احتجاجاً على الفيلم المسيء لكل كرامة وشرف وعزة وإباء في الوجود

الأهداف الخفية وراء الفيلم المسيء:

للوصول إلى الأهداف التي تكمن وراء صناعة هذا الفيلم - الذي حاول الغرب وأمريكا بالخصوص أن تجعله عملاً شخصياً سُمح به حفاظاً على الحرية الشخصية للأفراد - لا بدّ من الأخذ بعين الاعتبار ظروف العالم الإسلامي

وارتباطه بالغرب من جهة، والانتشار الإسلامي الواسع في البلاد الغربية من جهة أخرى. وفي هذا المجال يمكن أن نشير إلى هدفين أساسيين:
الهدف الأول: الحد من الانتشار الواسع للإسلام في الدول الغربية.
أما أن الإسلام ينتشر انتشاراً واسعاً وسريعاً في البلاد الغربية، فقد أصبح من الواضحات...

ففي أوروبا كشفت دراسة أجرتها مؤخراً مؤسسة (IFOB) كبرى المؤسسات البحثية التابعة للحكومة الفرنسية، وشملت معظم دول الاتحاد الأوروبي بعنوان (كيف يرى الأوروبيون الإسلام؟) عن زيادة كبيرة في أعداد الأوروبيين الذين اعتنقوا الإسلام خلال الأعوام العشرة الماضية.
وأشارت الدراسة إلى أن شريحة كبيرة من المواطنين في فرنسا وهولندا وألمانيا والمملكة المتحدة، يرون أن الوجود الإسلامي يشكل خطراً على الهوية القومية للبلاد، ومتخوفون من أسلمة أوروبا خلال العشرين عاماً المقبلة، لا سيما وأن قطاعاً كبيراً من الشباب أقل من ٣٥ عاماً في فرنسا وبريطانيا يرون أن الوجود الإسلامي يثرى الحياة الثقافية ويساهم في نقل أوروبا إلى حياة جديدة لم يعهدها من قبل.

وكان المؤتمر العالمي للهيئة البلجيكية (سي إنترناشيونال)، كبرى الهيئات المتخصصة في عمل إحصائيات دولية وخاصة في أوروبا، قد كشف في وقت سابق عن ارتفاع الأسلمة في أوروبا خلال عامي ٢٠١٠ و٢٠١١ بنسبة ١٧٪ لتعد أكبر زيادة يسجلها الدين الإسلامي في أوروبا.

ومن جانبه، أكد مدير الهيئة البلجيكية الدكتور سليمان ياسين أن في كل من ألمانيا وهولندا وفرنسا وبريطانيا وأسبانيا، يفوق أعداد المسلمين الذين يذهبون إلى المساجد يوم الجمعة في أوروبا بكثير أعداد المسيحيين الذين يذهبون للكنائس يوم الأحد.

وهذه الإحصائية.. يكون عدد المسلمين قد بلغ ٢٣ مليون مسلم يحملون الجنسيات الأوروبية في ١٩ دولة تابعة للاتحاد الأوروبي، وينضم إلى هؤلاء المقيمون بصورة غير رسمية، ويصل عددهم إلى ٧ ملايين مسلم. وفي أمريكا نشر موقع (السي إن إن) تقريراً بعنوان: (النمو السريع للإسلام في العالم الغربي) يعترفون أن أعداد الذين يعتنقون الإسلام كل عام في العالم الغربي كبير جداً، وهو في تسارع مستمر، ففي ١٢ سنة تمّ بناء أكثر من ١٢٠٠ مسجد في الولايات المتحدة الأمريكية، أي: بمعدل مائة مسجد سنوياً، والشيء العجيب أن معظم الذين يعتنقون الإسلام من الأمريكيين يتحولون إلى دعاة للإسلام بعد أن يلتزموا بشكل مذهل بتعاليمه! ويؤكد معظم الباحثين - وعلى الرغم من عدم وجود إحصائية دقيقة - أن أكثر من عشرين ألف أمريكي يعتنقون الإسلام كل عام، وذلك بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، فعلى العكس مما هو متوقع بأن أعداد المسلمين الجدد سينخفض إلا أن النتيجة جاءت على عكس الحسابات، فقد أظهرت الإحصائيات الجديدة أن عدد الذين يدخلون الإسلام ازداد بشكل كبير بعد أحداث سبتمبر.

أما أن مثل هذه الأعمال محدودة - باعتقادهم - من هذا الانتشار الواسع، فهو من خلال ما كانوا ينتظرونه من هذا العمل الرخيص؛ وذلك من خلال الأمور الثلاثة التالية:

الأول: أن الإساءة إلى أكبر شخصية في الكون، والنبى المؤسس لهذا الدين، وإبرازه في شخصية - والعياذ بالله - شهوانية، ومحبة لسفك الدماء، يساعد المجتمع الغربي على الابتعاد عن دراسة الدين الإسلام والتفكير في الانتقال إليه.

الثاني: أنه ومن خلال ما يتوقعونه من ردات فعل غير مدروسة من بعض المنتسبين إلى الإسلام، من القتل والاعتداء على الكنائس ورجال الدين، بل لا

نستبعد أن يكون الغرب قد دسّ بعض الذين يقومون بأعمال توجب التفسير من الإسلام والمسلمين؛ لينعكس ذلك سلباً أمام العقل الجمعي الغربي.

الثالث: تصوير المسلمين كأئتهم جماعات ضدّ ما يسمّى بـ (حرية التعبير)، والديمقراطية، والحرية الفردية، والفنّ الحر، وما شابه ذلك.

الهدف الثاني: إلقاء العالم الإسلامي ومحاولة إشغاله عمّا يخطط له الأعداء على مستوى الحكم والحكومات . وهذا الشيء يتم أيضاً عن طريق إشغال بعض شعوبنا المسلمة بصراع مع الأقليات الموجودة في بلدانهم - كالأقباط في مصر -؛ لننسى الصراع الأساس مع العدو الصهيوني.

وعلى أساس تشخيص الأهداف لا بدّ لنا من التخطيط بطريقة مدروسة وحكيمة، نفوّت من خلالها عليهم تحقيق هذه الأهداف الخبيثة؛ وذلك من خلال الآليات التالية:

١. تعريف العالم بعظمة النبي المصطفى محمد ﷺ، من خلال تأليف الكتب والمقالات حول سيرته وشخصيته وخصائصه، وترجمة كلماته، وتبسيط الضوء على الأبعاد المختلفة في رسالته العالمية . وهذا ما سوف نلتزم به في مجلّتكم (رسالة الثقلين)؛ حيث سنورد في كلّ عددٍ من أعدادها بعض المقالات التي تهتمّ بهذا الجانب إن شاء الله.
٢. دحض ترهاتهم من الناحية المنطقية والتاريخية، وإثبات أن توهين المقدسات، والمس بكرامة الأنبياء والأولياء، أمرٌ مخالفٌ لتعاليم الأديان السماوية، ويعدّ جريمةً في القوانين الدولية والوطنية.
٣. تنبيه الأمة على أن ردات الفعل المشبوهة، والتي لا تمثل الإسلام، وتخالف قانون القرآن ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾^٤ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى^٥ [الأنعام: ١٦٤]، ليست إلا وسيلة لتحقيق أهداف الأعداء من خلال نشرهم لمثل هذه الأفلام والرسوم المسيئة.

٤. السعي الحثيث من قبل الدول الإسلامية لاستصدار إدانة دولية واضحة ضد هذا التعرّض المهين لأعظم نبيّ من الأنبياء، مع تشخيص العقوبات اللازمة لمثل هذه الجريمة.

٥. إبراز المسلمين لغضبهم وعدم قبولهم لمثل هذه الأفعال الرخيصة، على المستوى الشعبي والحكومي، سواء عن طريق فرض عقوبات تجارية واقتصادية على بعض الدول الداعمة لمثل هذه التصرفات، أم استدعاء سفرائها، أم التهديد المناسب بما يرتبط بالنفط وسائر مقدّرات الدول الإسلامية والعربية.

٦. السعي لاستصدار مواقف مناسبة وموحدة بين كافة الدول الإسلامية، والضغط الدولي المختلف من خلال الجامعة العربية ومنظمة الدول الإسلامية والأمم المتحدة؛ لإدانة هذه الإساءة.

ويعجبني في ختام هذه الافتتاحية أن نذكر أمريكا التي تشدّد بالقانون، والحرية، والديمقراطية، أنّها سنّت ما يسمّى عندهم (Hate crimes law)، وهي التي تعني باللغة العربية : (جرائم الكراهية)، وتصرف جرائم الكراهية قانونياً على أنّه: «العنف الذي يحرّكه الانحياز، وقد تتضمّن الجرائم: الاعتداء الجسدي، تخريب الممتلكات، التنمّر، الإهانة، التحرش، الرسومات أو الكتابات المسيئة وغيرها».

وهنا يحقّ لنا أن نتساءل أن إهانة أكثر من مليار مسلم برسومات مهينة، وأفلام رخيصة، ألا يعدّ من جرائم الكراهية؟! ضلالٌ يا له من ضلال...

ملف العدد
لبيك يا رسول الله
﴿١٥﴾

الإساءة إلى رسول الرحمة ﷺ
انتهاك لكل القيم الإنسانية
من أريج القائد الخامنئي دام ظلّه

□ إعداد: الشيخ علي محسن

تجزيّة

لا يستطيع أحدنا أن يتحدّث عن الشمس، أو أن يصفها، إلّا إن أمكن أن يبلغ إليها بمنتهى علمه .. فالشمس، ذلك الكوكب السماويّ، لها نور يبهّر الأبصار، ويغشيها، ويخطفها .. ولها دفء، بل حرارة عالية بدرجّة هائلة لا تتحمّلها الأجسام، فلا تدنو إليها ، ولا تقترب منها، مخافة أن تصهرها أو أن تذيبها أو أن تُعدمها وتُفنيها..

لا يمكن الحديث عن الشمس إلّا بمقدار ما يمكن للإنسان أن يدركها، أو أن يقترب منها، فهو يدركها من بعيد، ولكنّه يصعب أن يحيط بها إحاطة تامّة . قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

هذا كلّهُ . والشمس - على عظمتها وبديع صنعها - هي مجرد مخلوق من

المخلوقات التي سخرها الله سبحانه وتعالى للإنسان، كما قال - عز من قائل - : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ ﴾ [إبراهيم: ٣٣].
فكيف - إذاً - إذا أردنا أن نتحدث عن سيّد الكائنات، وأشرف المخلوقات؟ !
كيف إذا أردنا أن نذكر أوصاف أفضل البشر، والإنسان الأكمل على الإطلاق، منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام، وإلى يوم القيامة؟ ! كيف إذا أردنا أن نتحدث عمّن سمّاه الجليل في السماوات (أحمد)، وفي الأرض (أبا القاسم محمداً)؟ !
محمّد ﷺ حبيب الله تعالى، ومن اصطفاه على خلقه، وجعله الخاتم لسلسلة أنبيائه، وخيرته من خلقه!!

إذا كانت الشمس هي القطب في عالم الكواكب، وهي مركز الأجرام السماوية والمحور الذي تدور حوله .. وإذا كان نور الشمس - وهو نور مادّي - يُغشي الأبصار ويبهرها .. وإذا كانت حرارة الشمس تصهر الأجسام وتذيبها .. فإنّ رسول الله الأعظم محمّد بن عبد الله ﷺ هو قطب عالم الوجود بالنسبة إلى المخلوقات، وهو محور الكون الذي خلقه الله تعالى، بجميع ما فيه من مخلوقات سماوية وأرضية .. وإنّ نوره المعنوي، وكماله الإنساني، وحرارة الإيمان في قلبه الكبير الدافئ ﷺ، لأكبر بكثير من أن تحيط به قل وب البشر وأفئدتهم .. وإنّ العقول البشرية لأضيق من أن تنال حقيقة الكمال النبويّ الإنساني، وحقيقة الخلافة الإلهية، المتجليين والمتجسّدين في رسول الله الأكرم ﷺ ..

وبالرغم من هذا كلّ، يطالعك اليوم بشر (لا بشر)، وأصحاب عقول (لا عقلاء)، وأولو أبصار (مصابون بالعمى)، يحاولون - بزعمهم - أن يعتّموا على صفحة الساحة النبوية النورانية المتألّثة، عبر السخرية والاستهزاء وتوجيه الإساءات وتجاوز الخطوط الحمر التي لا يُسمح بتجاوزها، وتحريف الحقائق التاريخية والإنسانية الواضحة، وكلّ ذلك، بأسلوب السباب والشتائم، وبعي دأ كلّ البعد عن الأدلة والمستندات، والعدل والإنصاف، وأدنى متطلّبات البحث

الموضوعي...

وما هؤلاء - في حقيقة الأمر - إلا كالتافه السفیه الذي يقف عاجزاً عن النظر إلى كبد الشمس، لئلا ينقلب إليه بصره خاسئاً، تائهاً، ولكنه مع ذلك، يصبر على إنكار أن للشمس نوراً يرى، وشعاعاً يملأ الآفاق!!

لقد كان رسول الله ﷺ أرجح الناس فكراً، وأكملهم عقلاً، وأحسنهم أدباً، وأطيبهم خلقاً، وأصدقهم حديثاً، وأوفاهم عهداً، وأربطهم جأشاً .. وهو ﷺ أذكى الأذكياء، وأبلغ البلغاء، وأعقل العقلاء، وأحكم الحكماء، وأفصح الفصحاء..

النبي ﷺ والتأديب الإلهي

وقد زكى الله تعالى عقله الشريف ﷺ، فقال: ﴿ مَا صَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ [النجم: ٢].

وزكى صدقه ولسانه، فقال: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ [النجم: ٣].

وزكى شريعته المقدسة الغراء، فقال: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ۖ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ [النجم: ٤-٥].

وزكى فؤاده، فقال: ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ۚ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ [النجم: ١٠-١١].

وزكى بصره، فقال: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ [النجم: ١٧].

وزكاه وأصحابه، فقال: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقد زكى الله تعالى خلقه الشريف وسجاياه الفاضلة وأدبه الكامل، فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

وهو أعظم مدح إلهي في حق مخلوق . وفي إجمال هذا المدح تكمن العظمة اللامتناهية، ويختبئ الإعجاب الإلهي - إذا صح التعبير - بأدب رسول الله ﷺ، وأخلاقه، ومناقبه، وفضائله..

وهو أدب رباني، اختصه الله تعالى به دون سواه من الخلق . كما ورد عنه ﷺ أنه قال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»^(١). وقد قال تعالى - في إشارة إلى نماذج من هذا التأديب الإلهي -: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

الرحمة محور الأخلاق النبوية

لقد كثرت آيات الله التي تتحدث عن شخصيته، وخصائصه الكريمة، وصفاته الفاضلة، ولكننا نلاحظ فيها تركيزاً على صفة الرحمة بوصفها صفة محورية في شخصيته الأخلاقية ﷺ، قال تعالى: ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ كُنْتَ قَطًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وفي آية أخرى يقول أصدق القائلين : ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦١].

فالآيات بمجملها تحليني لنا عن جوانب العفو والرحمة والرفق واللين في شخصيته ﷺ، وفي سلوكه، وفعاله، وفي تعامله مع الآخرين . وهي تصفه ﷺ بأوصاف تكشف عن مدى اهتمامه بالمسلمين، واكثرائه لشؤونهم، وانشغاله بقضاياهم وهمومهم، وحرصه عليهم، و تعبر عن مدى شفقته و رحمته بهم،

وكيف أنه حين كان يصيب الواحد منهم بعض المشرقة والتعب، فإنّ ظلالاً من الأسى والحزن تخيم عليه ﷺ.

هذه التربية الإلهية، وهذا التأديب الرباني، الذي نتج - بطبيعة الحال - عن أهلية ذاتية - أوصله ﷺ إلى أن يكون القدوة والأسوة الحسنة للناس جميعاً، أو لصفوتهم، وهم من حكموا عقولهم، قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرٍ﴾ [الأحزاب: ٢١].

هذا هو النبي الأعظم ﷺ.. لمن يحب أن يعرفه .. ولمن لا يعرفه .. ولمن لا يريد أن يعرفه..

هو - بحق - الإنسان الكامل الجامع لتام الكمال والفضائل الأخلاقية ، وقد بلغ من كماله حدّاً استحقّ معه أن يُوصف بأنه رحمة للناس كافة، بل للعالمين كافة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

هذه الشخصية الرائعة التي عبّر عنها - قرآنيّاً - بـ (الرحمة)، بنحو الإطلاق المصدري، هي نتاج اصطباغ القوة العاقلة بالصبغة الإلهية ، وتعلّق قوة الحب والعشق الإنساني بالكمال الإلهي المطلق، بحيث يُصبح كلّ عملٍ صادرٍ من الإنسان عملاً معجوناً بالحبّ الإلهي، ليصبح الإنسان - كما ترمز إليه الآية الكريمة -: ﴿فَإَيْنَمَا تُولُواْ فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

هو مقام لا يتيسر لأيّ كان، بل لا يتيسر لأحد.. وهي مرتبة عليا لم ينلها إلا النبي الأكرم ﷺ، مرتبة ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾..

وقد تحدّث الإمام السيّد عليّ الخامني دام ظلّه عن بعض خصائص هذه المرتبة النبوية، فقال:

«إنّها مرتبة استحقّها ﷺ بحيث لو نظر إلى الحجر لنظر إليه نظرة عطفة؛ لأنّه كان يجد فيه أثر المحبوب ... حتّى نظرته لأبي جهل كانت نظرة الرحمة ، وحتى قتله له كان رصاصة الرحمة؛ لأنّه كان يعلم أنّ بقاء أبي جهل في دار الدنيا

يعري زيادةً في تيهه وضلاله وخسرانه، وإنّ نظم الأمور ورعاية حقوق الآخرين ألّقى على عاتق النبي ﷺ مسؤولية اجتثاث وبتّر العضو الفاسد، لئلاّ يمتدّ فسادُه إلى الآخرين. وقد كان النبي ﷺ يعمل وفق القانون الإلهيّ، وعلينا - نحن أيضاً - أن نكون تابعين لهذا القانون نفسه، وما يفرضه ويرتبه علينا من التوليّ والتبرّي. فللنبي ﷺ كان ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، ونحن في هذا العالم نعيش في ظلال الرحمة الإلهيّة، فنحن - إذاً - نستظلّ ظلال النور الطاهر لمحمّد المصطفى ﷺ.

ما كان النبي ﷺ يغضب يوماً من أحدٍ من الناس بنحو الغضب الشخصي، الصادر من دوافع ذاتيّة بحتة، وإنّما كان يستمع لهم بسعة صدر، ويدعوهم دائماً إلى التعامل بالرحمة والعطف والمحبة فيما بينهم، وكان يقول ﷺ - فيما رُوي عنه -: «والذي نفسي بيده لا يضع الله الرحمة إلّا على رحيم»^(٢).

وحين سأله المسلمون قائلين: يا رسول الله، هل نحن رحماء؟ أجابهم ﷺ: «ليس الذي يرحم نفسه وأهله خاصّة، ولكن الذي يرحم المسلمين»^(٣).

فدائرة الرحمة الإلهيّة والنبويّة دائرة وسيعة جدّاً، بمعنى: أنّها لا تُقبل في ضمن الدائرة الضيّقة، وهي الدائرة الشخصية، أو القريبة من الشخصية؛ لأنّ هذه الدائرة، أعني: الدائرة الضيّقة، قد لا تنطلق من كمال إنسانيّ عامّ بقدر ما هي تنطلق من مصالح ومنافع شخصيّة، أو قريبة من الشخصية. دائرة الرحمة عند النبي ﷺ تشمل من عمّت رحمته المسلمين عموماً، لا ذلك الذي اقتصرت رحمته على نفسه، أو على أهل بيته ومن يعنيه أمرهم في النطاق الفرديّ وعن طبيعة العلاقة التي كانت تجمعهم بأصحابه، وبالمسلمين عموماً، فهي علاقة تتجاوز مثل علاقة الناس بعضهم ببعض، فهو ﷺ كان الأب الرحيم بأولاده الذي يحرص كلّ الحرص على تربيتهم وثوقيتهم وهدايتهم واستقامتهم وسعادتهم.

وفي هذا المعنى يقول الإمام القائد عليه السلام:

«كيف كان نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله يتعامل مع أصحابه؟ في الوقت نفسه الذي كان صلى الله عليه وآله يُظهر فيه الشدّة على الكفار ، بعد أن ييأس من هدايتهم ، وبعد أن يناصره العداة بشكلٍ علنيّ، فهو كان كالأب الرحيم بأصحابه وأتباعه، بل كان بالنسبة لهم أكثر من أب رحيم».

وبحقّ نقول: إنّهُ منذ بدء الخليقة وحتىّ نهايتها، لا يوجد بين عباد الله من هو أكثر عطفاً ورأفةً ورحمةً من الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله. هذا العطف والرأفة والرحمة الخاصّة هو السبب الرئيس في تعلّق قلوب الناس به، وحبّها له، وتخلّقها حوله، وهو - بالتالي - ما أدّى إلى فتح أبواب القلوب على مصاريعها لتنفذ إليها نساءم الهداية الإلهيّة والنبويّة. ولذا كان صلى الله عليه وآله يشعر في أعماق أعماقه بالحزن الشديد عندما كان يضلّ بعض الناس طريق الهداية فيقعون في ظلمات الجهل والتهيه والضلالة والانحراف.

يقول الإمام عليه السلام مشيراً - في إحدى خطبه - إلى هذه الخصوصية في شخصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله:

«كان نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله يحزن للناس الذين لم يهتدوا، بحيث إنّ الله تبارك وتعالى كان يُواسيه في ذلك. وقد بلغ من حزنه أن شقّ الأمر عليه، فخاطبه الله تبارك وتعالى في القرآن بأنّا لم نزل عليك القرآن لتشقى من أجل الناس. كان حزنه صلى الله عليه وآله ألماً على شعوب الأرض كحزن الأب على أولاده، وكان يحزن على الكافرين عندما يراهم حيث لم يهتدوا ويسيروا على الفطرة الإنسانيّة التي خلقهم الله عليها».

والآيات الكريمة التي تتحدّث عن ذلك كثيرة:

منها: قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ لَمْ يَضِلُّ مِنْ يَشَاءُ وَيَهْدَى مِنْ يَشَاءُ فَلَا نَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

ومنها: قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا
الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦].

ومنها: قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣].
إلى غير ذلك من الآيات.

وهذا استحقَّ الرسول الكريم ﷺ الوصف الذي ذكره له القرآن الكريم في
قوله عز وجل: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ
حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فهذا النبي الذي أرسل إليكم ، والذي يألم لألمكم ، ويُجهد نفسه لجهدكم،
هذا الرسول، يصبر على هدايتكم، وسبب هذا الإصرار أنه رحيم بكم ، رؤوف
بالمؤمنين، وقد بلغ من شدة حزنه وشفوقته على الناس ، ومن شدة تأسفه على
حال الكفار والجاحدين للحق ، ومن شدة تمنّيه الخير والسعادة لعباد الله، كل
عباد الله، أن ضاق الأمر عليه كثيراً، حتّى اقتضى من الساحة الإلهية أن تواسيه
وتخفف عنه وتحفظ هذا القلب الرقيق المحبّ اللطيف من أن يهلك من شدة ما
يعتريه من الهم والحزن على هؤلاء الجهلة الأشقياء.

جوانب من سيرته وأخلاقه الاجتماعية ﷺ:

نكتفي فيما يلي بإيراد جانب من نور رسول الله ﷺ يتعلّق بأخلاقه
الاجتماعية وعشرته للناس.

(١) ملاقاته للناس:

- عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «ما صافح رسول الله ﷺ أحداً قط فنزع يده من
يده، حتّى يكون هو الذي ينزع يده . وما فاضه أحد قط في حاجة، أو حديث
فانصرف حتّى يكون الرجل هو الذي ينصرف»^(٤).

- عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «وإن كان ليصافحه الرجل فما يترك رسول الله ﷺ يده. حتى يكون هو التارك. فلما فطنوا لذلك، كان الرجل إذا صافحه مال بيده فنزعها من يده»^(٥).

(٢) مجلسه:

- عن الإمام الحسين عليه السلام يسأل والده أمير المؤمنين عليه السلام عن مجلس رسول الله ﷺ، فقال عليه السلام: «كان ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر، ... وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك. ويعطي كل جلسائه نصيبه، ولا يحسب أحد من جلسائه أن أحداً أكرم عليه منه، ومن جالسه صابره حتى يكون هو المنصرف، من سألته حاجة لم يرجع إلا بها، أو ميسور من القول. وقد وسع الناس منه خلقه فصار لهم أباً، وصاروا عنده في الحق سواء، مجلسه مجلس حلم وحياء، وصدق وأمانة، ولا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن فيه الحرم، ولا تنهى فلتاته، متعادلين متواصلين فيه التقوى، متواضعين، يوق رون الكبير، ويرحمون الصغير، ويؤثرون ذا الحاجة، ويحفظون الغريب. فقلت: كيف كان سيرته في جلسائه؟ فقال عليه السلام: كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب، ولا فحاش، ولا عياب، ولا مزاح، ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي، فلا يؤيس منه، ولا يخيب فيه مؤمليه ... إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنهم على رؤوسهم الطير. فإذا سكت تكلموا، ولا يتنازعون عنده الحديث. من تكلم أنصتوا له، حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم. يضحك مما يضحكون منه. ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في مسأله ومنطقه، حتى إن كان أصحابه يستجلبونهم، ويقول: إذا رأيتم طالب الحاجة يطلبها فأرفدوه، ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ، ولا يقطع على أحد كلامه حتى يجوز فيقطعه بنهي أو قيام. قال: فسأله عليه السلام عن سكوت رسول الله ﷺ، فقال عليه السلام: كان سكوته

على أربع : على الحلم، والحذر، والتقدير ، والتفكير. فأما التقدير ففي تسوية النظر والاستماع بين الناس . وأما تفكيره ففيما يبقى ويفنى . وجمع له الحلم والصبر. فكان لا يغضبه شيء ولا يستغفزه، وجمع له الحذر في أربع : أخذه بالحسن ليقنّدي به، وتركه القبيح لينتهي عنه . واجتهاده الرأي في صلاح أمته، والقيام فيما جمع له خير الدنيا والآخرة^(٦).

- عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ما روي مقدّمًا رجله بين يدي جليس له قطّ . ولا خير بين أمرين إلّا أخذ بأشدهما. وما انتصر لنفسه من مظلمة حتى ينتهك محارم الله فيكون حينئذ غضبه لله تبارك وتعالى... وكان نظره اللحظ بعينه... وكان إذا مشى كأنّما ينحطّ في صلب... ولا يتنازع أصحابه الحديث عنده. وكان المحدث عنه يقول: لم أر بعيني مثله قبله ولا بعده عليه السلام»^(٧).

- عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا دخل منزلاً أقعد في أدنى المجلس إليه حين يدخل»^(٨).

- عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقسم لحظاته بين أصحابه فينظر إلى ذا، وينظر إلى ذا بالسوقيّ قال: ولم يسطر رسول الله رجليه بين أصحابه قطّ»^(٩).

(٣) منطقه:

- عن أمير المؤمنين عليه السلام يصف رسول الله صلى الله عليه وآله: «ليس بفظ ولا غليظ ولا ضحك ولا فحاش ولا عتاب ولا مدّاح...»^(١٠).

(٤) عشرته مع الناس:

- عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إلّا أمرنا معاشر الأنبياء بمدارة الناس، كما أمرنا بإقامة الفرائض»^(١١).

- «كان رسول الله ﷺ إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه، فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده»^(١٢).

- وورد في الخبر أنه: «كان لا يدع أحداً يمشي معه إذا كان راكباً، حتى يحمله معه. فإن أبي قال: تقدم أمامي وأدركني في المكان الذي تريد»^(١٣).

- عن الحسين بن زيد قال: «قلت لجعفر بن محمد عليه السلام: جعلت فداك هل كانت في النبي ﷺ مداعبة؟ فقال: وصفه الله بخلق عظيم في المداعبة، وإن الله بعث أنبياء فكانت فيهم كزاة، وبعث محمداً ﷺ بالرفقة والرحمة، وكان من رأفته لأمته مداعبته لهم لكيلا يبلغ بأحد منهم التعظيم حتى لا ينظر إليه. ثم قال: حدثني أبي محمد عن أبيه علي، عن أبيه الحسين، عن أبيه علي عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ ليسر الرجل من أصحابه إذا رآه مغموماً بالمداعبة. وكان عليه السلام يقول: إن الله يبغض المعبس في وجه إخوانه»^(١٤).

٥) عشرته مع الفقراء:

- عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «إن رسول الله ﷺ كان لا يسأله أحد من الدنيا شيئاً إلا أعطاه»^(١٥).

- عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «وما سئل شيئاً قط، فقال: لا. وما ردّ سائل حاجة قط إلا بها، أو بميسور من القول»^(١٦).

نكتفي بهذه الإطلالة الموجزة، التي ما هي إلا غيض من فيض من جوانب سيرته النورانية ﷺ.

الأيدي الخبيثة التي تقف وراء الإساءة إلى النبي ﷺ

ما أردنا الوصول إليه من تلك الإطلالة التي قدمنا بها، هو أن صدور الإساءة بحق شخصية كهذه الشخصية العظيمة الممتلئة بالرحمة والعطف

والمحبة والإنسانية، لا يعبر - في الحقيقة - إلا عن حالة فاضحة من الخروج على مقتضى الطبيعة والخلقة والفطرة البشرية، وعن حالة متردية من الارتكاس النفساني القيمي، وعن شذوذ فكري وانحراف خلقي غير عادي، وعن انحطاط كبير في مستوى الوعي والمعرفة عند بني البشر، وعن سوء تقدير الإنسان لقيمة نفسه، وعن جهل بمعنى الإنسانية، وبمفهوم الكمال الإنساني، وعن ابتعاد كبير عن جادة الحق والعدل والصواب.

وفي هذا يقول وليّ أمر المسلمين عليه السلام:

«لقد كشفت اليد القذرة لأعداء الإسلام مرّة أخرى، من خلال محاولتها مجدداً توجيه الإهانة إلى الساحة المقدسة لرسول الله الأعظم صلّى الله عليه وآله، كشفت عن كرهها العميق، وحقدتها الدفين، وأثبتت عبر هذه الخطوة الجوفية الكريهة مدى غيظ الجماعات الصهيونية الخبيثة وحنقها وشعورها بالذعر والهلع من تألق الدين الإسلامي المتزايد، ومن أنوار القرآن الكريم المنبعثة حالياً على امتداد العالم كله.

يكفي لمعرفة مدى قبح وجوه منفضي هذه الجريمة ، ومدى فداحة هذا الذنب الكبير الذي ارتكبه، أنهم حاولوا بترهاتهم المقزّزة للنفوس أن يستهدفوا أقدس الرجال والشخصيات والوجوه وأكثرها رحمةً ونورانيةً بين مقدّسات العالم.

إنّ الأيدي الخفيّة الكامنة وراء كواليس هذه الخطوة الشريرة هي السياسات العدوانية للصهيونية والإدارة الأمريكية وسائر زعماء قوى الاستكبار العالمي، الذين يريدون - حسب تخیلاتهم وأوهامهم الباطلة - الهبوط بالمقدّسات الإسلاميّة عن منزلتها الرفيعة في أعين الأجيال الشابّة في العالم الإسلامي، وإطفاء مشاعرهم الدينيّة.

لو لم يكن هؤلاء قد دعموا في الماضي الحلقات السابقة لهذا المسلسل القذر،

ككتاب المرتد الضالّ سلمان رشدي، و الرسومات المسيئة لرسم الكاريكاتير الدانماركي، و فظائع القساوسة الأمريكيين الذين أحرقوا القرآن، ولم يطلبوا ويدعموا إنتاج عشرات الأفلام المعادية للإسلام في المؤسّسات التابعة للرأسماليين في لوبيات الصهاينة، لما أفضى الأمر اليوم إلى هذا الذنب العظيم الذي لا يقبل المغفرة بحالٍ من الأحوال.

إننا هنا نقولها - وبكل صراحة -: إنّ المقّم الأول في هذه الجريمة النكراء هو الصهيونيّة العالميّة، والحكومة الأمريكيّة، التي أثبتت - وبها لا يدع مجالاً للشكّ - أنّها راعية كلّ جرائم الإرهاب العالمي، وكلّ جرائم الفوضى المنظّمة. وإذا كان الساسة الأمريكيّون صادقين في ادّعاءاتهم عدم التدخّل، فإنّ من الواجب عليهم معاقبة المنفّذين لهذه الجريمة الشنيعة، وداعميهم الماليين والتقنيين، الذين أفجعوا قلوب الشعوب المسلمة، عقاباً يتناسب وهذه الجريمة الكبرى. وليعلم الإخوة والأخوات، المسلمون والمسلمات، في كلّ أرجاء هذا العالم، أنّ ممارسات الأعداء اليائسة هذه في قبال الصحوة الإسلاميّة ما إلّا هي دليل عظمة هذه الصحوة والنهضة وأهمّيّتها، وهي الإشارة الحتميّة بنموّها المتصاعد، والله غالب على أمره».

ولقد أظهرت ردّات الفعل الشعبيّة الإسلاميّة على الإساءة الأخيرة التي وُجّهت لنبيّ الرحمة محمد ﷺ مستوىً عالياً من الحضور للنبيّ ﷺ في وجدان الأمة.

ومن المهمّ جدّاً في هذا الإطار العمل بشكلٍ تأسيسيّ واستراتيجيّ لوضع خطّة طويلة الأمد، بل خارطة طريق مستدامة، تهدف إلى وقف ومنع وإحباط أيّ محاولة مستقبلية للاعتداء على مقدّسات المسلمين، أو انتهاك حرّياتهم، أو تشويه صورة نبيّهم ﷺ، أو قرآنهم، أو تعاليم وأحكام وقيم دينهم. وفي الختام، لا بدّ لنا من القول: إنّ المعركة بين الحقّ والباطل مستمرة

ومتواصلة ومتتالية، ولا بدّ - كما جرت عليه العادة التاريخية الحتمية - من أن ينتصر الحق على الباطل في نهاية المطاف، قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ولا بدّ للنور أن يعمّ ويتنشر ويملأ الأرجاء، ويمحو ظلام هذا الليل الدامس، منيراً قلوب الذين يقبلون على الحق ويعشقونه، لتحرك بصائرهم أبصارهم.

إنّ نور نبيّ الله الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ هو أسطع من ظلامهم وأقوى من فتنهم ومؤامراتهم، وإنّ قيمه وتعاليمه وسنته الشريفة هي أقوى بكثير من مفاسدهم وترهاتهم، وإنّ علمه النبويّ السماويّ هو أمضى وأحد وأكثر فعالية من جهلهم وحقاقتهم، مهما قالوا وفعلوا.

* * *

الهوامش:

- (١) المتّويّ الهنديّ، كنز العمال ١١: ٤٠٦، ح ٣١٨٩٥، تحقيق: الشيخ بكري حياني، ط ١٩٨٩ م، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- (٢) المحدث النوريّ، مستدرک الوسائل ٩: ٥٤، الباب ١٠٧، الحديث ٣.
- (٣) المصدر نفسه.
- (٤) الطبرسيّ، مكارم الأخلاق: ص ٢٣، ط منشورات الشريف الرضيّ، سنة ١٩٧٤ م.
- (٥) الكلينيّ، الشيخ محمد بن يعقوب، الكافي ٢: ٦٧١، باب النوادر، ح ١، تحقيق وتعليق: على أكبر الغفاريّ، الطبعة الرابعة، ط دار الكتب الإسلامية، طهران.
- (٦) الصدوق، الشيخ محمد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القميّ، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٨٥، تصحيح وتعليق وتقديم: الشيخ حسين الأعلميّ، ط ١٩٨٤ م، مؤسسة الأعلميّ، بيروت، لبنان.
- (٧) المجلسيّ، المولى محمد باقر، بحار الأنوار ١٦: ٢٣٧، الطبعة الثالثة المصحّحة، ط ١٩٨٣ م، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، لبنان.

- (٨) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة ١٢: ١٠٨، باب استحباب جلوس الإنسان دون مجلسه تواضعاً، ح ٢، طباعة وتحقيق: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ط ١٤١٤ هـ.
- (٩) الكلينيّ، الشيخ محمد بن يعقوب، الكافي ٢: ٦٧١، باب النوادر، ح ١، تحقيق وتعليق: على أكبر الغفاريّ، الطبعة الرابعة، ط دار الكتب الإسلامية، طهران
- (١٠) الطبرسيّ، مكارم الأخلاق: ص ١٥، ط منشورات الشريف الرضيّ، سنة ١٩٧٤ م.
- (١١) الطوسيّ، الشيخ أبو جعفر، الأمالي : ص ٥٢٢، ط دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، قم المقدّسة، ١٤١٤ هـ.
- (١٢) الطبرسيّ، مكارم الأخلاق: ص ٢٠، ط منشورات الشريف الرضيّ، سنة ١٩٧٤ م.
- (١٣) الطبرسيّ، مكارم الأخلاق: ص ٢٢، ط منشورات الشريف الرضيّ، سنة ١٩٧٤ م.
- (١٤) السيّد البروجرديّ، جامع أحاديث الشيعة ١٥: ٥٢٧، ط ١٤٠٩ هـ، مؤسّسة مهر، قم.
- (١٥) الكلينيّ، الشيخ محمد بن يعقوب، الكافي ٤: ٥٥-٥٦، باب كراهية السرف والتقتير، ح ٧، تحقيق وتعليق: على أكبر الغفاريّ، الطبعة الرابعة، ط دار الكتب الإسلامية، طهران
- (١٦) الطبرسيّ، مكارم الأخلاق: ص ٢٣، ط منشورات الشريف الرضيّ، سنة ١٩٧٤ م.

البشارة بخاتم النبیین

في التّوراة والإنجيل

□ الدكتور: علي الشيخ (*)

من الأمور المهمة التي أشار إليها القرآن الكريم، والتي تعتبر تحدياً كبيراً لأهل الكتاب، هي أنّ التّوراة والإنجيل كانت قد بشرت بالرّبيّ الخاتم ﷺ، وهذا التّحدي جاء به النّبيّ ﷺ في الكتاب الإلهي المنزل، واليهود والنّصارى يعيشون بين ظهرائه، ومع ذلك فلم ينقل لنا التاريخ أنّ أحداً من علماء اليهود والنّصارى احتجّ على النّبيّ ﷺ بأنّه ليس هناك في التّوراة والإنجيل بشارة به، بل التزموا الصّمت حيال هذا التّحدي، ولو كانوا يعلمون بأنّ التّوراة والإنجيل بين أيديهم لم تبشّر به ﷺ لأقاموا الدنيا ولم يقعدوها، ولرايتهم في كل مجلسٍ ومحفّلٍ يطلون دعوى كون النّبيّ الخاتم ﷺ قد بشر به في التّوراة والإنجيل.

فالقرآن الكريم يشير إلى أنّ أهل الكتاب يعرفون النّبيّ الخاتم ﷺ من خلال الأوصاف والعلامات الموجودة في كتبهم، وذلك في آيات عديدة منها:

(*) مسيحي كاثوليكي اعتنق الدين الإسلامي / العراق.

١- ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(١).

٢- ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

٣- ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾^(٣).

والباحث في التاريخ يجد أنَّ الكثير من علماء أهل الكتاب - ولا سيَّما من الرِّصَّاري - بعدما أدركوا الرِّبِّيَّ ﷺ، أو سمعوا بدعوته ورسالته آمنوا به ، واعتنقوا الإسلام؛ لمعرفةهم بأنَّه النَّبِيُّ المنتظر في آخر الزمان، وقصة بحيرا الراهب، وسلمان الفارسي والمثالث من بعدهم تؤيد هذا المدعى، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾^(٤).

وسنقسم البحث إلى قسمين:

الأوَّل: البشارة بالنَّبِيِّ ﷺ في التَّوْرَةِ.

والثاني: البشارة به ﷺ في الإنجيل.

وقبل الشروع في البحث أرى لزماً عليَّ أن أقدم نبذة مختصرة عن الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى ليتضح البحث بصورة أجلى، حيث إنَّه يتكون من قسمين: العهد القديم والعهد الجديد، ولسنا هنا بصدد البحث عن هذه الأسفار بشكلٍ مفصل، ولكن نذكر عنها شيئاً على وجه الإجمال.

العهد القديم: هو العهد الذي قطعه الله مع إِبْرَاهِيمَ، وبعده مع موسى ﷺ، ويتألف العهد القديم من (٣٩) سفرًا أو (٤٣-٤٤) سفرًا حسب الكنائس في المسيحية، وذلك بإضافة أسفار أو أجزاء أسفار وصفت (بالقانونية اللاحقة)،

وهو ما يرفضه اليهود^(٥).

ويقسمون أسفار العهد القديم إلى ثلاثة أقسام، وهي: التَّوراة أو الشريعة المنسوبة إلى موسى عليه السلام، الأنبياء، وهم الأولون والمتأخرون، ثُمَّ الكتب^(٦).

العهد الجديد: هو العهد الذي بدأ مع ظه ور المسيح عليه السلام باعتباره الفادي والمخلص. وأنه يتألف من (٢٧) سفرًا، هي: الأناجيل الأربعة المعروفة (متى، ومرقس ولوقا، ويوحنا)، وأعمال الرُّسل، والبقية رسائل بولس وبطرس ويعقوب ويهوذا ويحنا، ورؤيا يوحنا.

وبعد وضوح هذه المقدمة نرجع إلى صلب الموضوع.

الأول: البشارة بالنبي ﷺ في التَّوراة

وأما البشارات بالنبي الخاتم ﷺ في التَّوراة فإنها كثيرة، نكتفي بذكر بعض النصوص منها:

النص الأول: لقد ذكرت قصة النبي إبراهيم عليه السلام في التَّوراة بشكل مفصل، فبعد ما بلغ إبراهيم من الكبر عتياً، وهو فاقدٌ للذرية جرى هذا الحوار بينه وبين الله تعالى، كما ينقل لنا ذلك سفر التكوين حيث يقول الله لإبراهيم عليه السلام: «لا تخف يا إبراهيم إنا ترسُّ لك، أجرك كثير جداً، فقال إبراهيم أيها السيّد الرب! ماذا تعطيني وأنا ماضٍ عقيماً، ومالك بيتي هو وارث لي، فإذا كلام الرب إليه قائلاً: لا يرثك هذا، بل الذي يخرج من أحشائك هو يرثك، ثم أخرجته إلى الخارج، وقال: انظر إلى السماء، وعدّ النجوم إن استطعت أن تعدّها، وقال: كذا يكون نسلك، فأمن بالرب، فحسبه له برّاً^(٧).

وقد وهب له الله من هاجر - جارية زوجته سارة - إسماعيل، وهو الابن البكر لإبراهيم حسب التَّوراة، وبعد ثلاثة عشر عاماً رزقه الله ابنه الثاني إسحاق من زوجته الأولى سارة.

وتنقل التَّوراة قصة الاختبار الإلهي لإِبْرَاهِيمَ عليه السلام، وتضحيته بابنه، وبعد نجاحه في هذا الامتحان وعده الله تبارك وتعالى، وقال له:

«بذاتي أقسمت، يقول الرب، إني من أجل أنَّك فعلت هذا الأمر، ولم تمسك ابنك الوحيد، أباركك مباركة، وأكثر نسلك كنجوم السماء، وكالرمل الذي على شاطئ البحر، ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض»^(٨).

وبعد ما أنجبت سارة ابنها إسحاق، أرادت أن يستأثر بالبركة من أبيه إِبْرَاهِيمَ دون إِسْمَاعِيلَ؛ لأنَّ ابن هاجر الحِمْيَرِيَّة. وقد وعد الله أن يبارك إسحاق، ويجعل من نسله ملوكاً ورؤساء وأنبياء، ولأنَّ إِسْمَاعِيلَ هو الابن الأكبر طلب إِبْرَاهِيمَ من الله أن يبارك إِسْمَاعِيلَ أيضاً، فخاطب الله قائلاً: «ليت إِسْمَاعِيلَ يعيش أمامك»^(٩)، فاستجاب الله لإِبْرَاهِيمَ وقال له: «وأما إِسْمَاعِيلَ فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً، اثني عشر رئيساً يلد، وأجعله أُمَّةً كبيرة»^(١٠). فقد وعد الله لإِبْرَاهِيمَ عليه السلام أنه سيبارك إِسْمَاعِيلَ بركات ثلاث هي:

- أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً.

- يلد اثني عشر رئيساً.

- أجعله أُمَّةً كبيرة.

والظاهر من البركات الثلاث ولا سيما الأخيرة، أنَّ الأُمَّة العظيمة التي وعد الله إِبْرَاهِيمَ حينما قال الله مخاطباً لنبيه إِبْرَاهِيمَ في التَّوراة:

«اذهب من أرضك، ومن عشيرتك ... فأجعلك أُمَّةً عظيمة، وأباركك، وأعظم اسمك... وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض»^(١١).

هي من نسل ابنه إِسْمَاعِيلَ، وهذا ما تؤكدُه التَّوراة التي بين أيدينا اليوم؛ إذ لم تذكر التَّوراة إطلاقاً بأنَّ الله سيجعل من إسحاق أُمَّةً عظيمة، بل قال سبحانه: «بإسحاق يدعى لك نسل»^(١٢).

بينما تؤكد التَّوراة في ثلاثة مواضع بأنَّ الله تبارك وتعالى سيجعل من إِسْمَاعِيلَ أُمَّةً عَظِيمَةً وهي:

- جاء في التَّوراة: «ونادى ملاك الله هاجر من السَّ ماء وقال لها: مالك يا هاجر؟ لا تخافي؛ لأنَّ الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو، قومي احملِي الغلام، وشدِّي يدك به؛ لأنِّي سأجعله أُمَّةً عَظِيمَةً»^(١٣).

- وجاء أيضاً: «وأما إِسْمَاعِيلُ، فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه، وأثمره وأكثره كثيراً جداً، اثني عشر رئيساً يلد، وأجعله أُمَّةً كَبِيرَةً»^(١٤).

- وجاء أيضاً: «لأنَّه بإسحق يدعى لك نسل، وابن الجارية أيضاً، سأجعله أُمَّةً؛ لأنَّه نسلك»^(١٥).

وهذا يؤكِّد بدون أدنى شك بأنَّ المراد من الأمة العظيمة هي الأمة الإسلامية؛ لأنَّ النَّبِيَّ الْخَاتَمَ ﷺ من نسل إِسْمَاعِيلَ، في حين موسى وعيسى عليهما السلام من نسل إِسْحَاقَ، لا إِسْمَاعِيلَ^(١٦). وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم - أيضاً - كما في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ... * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ...﴾^(١٧).

فالبشارة بلنبي الخاتم ﷺ في هذا النِّصِّ واضحةٌ وجليَّةٌ، ولا تقبل التأويل إطلاقاً، فلم نسمع بأُمَّةٍ عَظِيمَةٍ من نسل إِسْمَاعِيلَ ﷺ إلا أُمَّة النَّبِيِّ الْخَاتَمِ ﷺ.

النص الثاني: جاء في سفر التثنية على لسان موسى عليه السلام ما هذا نصه:

«يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلي له تسمعون»^(١٨).

ويكرِّره بعد ذلك حيث يقول:

«أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، واجعل كلامي في فمه، فيكلِّمهم بكُلِّ ما أوصيه به، ويكون الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلَّم به

باسمي، أنا أطلبه»^(١٩).

فهذه البشارة على لسان النبي موسى عليه السلام واضحة في أن الله تبارك وتعالى يبشّر بني إسرائيل بظهور نبي من إخوة بني إسرائيل، لا يتكلم إلا بما يوحى له، ويكون هذا النبي مثل موسى عليه السلام.

وقد فسّر علماء الكتاب المقدس من النصارى هذه البشارة بعيسى المسيح عليه السلام، وقالوا بأنّ المبشّر به في هذه الآية هو عيسى، لا نبي آخر، ولكن مع الدقة في النص يتضح بطلان ما ذهب إليه النصارى في تفسير هذه الآية، ويمكن الإشارة إلى بعض الرُّقُاط في هذه البشارة التي تؤيد بأنّ المبشّر به هو نبي آخر غير عيسى عليه السلام، وذلك من خلال مقطعين أساسيين:

الأول: «من وسط إخوتهم».

الثاني: «مثلك».

الأول: لقد بشّر موسى عليه السلام بهذا النبي عند مخاطبته الأسباط الإثني عشر الإسرائيليين، فالخطاب بالحقيقة موجّه إلى بني إسرائيل، فمن غير المعقول أن يُدعى بأنّ هذه العبارة «من وسط إخوتهم» تعني من قبائل بني إسرائيل؛ إذ أنّه لو كان كذلك لوجب أن يقول لهم: «من وسطهم»، ولذلك فإنّ النبي المبشّر به لن يكون أبداً من صلب إسرائيل، فـ «إخوتهم» هنا تعني بني إسماعيل؛ لأنّ إسماعيل هو أخّ لإسحاق والد إسرائيل (يعقوب)^(٢٠).

ولقائل أن يقول: إنّ المراد من «إخوتهم» هم بنو عيسو أخي يعقوب، وليس بني إسماعيل أخي إسحاق، ولكن من المسلّم به لدى اليهود والنصارى أنّه ليس هناك أي نبي من ذرية عيسو، ولم يفسّر أحدٌ من علماء الكتاب المقدس هذا النص بأنّ المراد منه بنو عيسو.

ولذلك فإنّ ما ذهب إليه النصارى من تفسيرهم لهذا النص بأنّ المراد منه البشارة بعيسى غير صحيح إطلاقاً؛ لأنّ المسيح - كما يعترفون - ينسب من ناحية

أمّه إلى بني إسرائيل، ومن ناحية أبيه - كما يدعون - فهو ابن الله - والعياذ بالله - فلا يبقى إلا القول بأنّ النبيّ المبشّر به في هذه الفقرة هو النبيّ الخاتم ﷺ.

الثاني: قوله: «مثلك»، وهذا الوصف - أيضاً - لا يمكن أن ينطبق على عيسى ﷺ للأسباب التالية:

أ- عيسى ﷺ حسب اعتقاد النصارى هو ابن الله ، بل الله المتجسد، بينما موسى ﷺ كان عبداً ورسولاً.

ب- عيسى ﷺ كما يدّعي النصارى صُلب على خشبة، ومات ودفن ورفع إلى السماء، في حين أنّ موسى ﷺ لم يصلب، ولم يرفع إلى السماء، بل مات موتاً طبيعياً، ودفن في أرض مواب، كما تنقل التّوراة.

ج - كانت فترة دعوة عيسى ﷺ ثلاث سنوات فقط (٣٠ - ٣٣)، وهذا ما أجمعت عليه الكنائس المسيحية المختلفة، في حين أنّ بعث موسى ﷺ تجاوزت الأربعين سنة، ولهذا فإنّ عيسى لم يأت بشريعة جديدة أبداً، بل شريعته كما يدّعي المسيحيون اليوم اقتصرت على الوصايا الأدبية والأخلاقية، في حين شريعة موسى ﷺ شريعة متكاملة من جميع الجوانب العبادية ، وكذلك المعاملات والدّيّات والمحرمات وغيرها.

د- أنّ عيسى ﷺ لم يتزوَّج قط، في حين أنّ موسى ﷺ تزوّج، وله ذرية كما تصرّح بذلك التّوراة.

وهناك قرائن أخرى كثيرة كلّها تؤكّد أنّ عيسى ﷺ ليس مثل موسى ﷺ، في حين نجد العكس من ذلك بالنسبة لخاتم الأنبياء ﷺ، فهو يشبه موسى إلى حدّ كبير؛ إذ أنّه صاحب شريعة متكاملة، وهو عبد الله ورسوله ، لا ابن الله، أو الله المتجسّد، ورسول الله مات ، ولم يصلب، ولم يرفع إلى السماء. وتزوَّج وله ذرية، ومولودٌ من والدين كموسى^(٣١)، وغيرها من وجوه الشّبه الأخرى الكثيرة التي تؤيد أنّ النبيّ الذي بشّر به موسى ﷺ، والذي هو من ذرية إسماعيل هو النبيّ

الخاتم ﷺ، وهناك آية قرآنية تؤيد ظاهراً هذه المثلية بين النبي الخاتم ﷺ وموسى عليه السلام، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾^(٢٢).

الرَّصَّ الثالث: وهو - أيضاً - بشارة من الكليم موسى عليه السلام؛ حيث جاء في التَّوراة قوله عليه السلام:

«جاء الرَّبُّ من سيناء، وأشرق عليهم من سعير، وتلألأ من جبال فاران، حيث خرج وسط عشرة آلاف قديس؛ لتشع من يمينه أنوار الشريعة... إِنَّه يجب - أيضاً - جميع الشعوب، جميع هؤلاء القديسين هم في يدك، وهم جالسون عند قدميك يتلقون أقوالك»^(٢٣).

فهذا النص واضحٌ في أنَّ موسى عليه السلام يتحدث عن ثلاثة أماكن مباركة، سيكون فيها نبي وحي إلهي، وهذه الأماكن هي:

أ- سيناء ب- سعير ج- جبل فاران.
فسيناء كناية عن الجبل الذي كلَّم الله موسى عليه السلام فوقه وأنزل عليه التَّوراة، وسعير كناية عن الأرض المباركة التي ولد فيها عيسى عليه السلام، وتلقى عليها الإنجيل، وفاران كناية عن الأرض التي سكنها جد رسول الله ﷺ إسماعيل عليه السلام، وأرسل منها النبي الخاتم ﷺ وأنزل عليه القرآن^(٢٤).
وهناك نصُّ قرآنيٌّ يطابق تقريباً هذا الرَّصَّ التوراتي، وهو قوله تعالى:
﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾^(٢٥).

إذ أقسم الله تعالى في سورة التين ببقاع مباركة ثلاث بشكل مجازي، فالتين والزيتون كناية عن أرض فلسطين المباركة التي أرسل منها عيسى، وطور سينين هو الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى عليه السلام، والبلد الأمين مكة المكرمة، التي ولد وبعث فيها خاتم النبيين ﷺ^(٢٦).

فهذه بشارة واضحة من موسى عليه السلام بلنبي الخاتم ﷺ، وفيها - أيضاً -

أوصافٌ لهذا النَّبيِّ، فهو صاحب شريعة عالمية متكاملة، وهو يحب جميع الشعوب، فهو رحمة لهذه الشعوب وبركة، وهذا ما ألك د عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢٧).

النص الرابع: وهي البشارة التي جاءت على لسان النَّبيِّ أشعيا، وكما يعتقد علماء الكتاب المقدس فإنَّ أشعيا عاش في القرن السَّابع أو الثَّامن قبل الميلاد^(٢٨)، وقد ذكر هذا النَّبيِّ في سفره المسمى باسمه في ال كتاب المقدس الموجود بين أيدينا حالياً ما نصّه:

«هو ذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سُرَّت به نفسي، وضعت روحي عليه، وسيُخرج الحق للأُمم، ... لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض، فلتنتظر الجزائر شريعته، هكذا يقول الرب خالق السموات وناشرها، باسط الأرض وما يخرج منها، معطي نسمة للناس عليها، وروحاً للساكين فيها. أنا الرب، دعوتك بالحق، سأخذ بيدك وأحفظك، وأجعلك عهداً للشعب، ونوراً للأُمم ... لترفع الصحراء ومدنها صوتها، الديار التي سكنها قidar، لتترنم سكان سالع، من رؤوس الجبال ليهتفوا ... يخزي خزيّاً المتكلمون على المنحوتات القائلون للمسبوكات أنتنَّ آلهتنا ... أكون الضالّ مثل عبدي، والأصم كرسولي الذي أرسله؟ أكون الأعمى كالكمال، والضال كعبد الله؟! ... الرب قد سرّ من أجل صدقه، يعظم الشريعة ويكرمها...»^(٢٩).

وهذه البشارة للنبي أشعيا لا تنطبق إلّا على خاتم الأنبياء؛ وذلك لأمر عديدة موجودة في هذا النص نشير إلى بعضها:

أ) أنَّ التَّوَيْخ لم يذكر لنا أنَّ نبياً مرسلًا جاء بشريعة متكاملة إلى جميع الشعوب سوى النَّبيِّ الخاتم ﷺ، وما يدعيه النَّصارى من أنَّ هذه البشارة تنطبق على عيسى عليه السلام دعوى مجانبة للحق؛ إذ أنَّ أوّل كلمة في البشارة هي: «هو ذا عبدي»، فللنَّبيِّ المبشّر به عبدٌ لله، فهل يرضى النَّصارى أن يكون عيسى عبد

الله فقط؟ مضافاً إلى أنَّ شريعة عيسى عليه السلام لم تكن إلى كُـلِّ الأمم، بل اقتصرت على خراف بني إسرائيل، كما صرّح هو نفسه بذلك حيث قال: «لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة»^(٣٠)، بل أمر الحواريين والتلاميذ بأن لا يبلغوا تعاليمه إلا لبني إسرائيل، حيث قال: «إلى طريق الأمم لا تمضوا، وإلى مدينة للسّامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة»^(٣١).

في حين أنَّ النَّبِيَّ الخاتم ﷺ - كما يؤكد القرآن الكريم في العديد من آياته - كانت رسالته إلى جميع الأمم والبشر، ومن تلك الآيات الكريمة:
- قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣٢).

- قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^(٣٣).

- قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣٤).

ب) من خلال النص القائل: «سأخذ بيدك وأحفظك، وأجعلك عهداً للشعوب، ونوراً للأمم»، الذي أوردناه في بداية البشارة، يتضح أنَّ هذا المبشّر به سوف يؤيّد وينصر من قبل الله تعالى، وسيحفظه من كيد الأعداء وخدعهم، وهذا لا ينطبق على عيسى عليه السلام أبداً؛ إذ أنَّ الأناجيل التي بين أيدينا تصرّح بأنَّ الله ترك (ابنه الوحيد) عيسى ليصلب على الخشبة، وقد عاتب المسيح عليه السلام الله على ذلك كما ينقل ذلك إنجيل متى، حيث خاطب المسيح الله تعالى معاتباً إياه: «إيلي، إيلي، لما شتقتني؟! أي: إلهي، إلهي، لماذا تركتني»^(٣٥). وهذا يدلّ بوضوح على أنَّ الله تبارك وتعالى - والعياذ بالله - خذل المسيح ولم ينصره أبداً، بل سلّمه إلى أعدائهم، فصلبوه. وعلى العكس من ذلك بالنسبة لخاتم النَّبِيِّينَ ﷺ، فهو كان مؤيداً ومنصوراً من قبل الله تعالى، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في الكثير من

آياته، ومنها:

- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣٦).

- وقوله تعالى: ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾^(٣٧).

وغيرها من الآيات القرآنية الكثيرة التي تؤيِّد بأنَّ الله تبارك وتعالى نصر نبيه الخاتم في مواطن كثيرة، وأنقذه من كيد أعدائِهِ.

ج) وهناك تصريح آخر في النص لا يحتمل التأويل أبداً، فالبشارة تحدد مهبط الوحي، ومكان بعثة هذا النَّبِيِّ الْمُبَشِّرِ بِهِ، فالبشارة تؤلِّد: «لترفع الصحراء وقرأها صوتها، الديار التي سكنها قيدار»، وقيدار هذا هو ابن إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما جاء ذلك في التَّوْرَةِ في سفر التكوين (١٣: ٢٥)، الديار التي سكنها هي بطحاء مكة (وادي مكة) وما حولها، حيث كان يسكن أبوه إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهذا أمر لا يقبل الشك والترديد. وأيضاً كلمة (سالع) التي وردت في البشارة، ف جبل سالع أو (سلع) موجود حتى اليوم وبهذا الاسم قرب المدينة المنورة الذي قال فيه ذريح أحد أصحاب النَّبِيِّ ﷺ:

لعمرك إنني لأحب سلعا لرؤيته ومن بجنوب سلع^(٣٨)

وجاء في معجم البلدان تعليقاً عن هذه المفردة:

«سلع: سلع شقوق في الجبال... وسلع: جبل بسوق المدينة وقال الازهري: موضع بقرب المدينة»^(٣٩).

وهذا يؤكد لنا - أيضاً - بأنَّ البشارة التي جاء بها أشعيا كانت بلنَّبِيِّ الخاتم ﷺ؛ لما أوضحناه.

وأكتفي بهذا المقدار من البشارات التي جاءت في العهد القديم حول سيد المرسلين ﷺ اختصاراً للبحث، وسأطرق إلى البشارة بعفي العهد الجديد، وهو القسم الثاني من الكتاب المقدس لدى النَّصارى.

الثاني: البشارة بالنبي ﷺ في الإنجيل

إنَّ القرآن الكريم أكد على أنَّ المسيح ﷺ قد بشر بالنبي مُحَمَّد ﷺ، ويمكن إثبات هذه الحقيقة حتى في الأناجيل (العهد الجديد) المتداولة بين أيدينا الآن، وبالخصوص من إنجيل يوحنا، وإليك عزيزي القارئ بعض النصوص من إنجيل يوحنا بهذا الخصوص:

(١) النص الأول : يقول يوحنا في إنجيله «إذا كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكُم معزياً آخر ليملك معكم إلى الأبد» (يوحنا: ١٤: ١٥ - ١٦).

(٢) النص الثاني: «وأما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلته لكم».

(٣) النص الثالث: «ومتى جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من عند الأب ينبثق ، فهو يشهد لي وتشهدون أنتم - أيضاً - لأنكم معي من الابتداء».

(٤) النص الرابع: «لكني أقول لكم الحق، إنَّ خيرٌ لكم أن أنطلق؛ لأنَّه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي، ولكني إن ذهبت أرسله إليكم، ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية، وعلى بر، وعلى دينونة».

(٥) النص الخامس: «وأما متى جاء ذاك روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنَّه لا يتكلَّم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمر آتية...».

وهذه النصوص كلها تشير إلى الاسم الصريح للنبي مُحَمَّد ﷺ، وقد استدللَّ على ذلك مؤلف كتاب (أنيس الأعلام في نصره الإسلام) (٤٠) وأثبت أنَّ النصوص الآنفة الذكر من إنجيل يوحنا كلها تشير إليه، ولكنَّ علماء الكتاب المقدس ومفسِّريه هم الذين حرَّفوا معنى هذه الكلمة ، ونذكر هنا استدلاله

باختصار، فنقول:

وجه الاستدلال يتوقف على بيان نكتة، وهي أَنَّ المسيح ﷺ كان يتكلم بالعبرية ويحسن الآرامية، وكانت العبرية هي اللغة السائدة في فلسطين، وكان يعظ تلاميذه به؛ لأنَّه ولد وشبَّ بين ظهرائهم هذا من جانب، ومن جانب آخر أنَّ المؤرخين أجمعوا على أنَّ الأناجيل الثلاثة (لوقا، مرقس، يوحنا) كتبت من أول يومها باللغة اليونانية، وأما إنجيل متى فكان عبرياً من أول إنشائه، وترجم بعد ذلك إلى اليونانية، ولا وجود للنسخة العبرية الآن.

وعلى هذا فالمسيح ﷺ بشر بلنبِّي ﷺ باللغة العبرية، أو الآرامية، وإنما نقله إلى اليونانية كاتب الإنجيل الرابع (يوحنا)، وكان عليه التحفظ على لفظ المسيح؛ لأنَّ القاعدة الصحيحة تقتضي عدم تغيير الأعلام والأتان بنصها الأصلي، لا ترجمة معناها. ولكن يوحنا لم يراع هذا الأصل، وترجمه إلى اليونانية فضاع لفظه الأصلي الذي تكلم به المسيح ﷺ، وفي أثر ذلك حصل الاختلاف في المراد منه، وأما اللفظ اليوناني الذي وضعه الكاتب يوحنا مكان اللفظ العبري فهو مررد بين كونه (پاراقلیطوس / paracletos) الذي هو بمعنى المعزي والمسلي والمعين، أو (پریقلیطوس / pericletos) الذي هو بمعنى المحمود، الذي يرادف أحمد.

ولأجل تقارب الكلمتين في الكتابة والنطق والسمع، حصل التردد في المبشر به، ومفسرو ومترجمو إنجيل يوحنا، يصرون على الأول، ولأجل ذلك ترجموه إلى العربية بللعزي، وإلى اللغات الأخرى بما يعادله ويرادفه، وادَّعوا أنَّ المراد منه هو روح القدس، وأنه نزل على الحواريين في اليوم الخمسين بعد فقدان المسيح ﷺ، ويسمونه (يوم العنصرة)^(٤١).

ولكن القرائن الكثيرة كلها تأبى هذا التفسير لهذه الكلمة بالمعزي، بل كون معناها المحمود أقرب إلى الظاهر، وإليك بعض القرائن على ذلك، كما ينقلها

الأستاذ العلامة السُّبحاني:

١ - أنَّه وصف المبشر به بلفظ (آخر) وأنا أطلب من الأب، فيعطيكُم معزياً آخر، وهذا لا يناسب كون المبشر به نظير روح القدس؛ لعدم تعدده، وانحصاره في واحد، بخلاف الأنبياء فإنهم يجيئون واحداً بعد الآخر.

٢ - أنَّه ينعت ذلك المبشر به بقوله: «ليمكث معكم إلى الأبد»، وهذا يناسب نبوة النَّبيِّ الخاتم التي لا تنسخ.

٣ - أنَّه يقول: «وأمَّا المعزي الروح القدس الذي سير سلّه الأب باسمي، فهو يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلته لكم»، وهذه الجملة تناسب أن يكون المبشر به نبياً يأتي بعد فترة من رسالة النَّبيِّ السَّابق، بعد أن تصير الشريعة السابقة على وشك الاضمحلال والاندثار، فيأتي النَّبيُّ اللاحق يذكر بالمنسي، وأمّا لو كان المراد هو الروح القدس فقد نزل على الحواريين بعد خمسين يوماً من فقد المسيح ﷺ، حسب ما ينصُّ عليه كتاب أعمال الرسل (١: ٥، ٢: ١ - ٤)، أفيظنُّ أنَّ الحواريين نسوا في هذه المدة اليسيرة معالم المسيح ﷺ وتعاليمه حتى يكون النازل هو الموعود به؟!.

٤ - أنَّه يقول: «لأنَّه إن لم انطلق، لا يأتيكم المعزي، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم»، وهذا يناسب أن يكون المبشر به نبياً؛ حيث علّق مجيئه بذهابه؛ لأنَّه جاء بشريعة عالمية، ولا تصحُّ سيادة شريعتين مختلفتين على أمةٍ واحدةٍ في وقت واحد، ولو كان المبشر به هو روح القدس، لما كان لهذا التعليق معنى؛ لأنَّ روح القدس - حسب تصريح إنجيلي متى ولوقا - نزل على الحواريين عندما بعثهم المسيح ﷺ للتبشير والتبليغ (أنظر متى: ١٠ - ١١) (لو: ١٠ - ١١).

٥ - ويقول: «ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية»، وعلى بر، وعلى دينونة...»، وهذا يؤيد أن يكون المبشر به نبياً؛ إذ لو كان المراد هو روح القدس، فهو نزل في يوم الدار على الحواريين حسب زعمهم، فما وبخ اليهود الذين لم

يؤمنوا به أصلاً؛ لعدم رؤيتهم إياه. ولم يويخ الحواريين؛ لأنهم كانوا مؤمنين به.

٦ - ويقول: «ومتى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنَّ لا يتكلَّم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلَّم به، ويخبركم بأمر آتية»، وهذا يتناسب مع كون المبشِّر به نبياً خاتماً، صاحب شريعة متكاملة، لا يتكلَّم إلا بما يوحى إليه، وهذه كلها صفات الرسول الأكرم مُحَمَّد ﷺ^(٤٢).

وأكتفي بهذه القرائن على أنَّ المحققين قد ذكروا قرائن أخرى كثيرة تثبت أنَّ المراد من المبشِّر به هو النَّبيُّ مُحَمَّد ﷺ^(٤٣)، ومن أراد التوسع فليطالع كتبهم^(٤٤).

وختاماً لهذا المختصر أنقل قصة ذكرها مؤلف كتاب أنيس الأعلام في نصره الإسلام بهذا الخصوص تنمة للفائدة، يقول المؤلف:

«مؤلف هذا الكتاب أباً عن جدٍّ من أكابر القساوسة المسيحيين، وولادتي كانت في أرومية في إيران، وتعلَّمت العلوم الدينية عند العلماء والمعلمين النَّصَّاري، ومن جملتهم الأب يوحنا بكير، والقس يوحنا جان، وغيرهم من فرقة البروتستانت. ومن فرقة الكاثوليك الأب (تالو) والقس (كوركز)، وغيرهم من المعلمين اللَّتُوكين للدنيا.

وفي سن الثانية عشرة أكملت الدراسة الأولية، وتخرجت بدرجة قسيس، وبعد ذلك أحببت التَّوسع في البحث عن العقائد والملل المختلفة، ولا سيما المذاهب المسيحية، وطففت البلدان الكثيرة من أجل العلم إلى أن انتهى بي المطاف عند عظيم القساوسة، المطران صاحب المقام الرفيع في فرقة الكاثوليك، وكان صاحب منزلةٍ وشأنٍ عظيم، ومشهوراً في ذلك المذهب بعلمه وتقواه وزهده، بحيث أنَّ الملوك والسلاطين والأشراف والرعية من فرقة الكاثوليك كانوا يلجئون إليه في سؤالاتهم الدينية، وينهلون منه معالم دينهم، ويبعثون إليه بالهدايا الكثيرة، ويتشرفون بالتبرك به.

وقد تعلَّمت الأصول والعقائد للمذاهب المختلفة عند هذا العالم الجليل،

وكان يحضر درس هذا الأستاذ - أيضاً - الكثير من التلاميذ، وكان يصل عددها تقريباً إلى خمسمائة تلميذ، وبيننا الكثير من الأخوات التاركات للدنيا الراهبات. وكانت لي مع العالم علاقة خاصة؛ إذ كان له أنس ومحبّة واهتمام خاص بي، ولهذا فقد سلّمني مفاتيح المدرسة (المسكن والمخزن وغيرها) كلها باستثناء مفتاح غرفة صغيرة خاصة به، وكنت أظن أن فيها أمواله الشخصية، ولذا كنت أحدث نفسي وأقول إن هذا العالم الجليل الزاهد في الظاهر لعلّه من أهل الدنيا، وإنّ ترك الدنيا للدنيا.

وامتدت مدّة دراستي عنده إلى السنة الثامنة عشرة تقريباً، وفي أحد الأيام نزل بالمطران الكبير مرّض أقعده عن الدرس في ذلك اليوم، وأمرني أن أبلغ التلاميذ بأنّه لا يستطيع حضور الدرس؛ لأنّ مزاجه لا يساعد على التدريس، وفعلاً خرجت إلى التلام يذ لا بلاغهم أمر الأستاذ، فرأيت التلاميذ مجتمعين يتباحثون في مسألة علمية، وكان حديثهم يدور حول كلمة (فارقليطا) في السرياني، و (بيرقليطوس) باليولاني، الذي ذكرها (يوحنا) في إنجيله نقلاً عن المسيح عليه السلام. وكثر الجدل والنقاش حول هذه الكلمة، واختلفت الآراء في معنى هذه الكلمة، وانتهى النقاش، وانصرف التلاميذ دون الوصول إلى نتيجة.

وبعدها رجعت إلى غرفة المطران الأعظم فسألني: يا بني، عند غيابي اليوم بأي موضوع تباحثتم؟ فذكرت له أن التلاميذ اختلفوا في معنى كلمة (فارقليطا) وأوضحت له الآراء التي طرحها التلاميذ في هذه المسألة. فسألني: وما كان رأيك في هذه الكلمة؟ فأجبت بآني قد اخترت قول المفسّر الفلاني. فقال لي: لست مقصراً، ولكن الحقّ خلاف هذه الأقوال جميعاً؛ لأنّه لا يعرف معنى تفسير هذا الاسم الشريف في زماننا إلا القليل من الراسخين في العلم، فدنوت منه وجلست عند قدميه، واستعطفته قائلاً: أيها الأب الأعظم، إنك تعلم شدة تعصبي للمسيحية، وأنّي قد صرفت عمري من أوّله إلى الآن في طلب

العلم وتحصيله، فماذا يحدث لو تفضل وتلطف عليّ ، وتوضّح لي معنى هذا الاسم الشريف.

فرايت عينيه اغرورق بالدموع، وأجهش الشيخ بالبكاء، وقال : يا بني إلك والله أعزّ الناس عندي ، ولك منزلة خاصة، ومع أنّ هذا الاسم الشريف له فائدة عظيمة، ولكن بمجرد انتشار هذا المعنى فإنّ المسيحيين سوف يقتلوننا معاً، إلا أن تعاهدي الله على أنّك لا تفشي هذا السر في حياتي ، ولا تذكر اسمي بعد مماتي أيضاً؛ لأنّ المسيحيين إن علموا أنّ هذا التفسير أنا الذي كشفته فإنه م سيخرجونني من قبري ويحرقونني.

فأغلظت له الأيمان بالله العظيم القاهر الغالب، وبحقّ عيسى ومريم عليهما السلام، وبحقّ كل الأنبياء والإ نجيل، بأني سوف لن أبوح بهذا السر عنك أبداً ، ولا أذكر اسمك في الحياة وبعد الممات. فلطمأن لي، وقال: يا بني، إنّ هذا الاسم هو من الأسماء المباركة لنبي المسلمين صلى الله عليه وآله، وهو بمعنى أحمد ومحمود، ومن ثمّ ناولني مفتاح تلك الغرفة الصغيرة، وقال افتح الصندوق الفلاني ستجد الكتاب الفلاني والفلاني، فآتني بهما، فذهبت وجئت به بالكتابين، وكانا باليوناني والسرياني، ومكتوبان على جلدٍ قديم، وقد ترجم لفظ (فارقليطا) فيهما بمعنى أحمد ومحمد فقال لي : اعلم يا بني، أنّ العلماء والمترجمين المسيحيين قبل ظهور نبي الإسلام صلى الله عليه وآله لم يكونوا مختلفين في معنى (أحمد ومحمد)، ولكن بعد ظهوره فإنّ العلماء والقساوسة الكبار حرّ فوا كل الكتب والتراجم التي تفسر هذه الكلمة إلى هذا المعنى، من أجل حفظ رئاستهم ومنافعهم الدنيوية ، وأيضاً حسداً وعناداً وتكبراً، وابتدعوا معنى جديداً لهذا الاسم الشريف، وهذا المعنى الجديد لم يكن أبداً المقصود لكاتب الإنجيل ، ويمكن بسهولة ومن خلال ترتيب ونسق الآيات الموجودة حالياً في إنجيل يوحنا، معرفة المعنى الحقيقي لهذا الاسم، وأنّ معنى المسلي والمعزي والروح القدس لم يكن المقصود لكاتب

الإنجيل.

لأنَّ المسيح ﷺ اشترط في مجيء (فارقليطا) ذهابه ورحيله ؛ لأنَّ لا يجوز اجتماع نبيين مستقلين صاحبي شريعة عامة في زمانٍ واحد، بخلاف روح القدس الذي نزل يوم العنصرة (يوم الخمسين) بعد المسيح ﷺ؛ لأنَّه مع وجود عيسى والحواريين نزل الروح القدس عليه، وهو واضحٌ في إنجيل متى (١٦: ٣) - (١٧)؛ إذ يقول: إنَّ الروح القدس نزل على المسيح ﷺ بعد تعميده من قبل يوحنا المعمدان بصورة حمامة.

وفي ختام القصة يضيف المؤلف قائلاً: فسألت الحبر الأعظم، فما المانع من قبولك للإسلام، ومتابعة سيد الأنام، مع أنَّك تعلم فضيلة الإسلام ، وأن متابعة النَّبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ هو طريق النجاة، والصراط المستقيم المؤدي إلى الله؟ فأجاب: يا بني إنِّي قد اطلعت على هذه الحقيقة في أواخر عمري ، وأنا شيخٌ كبير السن ، وفي الحقيقة إنِّي لا أستطيع ترك هذه الرطة العظيمة ، والعزة والشأن والمقام الرفيع بين النَّصارى، ولكرَّي في الباطن مسلمٌ، وبحسب الظاهر نصراني، وإذا ما أعلنت إسلامي فلنَّهم سوف يقتلونني....

فقلت له : إذن هل تأمرني أن أعتنق الإسلام؟ فقال إن أردت النجاة يجب عليك قبول دين الحق ، ولأنَّك شاب في مقتبل العمر عسى أن يهيئ لك الله سبحانه أسباب الحياة الدنيوية أيضاً ، وإنِّي سوف أكثر الدعاء لك، على أنَّي أشهدك يوم القيامة بأنِّي باطناً من المسلمين، والتابعين لسيد المرسلين مُحَمَّدٍ ﷺ. واعلم أنَّ أغلب العلماء والقساوسة الكبار في باطنهم لهم نفس حالتي، ولكنهم لا يستطيعون ترك الرطة الدنيوية، وإلَّا فليس هناك أيُّ شك وشبهة في أنَّ الإسلام اليوم هو دين الله على الأرض^(٤٤).

وينقل مؤلف كتاب قصص الأنبياء المرحوم عبد الوهاب النجار حول هذه البشارة بخاتم الأنبياء ﷺ في إنجيل يوحنا:

«كنت في سنة ١٨٩٣ ميلادية طالباً بدار العلوم في السنة الأولى، وكان يجلس بجانبني - في درس اللُّغة العربية - العلامة الكبير الدكتور كارلو نلنيو المستشرق الطلياني، وكان يحضر درس اللُّغة العربية بتوصية من الحكومة الإيطالية، فانعقدت أواصر الصلابة المتينة بيني وبينه، ... وفي ليلة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٣٦١ خرجنا بعد المحاضرة، وسرنا في درب الجمايز، فقال لي الدكتور نلنيو: هذه الليلة ليلة المعراج؟ قلت: نعم. فقال: وبعد ثلاث أيام عيد السيدة زينب؟ فقلت: نعم، ثم قلت له: ما رأيك يا دكتور في المعراج؟ فقال: هو ذهاب النبي ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ليلاً وصعوده إلى السماء، وعوده إلى مكة في ليلة واحدة. فقلت: أنا أعلم أنك تفهم هذا، ولكن الذي أريد أن أعرفه هو رأيك في هذا القول؟ هل هو صحيح أو كاذب؟ وكان الرجل مؤدباً جداً، فقال: هذا شيء عجيب! فقلت: يوجد ما هو أعجب منه؟ قال: ما هو؟ قلت: إنَّ المسيح يصلب ويقتل ويدفن، ثم يقوم من الأموات، ويصعد إلى السماء، ويجلس على يمين الله! قال: وهذا - أيضاً - شيء عجيب، ثم قلت له - وأنا أعلم أنَّه حاصلٌ على شهادة الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة - : ما معنى (بيريكلتوس)؟ فأجابني بقوله: إنَّ القسس يقولون إنَّ هذه الكلمة معناها المعزي. فقلت: إنِّي أسأل الدكتور كارلو نلنيو الحاصل على الدكتوراه في آداب اللُّغة اليونانية القديمة، ولست أسأل قسيساً. فقال: إنَّ معناها الذي له حمد كثير. فقلت: هل ذلك يوافق أفعال التفضيل من حمد؟ فقال: نعم. فقلت: إنَّ رسول الله ﷺ من أسماؤه (أحمد). فقال: يا أخي! أنت تحفظ كثيراً، ثم افترقنا» (٤٥).

نعم، يا عزيزي القارئ إنَّها الحقيقة التي لا غبار عليها، وهي واضحةٌ وجليةٌ لكلِّ باحث، ولا شك ولا ريب فيها، ولكنَّ العصب وحسب الدنيا هي التي تمنع الإنسان من الإذعان والخضوع للحق، واعتقد أنَّ هذه الحقيقة لوحدها

كافية للكل عاقل ذي لب يروم الوصول إلى الحق، ولمن يستمع القول فيتبع
أحسنه، فيؤمن بأن النبي الخاتم محمدًا ﷺ هو النبي المبشر به في التوراة
والإنجيل، وهو نبي آخر الزمان. وأن الإسلام هو الدين الحق.

* * *

الهوامش:

- (١) الأعراف: ١٥٧.
- (٢) البقرة: ١٤٦.
- (٣) الصف: ٦.
- (٤) المائد: ٨٢-٨٣.
- (٥) قاموس الكتاب المقدس: ص ٧٦٣.
- (٦) المصدر نفسه.
- (٧) سفر التكوين: الإصحاح ١٥: ١-٦.
- (٨) تكوين: ٢٢: ١٦-١٨.
- (٩) سفر التكوين: الإصحاح ١٧: الآية ١٨.
- (١٠) تكوين: ١٧: ٢٠.
- (١١) تكوين ١: ١٢-٣.
- (١٢) تكوين ٢١: ١٢.
- (١٣) تكوين ١٧: ٢١-١٨.
- (١٤) تكوين ١٧: ٢٠.
- (١٥) تكوين ٢١: ١٢-١٣.
- (١٦) بشائر الأسفار بمحمد وآله الأطهار، تامر مير مصطفى، ص ٦٩.
- (١٧) البقرة: ١٢٧-١٢٩.
- (١٨) سفر التثنية ١٨: ١٥.
- (١٩) التثنية ١٨: ١٨-١٩.
- (٢٠) بشائر الأسفار بمحمد وآله الأطهار، ص ٧٨.

- (٢١) المصدر السابق.
- (٢٢) المزمّل: ١٥ .
- (٢٣) سفير التثنية الإصحاح ٣٣: ٢-٣ .
- (٢٤) إبراهيم خليل احمد، القسيس المصري الذي أشهر إسلامه ودافع عنه عمره، في كتابه ((محمد في التّوّارة والإنجيل والقرآن)) ص ٦٦، نقلاً عن كتاب بشائر الأسفار.
- (٢٥) التين: ١-٣ .
- (٢٦) بشائر الأسفار بمحمد وآله الأطهار ص ٩٢ .
- (٢٧) الأنبياء: ١٠٧ .
- (٢٨) بشائر الأسفار ص ١٥١ .
- (٢٩) سفر أشعيا: الإصحاح ٤٢: ١-٣٠ .
- (٣٠) إنجيل متى، ١٥: ٢٤ .
- (٣١) إنجيل متى، ١٠: ٥-٦ .
- (٣٢) سبأ: ٢٨ .
- (٣٣) الفرقان: ١ .
- (٣٤) الأعراف: ١٥٨ .
- (٣٥) إنجيل متى: الإصحاح ٢٧: ٤٦ .
- (٣٦) الأنفال: ٦٢ .
- (٣٧) الفتح: ٣ .
- (٣٨) بشائر الأسفار بمحمد وآله الأطهار، ص ١٦٢ .
- (٣٩) معجم البلدان ١١٧: ٣ مادة سلع، نقلاً عن بشائر الأسفار بمحمد وآله الأطهار، ص ١٦٢ .
- (٤٠) مؤلف هذا الكتاب أحد القسيسين، وينقل في مقدم ته أنه ولد في أرومية في إيران واشتغل بطلب العلوم الدينية وكان في فرقة البروتستانت ، وقام بتأليف هذا الكتاب بعد إسلامه ، ولقب بفخر الإسلام، واسمه محمد صادق، وهذا الكتاب في ستة أجزاء وطبع في إيران باللغة الفارسية.
- (٤١) الإلهيات ج ٣ ص ٤٤٩ .
- (٤٢) الإلهيات ج ٣ ص ٤٥٠-٤٥٢ .
- (٤٣) من أراد التفصيل فليرجع إلى كتاب أنيس الأعلام في نصرة الإسلام ج ٥ ص ١٣٩-١٧٢ .
- (٤٤) كتاب (أنيس الأعلام في نصرة الإسلام) ج ١ ص ٦-١٩ والكتاب كما ذكرت طبع بالفارسية وقد ترجمت من الفارسية إلى العربية - الكاتب
- (٤٥) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص ٣٩٨ .

الغرب المستكبر والحريات الكاذبة

فرنسا والإساءة إلى النبي ﷺ نموذجاً

□ الأستاذ: لطفى رشيد العالي (*)

تقديم:

ليس لدينا في هذا العالم، كأمة إسلامية، شعوباً وحكومات، أفراداً ومجتمعات، عرباً وعجماً، أغلى من رسول الله الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ.. بل من دون هذا الرجل فنحن - حقاً وحقيقة - لا نمتلك من رصيد الحضارة شيئاً..

فالعرب المسلمون دون هذا الرجل لم يكونوا إلا أعراب الجاهلية، أعراب الجهل والعصبية..

والعجم المسلمون - أيضاً - من دون هذا الرجل كانوا عبدة النار والأوثان.. من دون التوحد حول مائدة محمد ﷺ رسول الله ﷺ نضحى - نحن المسلمين - مجرد مجتمعات ضئيلة، ممزقة، موبوءة، تنهشها الأمراض الاجتماعية، والمفاسد الأخلاقية، والتقاليد البدائية، مجرد مجتمعات خشبية متخلفة تقبع في القعر من المجتمعات البشرية، لا يُذكر لها ذكر في مجالات العلم والمعرفة والفكر والثقافة،

(*) أكاديمي وباحث إسلامي / مقيم في فرنسا.

ولا يُحسب لها حساب..

من دون التحلّق تحت راية محمّد رسول الله ﷺ، فنحن الدول والأنظمة الإسلامية - الآن كما في زمن الجاهليّة - مجرد قبائل وعشائر تتلاطمها القوى الكبرى، (الروم والفرس سابقاً، والغرب والشرق حالياً)، وتتقاذفها فيما بينها، وتؤذف بعضها ببعض، على حسب مصالحها ومطامعها. وللذي لم يصدّق ذلك حقيقةً، نحيله إلى حال الأنظمة العربيّة اليوم، تلك الأنظمة العشائريّة القمعيّة التي تتسوّل اليوم الرضا الأمريكيّ، ولو على حساب شعوبها وأمتّها، ولو على حساب قضايا الأمة الكبرى، كقضيّة القدس وفلسطين، أو قضيّة حماية الدين والمقدّسات في وجه حملات الإساءة والاستهزاء وانتهاك الحرمات والاعتداء على الكرامة الإسلاميّة أو الإنسانيّة العامّة.

لقد أمرنا الله تعالى نحن المسلمين بأن نتّبع النبي ﷺ ونتأسّى به، ونقتدي بهداه، وهذه التبعيّة المطلوبة هي التبعيّة في كلّ شؤون الحياة، لا على مستوى السلوك الفرديّ الخاصّ فحسب، بل على المستوى الاجتماعيّ العامّ وفي أوسع نطاقه أيضاً، وإنّما تتّسع دائرة هذه التبعيّة، وهذا التأسّي إلى هذا الحدّ، بسبب أنّ هذا الإنسان العظيم، هو نفسه، ليس أسوةً في أقواله فقط، بل في أفعاله، وفي نمط عيشه، وفي كيفيّة معاشرته للناس، وفي إدارته لأسرته، وفي كيفيّة تعامله مع أصحابه، وفي كيفيّة التعاطي مع الأعداء والذين هم من أتباع غير هذا الدين، وفي سلوكه مع الضعفاء والأقوياء؛ فهو الأسوة الحسنة، وهو القدوة في كلّ شيء، وفي كلّ المجالات التي يمكن للإنسان أن يحتاجها في حياته الاجتماعيّة. ومن هنا نقول، إنّ المسلم منّا إنّما يكون مسلماً بالمعنى الكامل للكلمة حينما ينطبق سلوكه الفرديّ والاجتماعيّ على سلوك النبي ﷺ، كما أنّ مجتمعاً تاماً وحكوماته الإسلاميّة إنّما تكون مجتمعاتٍ وحكومات إسلاميّة بالمعنى الكامل

للكلمة حينما ينطبق سلوكه على سلوك دولة النبي ﷺ وحكومته، وعلى سلوك المجتمع كما يريده النبي ﷺ.

إنّ هذه الهجمة التي تُشنّ اليوم على النبي الأكرم ﷺ ليست بجديدة، بل هي قديمة جداً، وتعود إلى أيام الجاهليّة، وأنداك - كما الآن أيضاً - كان وراء شتمها اليهود والمستكبرون في الأرض، ولكن بالرغم من ذلك، فإنّ دعوة الحقّ التي جاء بها ﷺ انتشرت وعمّت الآفاق والأرجاء، وإنّ صورة سيّدنا محمد ﷺ بقيت، وستبقى، مشرقة، بهيّة، ورائعة مهما حاول المشكّكون تشويهها .. وبقي، وسيبقى، كلام سيّدنا محمد ﷺ أجمل وأعذب الكلام، مهما حاول الملاحدون أن يفعلوا، وكذلك سيبقى نور القرآن ونور الله مضيئاً برّاقاً مهما حاول المبطلون إطفاءه بأفواههم. قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿التوبة: ٣٢-٣٣﴾.

ومن هنا نقول : إنّ مطالبتنا المسلمين والمسيحيين وأحرار العالم اليوم، في الوطن العربيّ وفي العالم الإسلاميّ، والغربيّ، على حدّ سواء، بأخذ موقف جامع، حازم، وموحد، في رفض ما يحدث من محاولات الإساءة إلى النبي الكريم ﷺ، ليست مطالبة لهم بذلك من باب الدفاع عن رسول الله ﷺ، أو من باب الحرص على تحسين صورته... كلا.. فهو ﷺ ليس بحاجة إلى ذلك منّا، فلقد عظم الله سبحانه وتعالى قدر نبيّه ﷺ، ورفع ذكره، حيث قال - عزّ من قائل - في سورة الشرح: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]... ومن رفع الله ذكره، ومن جعل الله له نوراً، فلن يستطيع هؤلاء المنحطّون، أن يُخزلوا شيئاً من ذكره الحسن، ولا أن يطفئوا ذلك النور...

وإنّما نطالب بذلك دفاعاً عن الإنسانيّة نفسها، ولأجل أنّ السكوت عن مثل هذه الجريمة يُعدّ مؤشراً خطيراً على انحدار مستوى الإنسانيّة عند المجتمعات

البشريّة، وأنّ الإنسان المعاصر قد غدا اليوم أقرب من أيّ زمنٍ مضى إلى حالة البهيميّة والافتراس والتوحّش.

إنّ التعرّض للرسول الكريم ﷺ هو تعرّض للتاريخ العربيّ والإسلاميّ، وهو تعرّض للحضارة الإنسانيّة، وهذا ليس تعدّيّاً على شخص الرسول ﷺ فحسب، بل هو تحدّيّ لله سبحانه وتعالى... وسينصر الله نفسه ونبيّه إن شاء الله... وقد قال تعالى: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿[الحجر: ٩٤-٩٥].

فرنسا والحرّيات الكاذبة

لطالما ادّعت فرنسا ومثيلاتها من الدول الأوروبيّة والغربيّة، إضافةً إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة - طبعاً -، الحرّيّة، وصيانة الحرّيّات، بل وأنها هي التي تصدّرها إلى الخارج، وأنها تقدّم للعالم كلّ دروساً في الحرّيات، وأنواعها، وفنونها، وأشكالها، وحدودها التي يزعمون أنّها لا متناهيّة، وحول كيفيّة تطبيقها، وضرورة إحلالها، وأنها الحقّ المقدّس الذي لا يجوز المساس به بأيّ شكلٍ من الأشكال، وهي حقّ لكلّ إنسانٍ على هذه البسيطة، مه ما كان لونه، أو اسمه، أو شكله، أو عرقه، أو دينه، أو انتهاؤه، أو فكره، أو سنّه، أو... هكذا يزعمون، وهكذا يحاولون من خلال الدعايات المركّزة، والإعلام الموجّه، أن يقنعوا العالم بذلك.

وتروّج أمريكا للديمقراطيّة الأمريكيّة، وفرنسا للحرّيات الباريسيّة، ولندن للتعديّة الانجليزيّة، والدانمارك لحرّيّة الإعلام الدانماركيّة، وألمانيا لحرّيّة التعبير، وهكذا...

ولكنّ هذه الدول اليوم انكشف وجهها الحقيقيّ، وبان المبيّت من نواياها السوداء، وافضح أمرها، وانكشف كلّ الزيف الذي سعت عبر سنين طويلة

متبادية إلى أن تخذع وتضلل به شعوب الأرض، واتّضح لكلّ ذي عينين أنّه دول أبعد ما تكون عن الديمقراطية وصيانة الحرّيات وحقوق الإنسان والسلام العالمي، بل ما هي في الحقيقة إلّا أكثر ال دول قمعاً لحرّيات، وحداً وتقييداً وخنقاً وتزويراً وانتهاكاً لها، وتحجيراً وتضييقاً واعتداءً عليها.

نتحدّث هنا عن الحرّيات الشخصية، وهي - في المفهوم العالمي المعاصر - عبارة عن أن يفعل الإنسان ما بدا له ، وما يشاء، بشرط أن لا يتعدّى على حرّية الغير، وعلى حقوق الآخرين، أي: أن حرّية كلّ شخص تتوقّف عند هذا الحدّ .

هكذا أيضاً يزعمون على مستوى التنظير والتعريف وبيان المفهوم!!

ولكن على مستوى التطبيق، فهم أبعد ما يكونون عن هذا التحديد، وعن

هذا المفهوم، بل هم - في الحقيقة - يطبقونها بشكل عكسي ومقلوب.

ولنأخذ فرنسا على سبيل المثال ، فالحرّية عندها أنّه يحقّ لك أن تفعل كلّ شيء، ولكن بشرط أن لا تكون مسلماً، وأما إن كنت مسلماً، فأنت إنسان مهان ومنبوذ عندها ومنوع من ممارسة حرّية شخصيّة. فهم يمنعون النسوة المسلمات من ارتداء الحجاب مثلاً، مع أنّ ارتداء الحجاب فعلاً يُحمّد من الحرّية الشخصية، وليس فيه أيّ شكل من أشكال التعدي على حرّية الآخرين، كما أنّ الخلاعة - في المقابل - حرّية لا تعدي فيها على حرّية الآخرين بالنظر الأوّليّ (بصرف النظر عن رأي الشرع في ذلك)، فلماذا - إذاً - لا يمنعون الخلاعة والانحلال الخلقيّ ويمنعون الحجاب؟!؟

وعندما تكون مسلماً في فرنسا، فلنلنك تسمع الإهانات الموجهة إليك، وتسمع السطاوول على مقدّساتك، وتسمع الشتائم والإهانات تُوجّه إلى أقدس الكائنات، وهو النبيّ محمد ﷺ، ولا يسمح لك حتى برفع الصوت، فضلاً عن التظاهر والاحتجاج؛ ذلك تحت ذريعة أنّ الجهة التي أساءت إلى نبيّ الإسلام تمتلك حرّية التعبير، وأنّه لا بدّ من الدفاع عن حرّية الصحافة والإعلام!!

ولكنَّ حرّية الإعلام هذه، وحرّية التعبير، وحرّية الصحافة، وحرّية الرأي، و... كلّ هذا، لا وجود له تماماً عندما يتعلّق الأمر بالحديث عن جرائم الصهاينة في فلسطين، وفي غير فلسطين، ولا عندما يتعلّق الأمر بالحديث عن الابتزاز الصهيونيّ للعالم كلّ ه على خلفيّة المحرقة الأسطورة، أو عن جرائم الامبراطوريّة الفرنسيّة في البلدان التي كانت واقعةً تحت استعمارها وسيطرتها واحتلالها...

فهذا كلّ لا مجال فيه لحرّية الرأي، ولا لحرّية الصحافة والإعلام، ولا لحرّية التعبير، ولا لأيّ حرّية أخرى!!

هو - بكلّ بساطة - فوق كلّ الحرّيات، وناسخ لكلّ الحقوق!!

وفما يتعلّق بالفيلم المسيء لنبيّ الإسلام العظيم ﷺ، وكذلك الرسوم المسيئة واللاأخلاقية التي أرادوا من خلال انتهاك حرمة الرسول ﷺ، نقول: إنّ هذه الانتهاكات لم تسئ إلى رسول الله ﷺ، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]، وإنّما هي أساءت إلى أصحابها، حيث كشفت عن جنونهم، وعن هوسهم المختزن في ذواتهم أمام ما شاهدوه من عظمة نبيّ الاسلام محمد ﷺ.

ولكن ما هي وظيفتنا - نحن المسلمين - إزاء هذه الانتهاكات؟!

إنّ أولى وظائفنا اليوم كأمة إسلامية هي أن نتحد فيما بيننا، ونخلّص أمّتنا من مرض الانقسام والتشرذم الذي تعاني منه منذ قرون من الزمن ثمّ بعد ذلك علينا أن نتعامل مع تلك الدول المسيئة للإسلام، وعلى رأسها أمريكا و"إسرائيل" والدول الأوروبيّة الكبرى، على أساس أنّه دول محاربة للإسلام والمسلمين؛ لأنّ الحرب لا تقتصر على القتال والتحرّك العسكريّ فحسب، كما هو واضح..

وإذا كانت هذه دولاً عدوّة ومحاربة، فإنّ علينا أن نتصدّى لمحاربتها بما

يتناسب مع عدائها لنا، و بكلّ الوسائل المشروعة المتاحة والممكنة، بدءاً بطرد سفاراتها من بلاد المسلمين، والنيل من مصالحها أينما وجدت، ومقاطعة كافة منتجاتها (بعد العمل على توفير البدائل)، إلى غير ذلك.

قال سبحانه في محكم الكتاب العزيز : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

* * *

ثقافة المقاطعة

ردّ حاسم على التوهين والإساءة

□ الأستاذ: أحمد فارح الحاشدي (*)

تجزيّة

الشريعة الإسلامية - دون شك - هي شريعة العدالة، والسماحة، والحب، والمودة، والاعتدال، والوسطية، والخير، والفضيلة، والجمال، وهي أيضاً شريعة الحوار مع الآخر، وهي شريعة الكلمة الطيبة، والجدال بالتي هي أحسن، وهي شريعة الرفق بمخلوقات الله، وأخذهم أخذاً هيناً ليناً..

نعم، هي الشريعة التي تقرّ بوجود الآخر، وتعترف به، وإن خالف في أمّهات المسائل الاعتقادية أو الأصولية، وهي الشريعة التي تعترف به وتدعو إلى احترامه أخاً في الدين، أو نظيراً في الخلق، وهي الشريعة التي تخاطب الآخر الذي هو - من وجهة نظرها - بعيد كلّ البعد عن جادة الحق والصواب بلغة : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]!! وهي - فوق هذا كلّه - الشريعة التي تنبذ العصبية، وتذمّ التطرّف، وتقبح

(*) كاتب وصحافي يمنيّ.

التشدد، وتدعو إلى الانفتاح، و سعة الأفق، واستماع القول كله وأتباع أحسنه، هي - باختصار - شريعة السماء لبناء حضارة إنسانية سامية .
هي كل هذا وأكثر..

ولكنّها، في الوقت عينه، وفي الوقت التي هي شريعة الحبّ في الله، فهي أيضاً شريعة البغض في الله...

وكما أنّها شريعة الرحمة والتراحم ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، فكذلك هي شريعة الشدّة على أعداء الله، ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩]...

هي ليست شريعة غبيّة أو مغفلة أو طوباويّة حاملة ليكون لها فقط عين واحدة ترى فيها، بل هي ترى جيّداً، وبكلتا العينين، وكما أنّها تقدّم للمؤمن الذي يعيش في وجدانه أسمى قيم الإِنسانية ما يستحقّه من الاحترام والحبّ، فهي كذلك، وبنفس المستوى، تتعامل مع الكافر أو الفاسق الذي اعتدى على الإِنسانية في نفسه، أو عند سائر البشر، بالتعامل الذي يستحقّه من البغض والعداء...

والإسلام يأسف دون شكّ لضلالة من يضلّ، وانحراف من ينحرف، ويفرح ويسعد باهتداء من يهتدي، ولكنّه يرى أنّ إصرار الضالّ على ضلالته، والمنحرف على انحرافه، رغم كلّ ما يُلقى على مسامعه من الآيات والحجج ما هو إلّا إصرار على انتهاك القيمة الإنسانية، التي هي أعلى القيم، وأرفعها، وأكملها، ومن يصرّ على انتهاك هذه القيمة العالية فهو عدوّ للإنسانية، فتجب معاداته، ويجب أن يتخذ ضده موقف صارم حازم لا لين ولا هوادة فيه ومن هذا المنطلق، فإنّنا ندعو المسلمين جميعاً، في مشارق الأرض ومغاربها، إلى اتّخاذ الموقف المناسب من هذه الاعتداءات الجارحة والانتهاكات المسيئة لحرمة نبيّنا الكريم ﷺ، ولنعلم المسلمون جميعاً أنّ غضبهم في هذا السبيل غضب مقدّس، بالرغم من بعض الفتاوى العابثة التي تصدر عن شيوخ الفتنة

كالقرضاوي وأمثاله؛ هو غضب مقدّس لكونه غضباً لانتهاك أعظم الحرمات الإنسانية، وحرمة أعظم ما تملكه الإنسانية، وهم الأنبياء، ولا سيما النبيّ محمد بن عبد الله ﷺ، الذي امتدحه الله عزّ وجلّ في كتابه الكريم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وإننا هنا نتساءل:

لماذا كلّما تحرّكت الشعوب لنصرة نبيّها، ولظنت بوصلة المواجهة نحو أمريكا وإسرائيل نجد شيوخ الفتنة هؤلاء خارج التغطية؟!

ولماذا نجد قسّات الغضب على وجّه (شيخ الشريعة والحياة!!) القرضاوي وهو يحترّض السوريين بعضهم على بعض، ولا نجد شيئاً منها في مقام اتّخاذ الموقف الإسلاميّ من الإساءات لنبيّ الإسلام؟!

كما نسأل: إنّ السعوديّ (بلد الحرمين!!) منذ شهور سحبت سفيرها من مصر بحجّة قذف الذات الملكيّة!! فلماذا لم يتمّ سحب السفير السعوديّ من أمريكا بسبب توجيه الإهانة إلى ذات وشخصيّة ودين وقرآن الرسول ﷺ؟!

ولماذا قطعت المملكة العربيّة السعوديّة علاقاتها الدبلوماسية مع بريطانيا بسبب فيلم أنتجته الأخيرة حول موت أميرة سعوديّة، ولم تقدّم على قطع المياه عن حنفيّة واحدة للسفارة الأمريكيّة بسبب الفيلم المسيء لنبيّ الإسلام ﷺ؟!

ولربّما نجد الجواب عن هذه التساؤلات في كلام قاله الناشط البريطانيّ جورج غالواي:

«آل سعود يمتلكون ثلاثة تريليون دولار في المصارف العالميّة (الصهيوي-أمريكيّة).. لو أنّ آل سعود ألحوا فقط بتهديد... ألحوا فقط.. بمجرد تهديد، أنّهم سيسحبون أموالهم من هذه المصارف إن لم يضع الصهيينة والأمريكان نهاية لاحتلال فلسطين، فإنّ هذا كافٍ لتحرير فلسطين دون شكّ.. إنّ أقلّ تأثيرات هذا التهديد سيكون انهياراً لأسواق الأسهم والبورصة الأمريكيّة

الصهيونية... لكن آل سعود لن يفعلوا هذا حتماً، ونحن لا نتوقع من آل سعود أن يضحوا بشيء من أموالهم، ولا بشيء من حيثيات مناصبهم، فضلاً عن دمائهم وأنفسهم.. وذلك - ببساطة - لأن نسبة الكحول في دمائهم هي أكثر من نسبة البلازما فيها!!!».

المقاطعة سلاح فاعل

تتصاعد في عالمنا الإسلامي الأصوات والدعوات الموجهة إلى المسلمين، لمقاطعة الجهات الغربية، الحكومية وغيرها، التي تقف وراء توجيه سيل الإهانات والإساءات إلى المقدسات الإسلامية، ولا سيما إلى شخص النبي الكريم محمد بن عبد الله ﷺ، وكتاب الله العزيز، القرآن الكريم. وفي الحقيقة، إن ثقافة المقاطعة جزء لا يتجزأ من ثقافة المقاومة... بل هي تدرج في ضمن أسلحة المواجهة الأكثر فعالية في هذا العالم، حيث إن المقاطعة تستهدف اقتصاد الدول المستعمرة، والاقتصاد - كما هو معلوم - هو عصب هذا العالم وقوامه وركنه الأساسي.. إن سلاح المقاطعة - على الساحة العالمية - ليس أقل قطعاً، ولا أضعف حدّاً وفتكاً من السلاح العسكري والحربي... فلقد أثبتت التجارب التاريخية الكثيرة أنّ المستعمرين يمكن لهم أن يعيشوا بلا قيم، وبلا أخلاق، وبلا مبادئ، ولكنك عندما تهددهم في جيوبهم، وأموالهم، ومصالحهم الشخصية، أو فقل: في بطونهم وفروجهم، وفي حياتهم المرفهة، فإنهم لا يطيقون صبراً، ولا يتحملون، ويشعرون بالانزعاج الشديد. إن المقاطعة هي شكل من أشكال المقاومة، وبرأيي فهي لا تحتاج إلى دليل على مشروعيتها؛ بل العقل الأولي يرشد إلى أنّ الإنسان إن لم يكن قادراً على إلحاق الأذى بعدوّه الذي يتربص به شراً، فلا أقلّ من أن لا يكون هو من يملأ

خزائن أمواله...

وهذه أقلّ متطلّبات العدا، الذي هو - بطبيعة الحال - عدا في الله، وفي سبيل الله.

المقاطعة تعني فيما تعنيه: أن لا تدفع أموالك لمن سيحوّلها - بشكل مباشر أو غير مباشر - إلى سَمٍّ يقتلك به، أو إلى سلاح يشهره في وجهك، وهكذا... المقاطعة ليست هروباً من المواجهة، بل هي حرب حقيقية، لكنّها حرب غير عسكرية، هي حرب اقتصاديَّة أو إعلاميَّة أو سياسيَّة أو فريقيَّة أو ثقافيَّة أو... وهي - عند من يستحبّون هذه الطريقة في الكلام - أسلوب حضاريٍّ للمواجهة... وبالنظر إلى أنّ العالم العربيّ والإسلاميَّ يملك ثروة هائلةً من سلاح النفط، الذي لا يزال يُصنّف في خانة أقوى الأسلحة عالمياً، ف لو أنّ الدول العربيّة والإسلاميّة استطاعت أن تهدّد الغرب (أن تهدّد فقط) بمقاطعة نفطيّة، فإنّ العالم كلّ سوف يهتزّ على وقع هذا التهديد، وسترضخ الدول الغربيّة رغم أنوفها له؟

وبالنظر - أيضاً - إلى أنّ الأسواق في بلداننا العربيّة والإسلاميّة غارقة بللبضاعات الأمريكيّة والصهيونيّة والغربيّة، فلو أنّ بطون العرب والمسلمين استطاعت أن تبتعد عن الأطعمة أو المطاعم أو الأبراج أو المتنزهات أو المشروبات أو... أو... الغربيّة، لأحدثت وقعاً كبيراً في الأسواق الغربيّة، ولألحقت خسائر فادحة بالشركات الاقتصاديّة الغربيّة.

ولنأخذ الجمهوريّة الإسلاميّة مثلاً صارخاً ونموذجاً حيّاً في هذا المجال، فإنّه لا يمكن لأحد أن يرى مستوى التأثير الإيراني على الساحة العالميّة، فإيران اليوم هي الشغل الشاغل في كثيرٍ من المحافل الدوليّة، وهي قد قاطعت الكثير من المنتجات الغربيّة..

صحيح أنّ منتجاتها لم تغزُ بعد الأسواق العالميّة أو الإقليميّة؛ إذ هذا أمر

يحتاج حصوله إلى وقتٍ وصبرٍ والمزيد من التضحيات، ولكنّها استطاعت أن تحقق الاكتفاء الذاتي في كثير من المساحات والمجالات داخلياً، لا في المجال العسكري والتكنولوجي فحسب، بل وفي مختلف المجالات المعيشية والحياتية الضرورية أيضاً.

إنّ امتلاك الجمهورية الإسلامية الإيرانية لسلّاح قويّ هو أمر مؤثّر بلا شك في محاربتها عالمياً، ولكن، وفي الوقت عينه، فإنّ أمريكا وأعوانها الغربيّين عندما خسروا إيران بسقوط الشاه المقبور، فهم إنّما خسروا سوقاً استهلاكيةً ضخمةً لمنتجاتهم، وإنّ الاكتفاء الذاتي الذي حقّقه إيران، (والذي نتج بسبب إصرار الشعب الإيراني على مواجهة الحصار المفروض، وبسبب المقاطعة التي ضحّت العزم في شرايين الشعب الإيراني) هو أكثر ما يزعج الأمريكيّين والغربيّين، وإن لم يصرّحوا بذلك، وهذه هي السياسة في عالم اليوم ... سياسة الكذب وإخفاء الحقائق!!

وأما الذين لا يرون المقاطعة سلاحاً فاعلاً تحت ذريعة أنّ القلّة القليلة من العرب والمسلمين تلتزم بها، فنقول لهم: إنّ المقاطعة سلاح قويّ لو عمل بها المليار ونصف المليار مسلم، ومن وظيفتنا أن نحاول ونسعى جاهدين إلى أن نعمّم ثقافة المقاطعة قدر الإمكان.

وعلى كلّ حال، تبقى الوظيفة والمسؤوليّة ملقاةً على عاتق كلّ منّا سواء عمل بها الآخرون أم لم يعملوا، ولا يكون عصيان الآخرين وعدم امتثالهم مبرراً لنا لترك الوظيفة. وسواء آتت المقاطعة نتيجةً فاعلةً أم لا، فإنّها تبقى رسالةً تصل إلى مسامع المسيّئين إلى حرمة نبينا ﷺ، وتبقى شكلاً من أشكال التعبير عن الرفض، ويبقى وزنها عند الله عظيماً.

دور الوراثة والمحيط في بناء الشخصية

على ضوء منهج الثقلين

□ الأستاذ: سعيد العذاري (*)

تقديم

أثبتت الدراسات التربوية والاجتماعية المستفيضة الأثر الواضح للوراثة في تكوين شخصية الإنسان وخاصة في الجانب الأخلاقي؛ حيث تنعكس على جميع جوانبها الجسدية والنفسية والروحية؛ فأغلب الصفات تنتقل من الوالدين والأجداد إلى الأبناء، إمّا بالوراثة المباشرة أو بخلق الاستعداد والقابلية للانحياز بهذه الصفة أو تلك، ثم يأتي دور المحيط التربوي ليقرر النتيجة النهائية للشخصية والمستوى الأخلاقي العام.

ومن الحقائق الثابتة أنّ الأبناء يرثون الوالدين في خصائصهم وصفاتهم، وكذلك يرثون أجدادهم في بعضها.

ويشارك المحيط التربوي مع الوراثة في التربية وبناء الشخصية، وللمحيط التربوي دور فعال في ذلك ؛ لأنه يهيئ الأجواء لتربية أو تنمية الخصائص

(*) باحث إسلامي / العراق.

الوراثية الصالحة أو الطالحة، ولهذا لا تخلو مسيرة الإنسان من نبي مرسل أو وصي نبي، يقوم بخلق المحيط التربوي لإصلاح النفس.

الوراثية في الآيات القرآنية

أكد القرآن الحكيم دور الوراثة في التربية وفي تحديد الشخصية الإنسانية، ويظهر ذلك جلياً على لسان نبي الله نوح عليه السلام: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَصِلُوا عَبْدَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧٢٦].
وحينما ولدت مريم عيسى عليه السلام بالقدرة الإلهية، قالت بنو إسرائيل كما حكى عنهم القرآن الكريم: ﴿يَتَأَخَذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوَاءً وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨].

ومن خلال هاتين الآيتين، وآيات أخرى نستطيع تحديد الصفات المنقولة بالوراثة.

وقد دلّت الروايات على أنّ الإنسان يرث الخصائص والصفات الجسمية من جميع آبائه وأجداده، ورد ذلك عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقًا جَمَعَ كُلَّ صُورَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ إِلَى آدَمَ، ثُمَّ خَلَقَهُ عَلَى صُورَةِ أَحَدِهِمْ، فَلَا يَقُولَنَّ أَحَدٌ هَذَا لَا يَشْبَهُنِي وَلَا يَشْبَهُ شَيْئًا مِنْ آبَائِي»^(١).

وقد أثبت العلم الحديث هذه الحقيقة وأنّ «وراثة المولود لا يحدّها أبواه المباشران فقط، بل هو يرث من جدوده وآباء جدوده وجدود جدوده وهكذا... وبديهي أنّ معظم وراثة الإنسان تنحدر إليه من آبائه الأقربين وأنّ أثر الجدود الأبعد يقلّ كلّما زاد بعدهم، وعلى هذا نستطيع القول: بأنّ نصف الوراثة من الأبوين، وربعها من الجدود، وثمانها من آباء الجدود وهكذا»^(٢).

والوراثة لها دور أساسي في نقل بقية الصفات، ولهذا أكد رسول الله صلّى الله عليه وآله

على حسن الاختيار في الزواج فقال: «تخيروا لنطفكم فإنَّ العرق دساس»^(٣).
ومصطلح (العرق) يقابله في الاصطلاح المعاصر مصطلح الجينات genes، والتي تحملها الصبغيات (الكروموسومات) chromosomes التي تحتويها نواة الخلية الناجمة عن البويضة الأنثوية ovum المخصبة من الحيوان المنوي الذكري sperm^(٤).

وتحذير النبي ﷺ من العرق الدساس ناظر إلى الصفات النفسية والروحية والخلقية التي تنتقل بالوراثة، أو يكون العامل الوراثي خالقاً للاستعداد في نفس الوليد للاتصاف بصفة من الصفات التي يحملها الوالدان أو الأجداد. قال بيرون: «إنَّ ابني منسوب إليّ، ولكنّي أرى أجداده الماضين ينازعوني هذا الملك العزيز لديّ، فلنهم يشوّهون طهارة نفسه، ويكدّرون صفاء روحه بما رسب في أعماقهم من نزعات شريرة مجهولة انتقلت إليه بالوراثة»^(٥).

الخصائص والصفات المنقولة بالوراثة

الوراثة تؤثر في تحديد أغلب خصائص وصفات الشخصية؛ حيث تخلق الاستعداد في النفس، فإذا وجدت البيئة المناسبة نمت وترعرعت بالنتج المناسب لها. والخصائص والصفات التي يمكن توريثها هي:

أولاً: الخصائص والصفات النفسية والعقلية

الأمراض النفسية والعقلية تنتقل بالوراثة من الوالدين أو أحدهما إلى الأبناء، ولهذا حذر الإمام الباقر عليه السلام من الإنجاب من المرأة المجنونة خوفاً من انتقال الجنون منها إلى الطفل، فسئل عن ذلك فقال: «لا، ولكن إن كانت عنده أمة مجنونة فلا بأس بأن يطأها ولا يطلب ولدها»^(٦).

وحذر أمير المؤمنين عليه السلام من تزويج الحمقاء لانتقال هذه الصفة إلى الأبناء ولعدم قدرتها على تربيتهم تربية سوية فقال : «إياكم وتزويج الحمقاء، فإنَّ صحبتها بلاء، وولدها ضياع»^(٧).

وقد أثبت كثير من العلماء دور الوراثة في تحديد الصفات النفسية والروحية والعقلية للإنسان، كوراثة الجنون، ومرض انفصام الشخصية، ويرى لوسين أنَّ الطبع هو مجموعة الاستعدادات الوراثية التي تؤلف الهيكل النفسي للإنسان^(٨). وفي عام ١٩٦٣ ظهرت أول دراسة علمية، جاء من بعدها ١١١ بحثاً في أرجاء العالم حتى عام ١٩٨١ تدلُّ هذه الدراسات على أنَّ عناصر وراثية كثيرة (جينات أو أجزاء مختلفة من الحموض النووية) تتحد لتقرر قوة الذكاء الموروث^(٩).

وللذكاء والغباء تأثير واقعي على سلوك و أخلاق الإنسان، وقد دلَّت الروايات على ذلك، وأبيحت الدراسات العلمية والميدانية الحديثة^(١٠). قال أمير المؤمنين عليه السلام:

١. من لم يكمل عقله لم تؤمن بوائقه^(١١).

٢. من لم يكن له عقل يزينه لم ينبل^(١٢).

٣. الجهل أصل كل شر^(١٣).

وهناك خصائص وصفات نفسية تتأثر بالوراثة كالشجاعة، وهذه الصفة لها تأثيرها الواضح على شخصية الإنسان في أغلب جوانبها، ومن الوقائع اللطيفة حول وراثة الشجاعة ما قاله زهير بن القين للعباس بن أمير المؤمنين عليه السلام: «أحدثك بحديث وعيته لما أراد أبوك أن يتزوج طلب من أخيه عقيل، وكان عارفاً بأنساب العرب، أن يختار له امرأة ولدتها الفحولة من العرب ليتزوجها فتلد غلاماً شجاعاً ينصر الحسين بكر بلاء، وقد ادّخرك أبوك لمثل هذا اليوم»^(١٤).

ثانياً: الخصائص والصفات الخلقية

لا تقتصر الوراثة على الخصائص والصفات النفسية والعقلية، التي تنتقل بصورة مباشرة أو غير مباشرة؛ بل تتعداها إلى الخصائص والصفات الخلقية والسلوكية، إمّا بالمباشرة وإما بخلق القابلية والاستعداد للاتصاف بها، وقد يصعب تشخيص الوراثة عن المحيط في أجواء الأسرة، فالطفل ينشأ ويتربّع في ظلّ الخصائص والصفات الخلقية التي يتصف بها والداه أو أحدهما بالتقليد وبالمحاكاة.

وقد حذّر أهل البيت عليهم السلام من الاقتران بالمنحرفين لتحسين العائلة والاطفال من الانحراف، قال الإمام الصادق عليه السلام: «لا تتزوجوا المرأة المستعلنة بالزنا، ولا تزوجوا الرجل المستعلن بالزنا إلا أن تعرفوا منهما التوبة»^(١٥). وحذّر من تزويج شارب الخمر فقال: «من زوج كريمته من شارب خمر فقد قطع رحمها»^(١٦).

وقد دلّت الدراسات الحديثة على هذه الحقائق، وتنسب إلى ديوجن هذه الكلمة حين التقى بأبله: «يا فتى كان أبوك سكران حين حملت بك أمك»^(١٧). ويقول الدكتور كاريل: «إنّ سكر الزوج أو الزوجة حين الاتصال الجنسي بينهما يعتبر جريمة عظيمة؛ لأنّ الأطفال الذين ينشؤون في ظروف كهذه يشكون في الغالب من عوارض عصبية ونفسية غير قابلة للعلاج»^(١٨).

ويرى أمير المؤمنين عليه السلام أنّ الأصل الكريم والعرق الصالح يؤثر تأثيراً واضحاً على الإنسان، فمن كان ينتمي إلى نسب عريق في المكارم والفضائل ستكون المكارم والفضائل صفات ملازمة له في جميع جوانب حياته، فللوراثة دورها وتأثيرها الواضح في أخلاق وسلوك الإنسان، حيث تخلق في نفسه الاستعداد والقابلية للاتصاف بالمكارم والفضائل إذا كان ينحدر من أصول متصفة بها، وكذا الحال في من ينحدر من أصول تتصف بالردائل والمفاسد، فليّنه يرثها أو يكون قابلاً للاتصاف بها.

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

- ١- إذا كرم أصل الرجل كرم مغيبه ومحضره^(١٩).
 - ٢- جميل المقصد يدلّ على طهارة المولد^(٢٠).
 - ٣- من خبت عنصره ساء محضره^(٢١).
 - ٤- من كرم محتده حسن مشهده^(٢٢).
 - ٥- منزع الكريم أبداً إلى شيم آبائه^(٢٣).
- ويستدلّ على كرم الأعراف من خلال حسن الأخلاق، فحسن أخلاق الأبناء كاشف عن حسن عروقه وأصوله، قال عليه السلام: «حسن الأخلاق برهان كرم الأعراف»^(٢٤).

وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام دلالات واضحة على وراثة الخلق والشرف من الآباء والأمهات والأجداد، وفي كلامه تشجيع على طلب الحوائج من ذوي الأصول الطيبة حيث قال عليه السلام: «عليكم في قضاء حوائجكم بكرام الأنفس والأصول، تنجح لكم عندهم من غير مطال ولا من». وقال: «عليكم في طلب الحوائج بشراف النفوس ذوي الأصول الطيبة، فإنّها عندهم أفضى، وهي لديهم أزكى»^(٢٥).

ولتأثير الوراثة على الخصائص والصفات الخلقيّة نسوق مثلاً من تاريخنا الإسلاميّ نقارن فيه بين أسرتين: أسرة بني هاشم وأسرة بني أمية، ففي الأسرة الأولى كان الرسول صلّى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام والأئمة من ولده عليهم السلام، وفي الأسرة الثانية كان أبو سفيان ومعاوية ويزيد ومروان وعبد الملك، والاختلاف بين الأسرتين واضح المعالم، حيث القمّة في الخلق والسموّ في المثل في قبال الانحراف الكليّ والانحطاط التام في أغلب جوانب الشخصية.

تحكمّ ظروف المباشرة الجنسيّة في خصائص الوليد الأخلاقية

- لا يستطيع علماء الطبيعة والوراثة إجراء دراسة دقيقة حول تحكّم ظروف المباشرة الجنسية في خصائص الوليد، و الإنسان لا يصلح أن يكون موضعاً نموذجياً لمثل هذه الأبحاث، لأسباب عديدة ومتنوعة
- ١- لا يمكن التحكّم في التزاوج عند الإنسان لأسباب دينية واجتماعية.
 - ٢- لا يمكن التحكّم في ظروف المباشرة الجنسية لأسباب أخلاقية وعرفية، حيث يرفضها أغلب الناس متدينين أم غير متدينين.
 - ٣- طول عمر الإنسان، وهذا لا يساعد على تتبّع أكثر من جيل من قب ل باحث واحد أو عدد من الباحثين.
 - ٤- عدد الأفراد المولودين قليل؛ وبذا يكون عدد أفراد الأسرة قليلاً غير كافٍ للدراسات الوراثية.
 - ٥- طول فترة الحمل تعيق الدقّة في الدراسات.
- والأهمّ من كلّ ذلك عجز العلماء والباحثين عن تتبّع حركة الحيامين المتوجّهة لإخصاب البويضة الأنثوية، ولا نتوقع أن يصلوا إلى هذه المعرفة مهما كانت الأجهزة المخترعة لتتبع حركة الحيامين، وأنا أقطع بأنّ العلم مهما تطور لا يقوى على ذلك.
- وتوضيح ما أقول : أنّ مني الزوج أو الرجل المقذوف داخل المهبل يحتوي على ٢٠٠ مليون إلى ٣٠٠ مليون حيمن، وأنّ الزوجة أو المرأة تمتلك حوالي ٣٠ ألف بويضة ينضج منها حوالي ٤٠٠ بويضة خلال فترة الخصوبة من سنّ البلوغ حتى سنّ اليأس.
- وتتمّ عملية الإخصاب عند ما يصل الحيوان المنوي إلى البويضة باختراق غلافها الخارجي والتصاقه بنواتها، والمدة المقرّرة لذلك هي ثلاثة أيّام، فأيّ باحث أو أيّ جهاز يستطيع تتبّع حركة واحد من الحيامين من مجموع ٢٠٠ مليون أو أكثر، وحركة واحدة من البويضات.

والأصعب من ذلك هو متابعة المرحلة التالية للإخصاب حيث تتحد الخليتان الذكرية والأنثوية وتكوّنان خلية كاملة ذات ٢٢ زوجاً من الصبغيات (الكروموسومات) تتكاثر بالانقسام الذاتي إلى خليتين ثم إلى أربع ثم إلى ثمان وهكذا، بحيث تتكون كلّ خلية من الخلايا الجديدة من نفس العدد من الصبغيات (٢٦) وهي صورة من الصبغيات الأصلية في البويضة المخصّبة. ومن الدقّة أيضاً أنّ الصبغيات تحوي عدداً كبيراً من الجينات المسؤولة عن انتقال الصفات الوراثية^(٢٦).

وعلى هذا الأساس، فيستحيل متابعة هذه الحركة التناسلية منذ الإذعان والتصديق الوجداني بالأحاديث الشريفة التي وردت عن رسول الله ﷺ وتلقّاها الأئمة عليهم السلام من بعده، والأحرى بالعلماء والباحثين أن يتابعوا الصفات والخصائص الظاهرية للإنسان ويطابقوها مع الأحاديث الشريفة. والأحرى بالفقهاء والمتخصصين بالعلوم الدينية أن يتابعوا الأحاديث الواردة من حيث صحتها وعدمها بمتابعة الرواة الناقلين لها، وسائر الخطوات المتعلقة بالسند. فهذه الروايات تنصّ على تأثير ظروف المباشرة على خصائص الوليد وعلى حدوث بعض الطفرات الوراثية فيه، أو خلق الاستعداد فيه للاتصاف بصفة معينة إن تهيأت لها الظروف المناسبة، فالظروف الجويّة والنفسية والذهنية التي تحيط بالمباشرة لها تأثير على خصائص الوليد.

وأقرب الشواهد على الإذعان والتصديق بذلك ما اكتشفه العلماء بإمكان زيادة حدوث الطفرات الوراثية بالطرق الاصطناعية التالية^(٢٧).

- ١- الأشعّة السينية.
- ٢- الأشعّة الذرية.
- ٣- التعريض لدرجات حرارة مرتفعة أو منخفضة.
- ٤- الأشعّة فوق البنفسجية.

٥- المواد الكيميائية.

وفيما يلي نستعرض مبادئ الوراثة التي تنسجم مع الأحاديث الشريفة، والتي تحدّد تأثير ظروف المباشرة الجنسية على خصائص الوليد.

أولاً: أثر الاضطراب والهدوء في نقل الصفات الوراثية

قال الإمام الحسن عليه السلام: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ بِنَفْسٍ سَاكِنَةٍ وَجَوَارِحٍ غَيْرِ مُضْطَرَبَةٍ اعْتَلَجَتِ النُّطْفَتَانِ كَاعْتِلَاجِ الْمُتَنَازِعِينَ، فَإِنْ عُلَتْ نُطْفَةُ الرَّجُلِ نُطْفَةُ الْمَرْأَةِ جَاءَ الْوَلَدُ يَشْبَهُ أَبَاهُ، وَإِنْ عُلَتْ نُطْفَةُ الْمَرْأَةِ نُطْفَةُ الرَّجُلِ أَشْبَهَ أُمَّهُ. وَإِذَا أَتَاهَا بِنَفْسٍ مَزْعُوجَةٍ وَجَوَارِحٍ مُضْطَرَبَةٍ غَيْرِ سَاكِنَةٍ اضْطَرَبَتِ النُّطْفَتَانِ فَسَقَطَتَا عَنْ يَمْنَةِ الرَّحِمِ وَيَسْرَتَهُ، فَإِنْ سَقَطَتْ عَنْ يَمْنَةِ الرَّحِمِ سَقَطَتْ عَلَى عُرُوقِ الْأَعْمَامِ وَالْعَمَّاتِ فَيَشْبَهُ أَعْمَامَهُ أَوْ عَمَّاتِهِ . وَإِنْ سَقَطَتْ عَنْ يَسْرَةِ الرَّحِمِ سَقَطَتْ عَلَى عُرُوقِ الْأَخْوَالِ وَالْخَالَاتِ فَشَبَهُ أَخْوَالَهُ وَخَالَاتَهُ»^(٢٨).

وهناك روايات أخرى وردت بألفاظ عديدة فبدلاً من كلمة (علت) وردت كلمة (غلبت) أو (سبق ماء الرجل ماء المرأة).

وظاهر الروايات هو سبق الحيمن في الحركة للبويضة، فالحيمن يتحرّك باتجاه الرحم، وتتحرك البويضة من المبيض إلى الرحم عن طريق قناة (فالوب)، فإذا سبق الحيمن البويضة في الحركة وكان أنشط منها خرج الوليد يشبه أباه، وإذا كان الحيمن بطيء الحركة وأقل نشاطاً فإن الوليد يشبه أمه.

والشرط الثاني في حال المباشرة الجنسية المضطربة، فإذا نزلت البويضة من المبيض الأيمن واتّصل بها الحيمن واستقرّت في الجانب الأيمن من الرحم خرج الوليد يشبه أعمامه وعمّاته، وإذا نزلت البويضة من المبيض الأيسر، واتّصل بها الحيمن واستقرّت في الجانب الأيسر من الرحم خرج الوليد يشبه أخواله وخالاته^(٢٩).

وإذا رجعنا إلى عملية الإخصاب نلاحظ أنّ الكروموسومات بما تحمل من جينات تتحد مع بعضها البعض لتكوّن خلية كـ ٢٢ املة ذات زوجاً تتكاثر بالانقسام لتتحدّد من هذه التفاعلات صفات الوليد.

والكروموسومات يحمل كل منها نوعين من الجزئيات العضوية هي البروتينات والأحماض النووية، وتنقسم الأحماض النووية إلى قسمين: الحامض النووي الرايبوزي منقوص الأوكسجين DNA والحامض النووي الرايبوزي غير المنقوص RNA.

والمعلومات الوراثية تكمن في الأحماض النووية، وأكثر دقة تكمن في الحامض DNA وهو يحتوي على زوج من القواعد النيتروجينية، وهناك رسول يحمل الرسائل الوراثية من DNA إلى الرايبوسوم (مسؤول عن صنع البروتين) ويسمّى بـ M-RNA، ويقوم الناقل T-RNA بحمل الأحماض الأمينية في السيتوبلازم.

وتكوين الرسول يحتاج إلى طاقة يستمدّها بمساعدة انزيم معيّن. ثم ينفصل الرسول RNA عن سلسلة DNA ثم يخرق النواة ويذهب إلى السيتوبلازم، ويتحرك كل ناقل ليرتبط بالرسول، وبذلك تجتمع الأحماض الأمينية المحمولة على الناقل، طبقاً لتسلسل القواعد النيتروجينية على الرسول^(٣٠).

وهكذا فإنّ الرسول M-RNA كلّما كان ذا طاقة أقوى نقل الخصائص الوراثية الكامنة في DNA القادم من كروموسومات الزوج، تغلّبت صفات الزوج على الوليد دون صفات أمّه والعكس صحيح.

وإذا كان الزوج في حال اضطراب وقلق فإنّ الرسول M-RNA سينقل الصفات المتنحية للأجداد التي يحملها الأعمام كصفة ظاهرة أو يحملها الأخوال فيخرج الوليد شبيهاً بأخواله أو أعمامه، والله العالم.

ثانياً: أثر قراءة القرآن في تحديد جنس الوليد

قال الإمام الصادق عليه السلام: «من أراد أن يولد له ولد ذكر، فليضع يده اليمنى على السرة من الجانب الأيمن عند الجماع، وليقرأ سورة (إنا أنزلناه) سبع مرّات ثم يجامع، فإنّه يرى ما أراد . ويقول كلّ يوم عند الصباح والمساء سبعين مرة : (سبحان الله) وعشر مرّات: (أستغفر الله)، وتسع مرّات: (سبحان الله العظيم)، ويقول في العاشرة: أستغفر الله إنّ الله كان غفاراً.... الخبر»^(٣١).

من الحقائق التي بيّنها القرآن الكريم أنّ الزوج هـ و الذي يحدّد الوليد دون الزوجة.

قال تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُنْ مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩)﴾ [القيامة: ٣٦-٣٩].

فالمنيّ هو المسؤول عن تحديد الجنس من حيث الذكورة والأنوثة، وهذه حقيقة علمية ثابتة اكتشفها علماء الوراثة فيما بعد، حيث إنّ تفاعل الكروموسومات الذكورية والأنوثة في الزوج الثالث والعشرين منها هو الذي يحدّد الجنس ذكراً أم أنثى.

حيث إنّ كروموسومات الذكر هي XY، وكروموسومات الأنثى هي XX. فعند التزاوج أو الإخصاب تتحد جاميتات الذكر والأنثى، فإذا اجتمع كروموسوم جنسي X مع X كان الناتج أنثى، أي XX. وإذا اجتمع كروموسوم جنسي Y مع X كان الناتج ذكراً، أي XY.

والخطوات التي يقوم بها الزوج (المسؤول الوحيد عن تحديد جنس الوليد) لها تأثير ملحوظ على توجيه الكروموسومات Y للاتحاد بالكروموسوم X^(٣٢).

والظاهر أنّ قراءة القرآن وبصوت جميل، ووضع اليد اليمنى على السرة، يؤثر على الكروموسوم Y الدقيق في حجمه، فلدقته في الحجم تؤثر عليه نبرات الصوت، إضافة إلى تأثيره بالاستقرار والاطمئنان النفسي الذي يحمله الزوج في

خلجاته وخواطره، فينطلق للاجتماع بالكروموسوم الأنثوي X فينتج XY ، إضافة إلى تدخل اليد الغيبية وبالوسائل والأسباب الطبيعية الموضوعة كقوانين لتحديد الجنس.

وهذه الخطوات مجرّبة من قبل العديد من الأزواج، حيث كانت ن نتيجة هذا العمل هو إنجاب الذكور.

ثالثاً: تأثير الظروف الزمانية والفلكية

ذكر الإمام الباقر عليه السلام الظروف الزمانية والفلكية التي تكره فيها المباشرة الجنسية وإن كانت مشروعة، فقال : «ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، ومن مغيب الشمس إلى مغيب الشفق، وفي اليوم الذي تنكشف فيه الشمس، وفي الليلة التي ينخسف فيها القمر، وفي الليلة وفي اليوم اللذين يكون فيهما الريح السوداء والريح الحمراء والريح الصفراء، وفي اليوم والليلة اللذين يكون فيهما الزلزلة ... وأيم الله لا يجامع أحد في هذه الأوقات التي نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عنها وقد انتهى إليه الخبر، فيرزق ولداً فيرى في ولده ذلك ما يحب»^(٣٣). وفي رواية أخرى: «رأى في ولده ما يكره»^(٣٤).

والاحتمال الوارد هو تأثر الجينات بهذه الظروف والتخلف عن وظيفتها أو حدوث الخلل في نقل الصفات الوراثية كاملة، وبالإضافة إلى ذلك فإنّ الخوف والقلق الحاصل من هذه الآفات السماوية يخلق الاضطراب النفسي والعصبي في الوليد.

وخير مثال واقعي على هذا المبدأ الوراثي ما نراه في مواليد العرق اق عقب العدوان الأمريكي على الشعب العراقي، حيث إنّ الخوف والقلق والاضطراب الذي خلّفته دول العدوان، إضافة إلى التهديدات المستمرة ، والتي فاقت خطورتها خطورة الزلزال أو الرياح العاصفة، أدّت إلى مواليد مشوّهة وناقصة.

رابعاً: تأثير الأوقات والأيام والليالي

عدّ رسول الله ﷺ جملة من المكروهات التي تؤدي إلى حدوث طفرات وراثية في الوليد، أو تخلق استعدادات نفسية سلبية:

- ١ - لا تجامع امرأتك أول الشهر ووسطه وآخره، فإن الجنون والجدام والخليل يسرع إليها والى ولدها.
 - ٢ - لا تجامع امرأتك بعد الظهر، فإنه إن قضي بينكما ولد يكون أحول.
 - ٣ - لا تجامع امرأتك في ليلة الفطر، فإنه إن قضي بينكما ولد لم يكن ذلك الولد إلا كثير الشر.
 - ٤ - لا تجامع أهلك في ليلة الأضحى، فإنه إن قضي ولدي كون له ست أصابع أو أربع أصابع.
 - ٥ - لا تجامع امرأتك في النصف من شعبان، فإنه إن قضي ولد يكون ذو شامة وشعرة في وجهه.
 - ٦ - لا تجامع في أول ساعة من الليل، فإنه إن قضي ولد لا يؤمن أن يكون ساحراً ومختاراً للعالم على الآخرة.
 - ٧ - لا تجامع امرأتك بين الأذان والإقامة، فإنه إن قضي بينكما ولد يكون حريضاً على إهراق الدماء^(٣٥).
- كما عدّ ﷺ جملة من المندوبات المؤثرة إيجاباً في خلق استعدادات نفسية إيجابية:
- ١ - عليك بالجماع في ليلة الاثنين، فإنه إن قضي ولد يكون حافظاً لكتاب الله راضياً بما قسم له.
 - ٢ - إذا جمعت في ليلة الثلاثاء فإنه إن قضي ولد يكون شهيداً ويرزق الله له الشهادة، ويكون طيب النكهة، رحيم القلب، سخي القلب، طاهر اللسان.
 - ٣ - وإن جمعت في ليلة الخميس فإنه إن قضي ولد يكون حاكماً أو عالماً.

- ٤- وان جامعته يوم الخميس عند الزوال فإن قضي ولد لا يقربه الشيطان
- ٥- وان جامعته ليلة الجمعة فلن قضي ولد يكون خطيباً قوَّالاً مفوَّهاً.
- ٦- وان جامعته يوم الجمعة بعد العصر فإن قضي ولد يكون م عروفاً ومشهوراً عالماً.
- ٧- وان جامعته ليلة الجمعة بعد العشاء فإن قضي ولد يرتجى أن يكون له ولد من الأبدال إن شاء الله^(٣٦).
- وإذا نظرنا إلى الواقع لوجدنا هذه الحالات حادثة، ولكن علماء الوراثة فسروها بالطفرات الوراثية وبالتأثيرات البيئية، وفسرت بوجود خلل في الكروموسومات أو الجينات، ولم يشخصوا سبب هذا الخلل.
- فقد ذكر بعض العلماء أن متلازمة XY٧ التي تحتوي على كروموسوم Y الزائد يتصف أصحابه بضخامة الجثة، كما يتصفون بالتخلف والعدوانية في السلوك حيث اكتشفت معظم هذه الحالات في السجون بنسبة ٢ إلى ١٢٪ من المسجونين، أما نسبتهم في المجتمع بكليته فتبلغ حوالي واحد لكل ألف، واستخلص الباحثون إلى أن الصبغية الزائدة Y هي السبب لهذه الأعراض^(٣٧).
- وهناك ظاهرة الغباء المنغولي، ويمتاز المصابون بها بعيون منحرفة وتخلّف عقلي شديد، حيث تتراوح نسبة الذكاء لديهم بين ٢٠-٦٠، ويعد هذا المرض من أكثر أسباب التخلف العقلي انتشاراً، كما يظهر بنسبة واحد لكل ٥٠٠-٦٠٠ من المواليد^(٣٨).
- ويرى العلماء أن هذه الظاهرة ناجمة عن وجود كروموسوم زائد في الخلايا الجسمية، وبذلك يصبح عددها (٤٧) بدلاً من (٤٦) كروموسوم، والزيادة هذه ناتجة عن عدم انفص ال زوج الكروموسومات الجسمية رقم (٢١) انفصلاً طبيعياً أثناء الانقسام الاختزالي، وبذلك يصبح ممثلاً بثلاث كروموسومات بدلاً من كروموسومين^(٣٩).

وهناك ظاهرة أخرى يكون الوليد فيها مؤنثاً ولكن الأثداء غير بارزة النمو، ويكون الصدر عريضاً، وغالباً ما تكون الأنثى عقيمة، إضافة إلى التخلف العقلي.

وهذا الوليد يحمل كروموسوم جنسي (X) واحد، وعدد الكروموسومات في خلاياهم الجسمية هو (٤٥) بدلاً من (٤٦) كروموسوماً، وقد أوضحت الدراسات الوراثية أنه لا علاقة لسن الأم في هذه الظاهرة، وأن المسؤول في عدم الانفصال هو الأب.

ومعدل ظهور هذه الظاهرة منخفض، وذلك بسبب ارتفاع معدل الوفيات في الأجنة^(٤٠).

وقد أكدت بعض الروايات على أن الولد إذا سلم من السقط ، أي: الموت قبل أوانه ، فإنه سيصاب بالخلل والجنون في حالات المباشرة أثناء بعض الأوقات.

خامساً: دور الحواس السمعية والبصرية

قال النبي ﷺ: «لا تتكلم عند الجماع، فإنه إن قضي بينكما ولد لا يؤمن أن يكون أخرس»^(٤١). وقال: «ولا ينظرن أحد في فرج امرأته، وليغض بصره عند الجماع، فإن النظر إلى الفرج يورث العمى [يعني: في الولد]»^(٤٢).

فالكلام والنظر يؤثر على الجينات المسؤولة عن الخصائص الوراثية ويبطل عمل بعضها بعد اتحاد الخلايا ثم انقسامها وتمايزها، فبعد تخصص الخلايا تتكون ثلاث طبقات: أحدها الطبقة الخارجية ، وتكون الجهاز العصبي والحواس والجلد والشعر والأظافر والأسنان . ويحدث الخلل في تكوين حاسة السمع والنظر، فيؤدي إلى إصابة الوليد بالخرس والعمى، وقد يسلم من العمى ليظهر في نسله في الجيل الثاني.

وهذه الحقيقة تستحق الدراسة من قبل علماء الوراثة عن طريق متابعة ظواهر الخرس والعمى والتعرّف على أسبابها.

وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «إياك والجماع حيث يراك صبيّ يحسن أن يصف حالك... فإنك إن رزقت ولداً كان شهرة علماً في الفسق والفجور»^(٤٣). فنظر الصبي إلى المباشرة الجنسية يؤثر على استعدادات الوليد الناجم عن المباشرة من ناحية الاتصاف بالانحراف.

سادساً: دور الظروف البدنية

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تجماع امرأتك من قيام، فإن ذلك من فعل الحمير، فإنه إن قضي بينكما ولد يخاف أن يكون بوالاً في الفراش كالحمير البوّالة تبول في كل مكان»^(٤٤).

بعد انقسام الخلايا وتخصّصها، تتكوّن ثلاث طبقات، ومنها الطبقة الوسطى، وتكوّن بدورها الجهاز العضلي والعظمي والدوري، والجهاز البولي. والجهاز البولي يخضع في تكوّنه لظروف اتّحاد الكروموسومات والجينات ثم انقسامها، ولدقة الخلايا فإنّها تتأثر بالحالات غير الطبيعية كالمباشرة الجنسية من قيام، والتي تؤدي في النهاية إلى حدوث خلل في جهاز السيطرة على البول، فيبتول الوليد تبوّلاً لا إرادياً.

ومن الظروف المؤثرة هي ظروف السفر، حيث تؤثر أوضاع البدن وما يرافقها من استعدادات بدنية ونفسية على الاستعدادات النفسية والسلوكية للوليد. قال النبي صلى الله عليه وآله: «إذا خرجت في سفر، فلا تجماع أهلك تلك الليلة، فإنه إن قضي بينكما ولد ينفق ماله في غير حق»^(٤٥). وقال: «لا تجماع أهلك إذا خرجت إلى سفر مسيرة ثلاثة أيام ولياليهنّ، فإنه إن قضي بينكما ولد يكون عوناً لكلّ ظالم».

سابعاً: دور الظروف المكانية

قال رسول الله ﷺ: «لا تجمع امرأتك تحت شجرة مثمرة، فإنه إن قضي بينكما ولد يكون جلاًداً أو قتلاً»^(٤٦). وقال: «لا تجمع أهلك على سقوف البنيان، فإنه إن قضي بينكما ولد يكون منافقاً مرئياً مبتدعاً»^(٤٧).

ثامناً: تأثير الظروف الذهنية

قال النبي ﷺ: «لا تجمع أهلك بشهوة امرأة غيرك، فإن قضي بينكما ولد يكون مخنثاً، مؤنثاً، مخبلاً»^(٤٨).

يخبر ﷺ من تخيل امرأة ثانية أثناء المباشرة الجنسية مع الزوجة، وهذه الحالة المرضية منتشرة في أوساط بعض أو كثير من الأزواج الذين يتعرّضون لإثارات وقتية أو دائمة بمحض إرادتهم فيلتجئون إلى زوجاتهم ويباشروهن جسدياً، أمّا أذهانهم فتتخيل امرأة أخرى، وهذه الظاهرة لها تأثير على تفاعل الكروموسومات حيث يحدث الخلل في عملية الانقسام الاختزالي مما يؤدي إلى عدم انفصال كروموسومات الجنس وخ صوصاً XY فحينما تتحد مع الكروموسوم X ينتج XXY.

ويكون مظهر الفرد ذكراً (ذا سمات أنثوية، ويكون الدافع الجنسي لديه ضعيفاً، ويظهر لديهم أحياناً بعض التخلف العقلي، ويعاني كثير من المصابين بهذا المرض من مشكلات التكيف ... ويبدو أن انتشار هذا المرض واسع نوعاً ما إذ يقدر بواحد لكل ٤٠٠ شخص طبيعي)^(٤٩).

وقد أثبت علماء الوراثة هذه الظاهرة إلا أنهم لم يستطيعوا تحديد السبب، والأحرى بهم أن يجعلوا هذا الحديث الشريف نصب أعينهم، ليطوروا آراءهم وفقه؛ لعجزهم عن إجراء التجارب على الجنس البشري، ويا حبذا أن يجعلوا هذا الحديث محل احتمال أو نظرية كسائر النظريات ليتابعوا صحتها من خلال

الظواهر الواقعية، ولتكن النظرية بهذه الصياغة : أن تحيّل امرأة أخرى أثناء المباشرة يؤدي إلى تكوين وليد يحمل الرمز XXY. ومن الظروف الذهنية المؤثرة في خصائص الوليد هي المباشرة الجنسية بعد الاحتلام.

قال النبي ﷺ: «يكره أن يغشى الرجل المرأة وقد احتلم حتى يغتسل من احتلامه الذي رأى، فإن فعل ذلك فخرج الولد مجنوناً فلا يلومن إلا نفسه»^(٥٠). فالذهن قبل الغسل يبقى مشغولاً بالحلم الذي رآه، أمّا بعد الاغتسال فإن الطاقة الجسدية والذهنية ستتبدّل وتكون أكثر فعالية وحيوية، ليباشر الزوج زوجته بلا انشغال ذهني مسبق.

المحيط التربوي

قبل البدء في بحث المحيط التربوي نتطرق إلى الخصائص الذاتية المؤثرة في التربية ومن أهمها:

١ - النفس الأمّارة بالسوء.

قال تعالى حاكياً عن يوسف عليه السلام: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣].

٢ - الهوى.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

٣ - الشهوات.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤].

٤ - الشيطان.

دور الشيطان هو دور الغواية حيث يكون وسيطاً بين المؤثرات الداخلية

كالنفس الأمارة بالسوء والهوى وبين الشهوات الخارجية أو مصاديقها . قال تعالى حاكياً عن الشيطان : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٣]. وقال تعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْفَاوِيسِ ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

٥- النفس اللوامة.

قال تعالى : ﴿ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: ٢].

النفس اللوامة هي الرذاع الداخلي الذي يقدر ما هو حسن وما هو قبيح، فيساعد على الصلاح والاستقامة ويردع عن الطلاح والانحراف، وهي الضمير الذي يقوم بدور المحاسبة في حال الانحراف أو يردع عنه قبل وقوعه. والضمير ينمو ويصبح قادراً على التأثير حينما يتمرن الإنسان على مجاهدة نفسه واستشعار الرقابة الإلهية، فيهديه الله تعالى إلى سبيله: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. ويكون ميزان الضمير هو المنهج الإلهي المتبع، فعلى ضوءه يستطيع تقييم وتقويم الأعمال. ويمكن أن نعبر عن ذلك بأن الضمير أو النفس اللوامة هو نور من الله تعالى ، وبلق النفس الأمارة بالسوء ظلمة من ظلمات الشيطان، ويكون الصراع قائماً بين النور والظلمة . ويكون دور المحيط التربوي هو تنمية النفس اللوامة اذا كان المحيط صالحاً، أو تنمية النفس الأمارة بالسوء إن كان المحيط طالحاً، وبالأولى تتمتع النفس بالنور الإلهي فتصلح، وفي الثانية تقع النفس في ظلمة الشيطان فتفسد . ولذا فالمؤمن يحتاج إلى واعظ داخلي و إلى توفيق الهي و إلى محيط تربوي صالح يتفاعل معه ويتقبل إرشاداته. قال الإمام محمد الجواد عليه السلام: « المؤمن يحتاج إلى توفيق من الله وواعظ من نفسه وقبول ممن ينصحه »^(٥١). والظاهر: أن التوفيق الإلهي يتحقق حين وجود الواعظ النفسي، والتفاعل مع المحيط التربوي الصالح. والمحيط التربوي يشتمل جميع مواقع ال تأثير في المجتمع، ومنها : الأسرة

والأصدقاء، المجالس، المسجد، العلماء، الحكّام، والكتلة الاجتماعية.
أولاً: الأسرة.

وهي المحيط الاجتماعي والتربوي الأول والأساسي في التربية باعتباره المحيط الذي يترعرع فيه الطفل في مراحل الأولى حين بلوغه ورشده، ولهذا أبدى القرآن الكريم عناية خاصة واستثنائية للأسرة.
والخطوة الأولى لتهيئة الأجواء التربوية الصالحة جعل المودة والرحمة بين الزوجين: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].
والخطوة الثانية نظم الأسرة وأوكل مسؤولية إدارتها للزوج بشرط الإنفاق: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

وللمحافظة على سلامة الجنين أو الوليد الجسمية والنفسية والعقلية حرّم القرآن المباشرة أثناء العادة الشهرية ؛ لأنها تؤثر على صحّة الزوجة الجسدية والنفسية، وتؤثر على الجنين بدورها^(٥٢). قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْرِضُوا لِلنِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].
وأوصى القرآن الكريم بالرضاعة الطبيعية لمدة حولين : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّى الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. وللرضاعة دور آخر غير دور التغذية وهو دور خلق التوازن العاطفي والنفسي لدى الطفل، فيكون أقل توتراً وأهنأ بالاً وأسعد حالاً^(٥٣).

ومن أجل إدامة علاقات التفاهم والمحبة والانسجام التي تؤثر على التوازن النفسي والعاطفي للطفل، دعا القرآن الكريم إلى المعاشرة بالمعروف، وإلى الصلح في حال حدوث خلافات حادة. قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]. وقال

تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥].

والمحافظة على التفاهم والانسجام وعلاقات المحبة والمودة ضروري لصحة الطفل أو الأطفال النفسية والروحية والعقلية. وأمر القرآن الكريم رب الأسرة بتربية أفراد الأسرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦]. ووقاية الأهل من النار تتم «بدعائهم إلى الطاعة وتعليمهم الفرائض، ونهيهم عن القبائح، وحثهم على أفعال الخير»^(٥٤).

ونكتفي ببعض مواعظ لقمان لابنه كمصداق من مصاديق التربية: ﴿يَبْنَى أَقْبَرُ الصَّلَاةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنْ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وأمر القرآن بطاعة الوالدين إلا في موارد المعصية فلا تجب الطاعة: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾^(١٤) وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥١٣].

وهكذا نرى أن الأسرة الصالحة تؤثر في تربية أبنائها نفسياً وروحياً وأخلاقياً وعقائدياً، والأسرة أو الوالدان، وخصوصاً الوالد، يؤثر على تربية الأبناء من جميع النواحي.

ففي ناحية العقيدة قال تعالى ، حاكياً عن إبراهيم وقومه : ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾^(٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَظِيمِينَ^(٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ^(٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ^(٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤٧]. وفي ناحية السلوك والسيرة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِمْ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠].

والأسرة هي المحيط التربوي الأساسي المسؤول عن إعداد الطفل والمراهق

للدخول في الحياة الاجتماعية؛ ليكون عنصراً صالحاً فعالاً في إدامتها على أساس الصلاح والخير والبناء الفعّال ، وهي نقطة البدء التي تزاوُل تنشئة العنصر الإنساني؛ وتؤثر في كلّ مراحل الحياة إيجاباً وسلباً ، وهي مسؤولة بالدرجة الأولى عن النشأة والترعرع ، والتي تحدّد مسار الإنسان السلوكي إن كانت التنشئة الاجتماعية خارجها ملائمة ومتشابهة.

ولأهمية الأسرة في البناء التربوي أبدى أهل البيت عليهم السلام اهتماماً خاصاً بها ، وكانت إرشاداتهم تؤكّد على اختيار شريك الحياة الصالح والمتدين ليقوم بالتعاون مع شريكه في إعداد الأطفال إعداداً ينسجم مع المنهج السلوكي في الإسلام، وحثّ أهل البيت الوالدين على القيام بمسؤوليتهما في التربية وخصوصاً الوالد حيث تقع عليه كامل المسؤولية.

قال الإمام زين العابدين عليه السلام: «وأما حق ولدك فتعلم أنّه منك ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشره، وأنك مسؤول عما وليته من حسن الأدب والدلالة على ربّه والمعونة له على طاعته فيك وفي نفسه، فمثاب على ذلك ومعاقب، فاعمل في أمره عمل المتزين بحسن أثره عليه في عاجل الدنيا، المعذر إلى ربّه فيما بينك وبينه بحسن القيام عليه والأخذ له منه»^(٥٥).

وقال أيضاً: «وأما حق الصغير فرحمته وتثقيفه وتعليمه والعفو عنه والستر عليه والرفق به والمعونة له والستر على جرائمه؛ فإنّه سبب للتوبة، والمداواة له وترك مماحكته؛ فإنّ ذلك أدنى لرشده»^(٥٦).

ودور الأسرة لا يحدّد سلوك أفرادها فحسب ، بل يحدّد جميع مقوّمات الشخصية: الفكرية والعاطفية والنفسية؛ حيث ينعكس التعامل مع الأبناء على انبثاقهم النفسي والانفعالي، ولهذا يختلف الوضع النفسي من فرد لآخر في أسرة واحدة أو في أسر متعددة تبعاً لنوع المعاملة معه من حيث الرعاية أو الإهمال. ثانياً: الأصدقاء أو الأخلاء

للأصدقاء أو الأخلاء تأثير على البناء التربوي للإنسان، وخصوصاً في المراحل الأولى من حياته حيث تنعكس أفكارهم وعواطفهم وممارساتهم عليه؛ لأن الإنسان غالباً يتأثر بمن يحبه.

وقد أشارت الآية الكريمة إلى تأثير الأصدقاء والأخلاء: ﴿يَوَلِّكُنِي لِيَتَنَبَّأَ لَوْ أَخَذْتُ فَلَانَا خَلِيلًا﴾ (٢٨) ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ [الفرقان ٢٩-٢٨].

وإذا أمعنا النظر في آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ [المنحة: ١]، لوجدنا أن الولاية هنا هي أرقى درجات الصداقة والخلّة، فمن معانيها: «المحب، والتابع، والحليف»^(٥٧). وقد نهت الآية عن أعلى درجات الصداقة وهي الولاية أو التولي؛ لتأثيرها على الأفكار والعواطف والسلوك، ولتأثير الأصدقاء قال رسول الله ﷺ: «دين المرء على دين خليله، فليتنق المرء ولينظر من يخال»^(٥٨). قال عيسى بن مريم عليه السلام: «إن صاحب الشر يعدي وقرين السوء يردي، فانظر من تقارن»^(٥٩).

ووجه المنهج الإسلامي الأفكار والأنظار إلى أولى خطوات اختيار الصديق، وهي التجربة، حيث تتطلب التريث وعدم التسرع باختيار الصديق إلا بعد إتمام التجربة له في جميع أو أغلب المقومات الأخلاقية له. قال الإمام علي عليه السلام: «لا تنق بالصديق قبل الخبرة»^(٦٠). وقال الإمام الحسن عليه السلام لبعض ولده: «يا بني لا تؤاخ أحداً حتى تعرف موارده ومصادره، فإذا استنبطت الخبرة ورضيت العشرة، فأخه على إقالة العشرة، والمؤاساة في العسرة»^(٦١).

وينبغي اختيار الصديق الناصح الذي يرشد صديقه إلى الاستقامة والاعتدال، وإن كان شديداً في نصائحه وإرشاداته، فهو أولى ممن لا يكثر لسلوك صديقه ولا يبدي له نصيحة لكيلا يزعجه أو يحزنه. قال الإمام الباقر عليه السلام: «يا صالح اتبع من يبكيك وهو لك ناصح، ولا تتبع من يضحكك وهو لك غاش، وستردون على الله جميعاً فتعلمون»^(٦٢).

وبما أنّ الإنسان ليس معصوماً وليس متكامل السيرة، فيمكن مصادقته من أجل الاستفادة من بعض الخصائص الإيجابية مع أخذ الحيطة والحذر من الخصائص السلبية. عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: لا عليك أن تصحب ذا العقل وإن لم تحمد كرمه ، ولكن انتفع بعقله واحترس من سيء أخلاقه، ولا تدعن صحبة الكريم وإن لم تنتفع بعقله، ولكن انتفع بكرمه بعقلك، وافرر كلّ الفرار من اللئيم الأحمق»^(٦٣).

وحدد الإمام علي عليه السلام صنفين من الأصدقاء يمكن الانتفاع منهما في جانب أو عدة جوانب اجتماعية، فقال: «الإخوان صنفان: إخوان الثقة وإخوان المكاشرة. فأما إخوان الثقة فهم كالكفّ والجنّاح والأهل والمال، فإذا كنت من أخيك على الثقة فابذل له مالك وبدنك، وصاف من صافاه، وعاد من عاداه، واكتم سرّه وعيبه وأظهر منه الحسن، واعلم أيها السائل أنّهم أعزّ من الكبريت الأحمر. وأما إخوان المكاشرة؛ فإنّك تصيب منهم لذّتك، فلا تقطعنّ ذلك منهم، ولا تطلبنّ ما وراء ذلك من ضميرهم، وابذل لهم ما بذلوا لك من طلاقة الوجه وحلاوة اللسان»^(٦٤).

ولتأثير الصداقة على جميع جوانب الشخصية حذّرت الإرشادات الإسلاميّة من مصادقة المنحرفين فكرياً وسلوكياً والمضطربين نفسياً وعقلياً. قال رسول الله ﷺ: «دين المرء على دين خليله، فليتنق المرء، ولينظر من يخال»^(٦٥).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «لا تصحبوا أهل البدع ولا تجالسوهم فتصيروا عند الله كواحد منهم، قال رسول الله ﷺ: المرء على دين خليله وقرينه»^(٦٦). وحذّرت التعاليم والإرشادات من مصادقة ذوي العقول الناقصة؛ وقليلي الوعي والإدراك.

قال الإمام علي عليه السلام: «لا تصحب الجاهل؛ فإنّ فيه خصالاً، فاعرفه بها : يغضب من غير غضب، ويتكلّم من غير نفع، ويعطي في غير موضع العطاء،

ولا يعرف صديقه من عدوه، ويفشي سرّه إلى كلّ أحد^(٦٧).

وحذّر الإمام الصادق عليه السلام من صداقة الهابطين سلوكياً فقال: «إياك ومخالطة السفلة؛ فإنّ مخالطة السفلة لا تؤدّي إلى خير»^(٦٨).

ونهى الإمام علي عليه السلام من صحبة الشرير فقال: «لا تصحب الشرير فإنّ طبعك يسرق من طبعه شراً وأنت لا تعلم»^(٦٩). وقال: «إياك وصاحب السوء؛ فإنّه كالسيف المسلول يروق منظره، ويقبح أثره»^(٧٠).

وحذّر من مصادقة ومصاحبة الفاجر والأحمق والكذاب فقال: «لا تؤاخينّ الفاجر؛ فإنّه يزيّن لك فعله، ويودّ لو أنّك مثله، ويحسن لك أقبح خصاله، ومدخله ومخرجه من عندك شين وعار ونقص، ولا الأحمق؛ فإنّه يجهد لك نفسه ولا ينفعك، وربما أراد أن ينفعك فضرّك؛ سكوته خير لك من نطقه، وبعده خير لك من قربه، وموته خير لك من حياته، ولا الكذاب؛ فإنّه لا ينفعك معه شيء؛ ينقل حديثك، وينقل الحديث إليك، حتى إنّّه ليحدّث بالصدق فلا يصدّق»^(٧١).

وقال الإمام علي بن الحسين عليه السلام لبعض بنيّه: «يا بني انظر خمسة فلا تصاحبهم ولا تحدثهم ولا ترافقهم في طريق، فقال: يا أبه من هم؟ قال: إياك ومصاحبة الكذاب؛ فإنّه بمنزلة السراب يقرب لك البعيد، ويبعد لك القريب. وإياك ومصاحبة الفاسق؛ فإنّه بايعك بأكلة أو أقلّ من ذلك. وإياك ومصاحبة البخيل؛ فإنّه يخذلك في ماله أحوج ما تكون إليه. وإياك ومصاحبة القاطع لرحم؛ فإنّي وجدته ملعوناً في كتاب الله»^(٧٢).

وحذّر الإمام علي عليه السلام من مصادقة المختلّين عقلياً ونفسياً وسلوكياً فقال: «بئس الرفيق الحسود»، «من دنت همّته فلا تصحبه»، «لا تصحبنّ من لا عقل له»، «لا تمنحنّ ودّك من لا وفاء له»، «بئس الصديق الملول»، «لا تصحبنّ من يحفظ مساويك وينسى فضائلك ومعاليك»^(٧٣).

وحذّر رسول الله ﷺ من مصادقة غير المنصفين وغير الموضوعيين في

التقييم فقال: «لا تصحبن أحداً لا يرى من الفضل كمثل ما ترى لله»^(٧٤).

وعلى ضوء هذه التعاليم والإرشادات ينبغي الاهتمام الاستثنائي بتربية الأطفال لاختيار الأصدقاء لحراجه المرحلة وأهميتها في تحديد الاتجاهات الفكرية والعاطفية والسلوكية لمرحلة الرشد وسائر مراحل الحياة؛ لأن الأخطاء قد تؤدي إلى تدمير مقومات الشخصية إلى نهاية العمر، وخصوصاً في مجتمعات لا ترحم المخطئين وتلاحقهم وإن استقاموا مستقبلاً، ومن هنا ، فالأحرى مراقبة الأطفال مراقبة دقيقة وإعانتهم على تجاوز المرحلة ليختاروا أصدقاء صلحاء تحكمهم مفاهيم الاستقامة وقيم الفضيلة.

ثالثاً: المجالس والنوادي

النادي في اللّ غة: «مجلس يندو إليه من حوالية ... وأناديك: أشاورك وأجالسك في النادي»^(٧٥).

«وعبر عن المجالسة بالنداء، حتى قيل للم جلس: النادي والمندى، ومنه سميت دار الندوة بمكة، وهو المكان الذي كانوا يجتمعون فيه»^(٧٦).

المجالس والنوادي محيط اجتماعي تربوي متكامل وهو يترك آثاره الإيجابية أو السلبية على المشاركين فيه، ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة المؤثرة كما في نادي قوم لوط ا لذين يأتون الفاحشة فيه إلى حد أن لوطاً لم يستطع إصلاحهم لتأثرهم بهذه المجالس : ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت ٢٩].

والمجالس والنوادي التي يجتمع فيها الناس ويتناجون أو يتشاورون أو يتحدثون ينبغي أن توجه نحو البر والتقوى ، لا الإثم والعدوان . قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة: ٩]. وسئل رسول الله ﷺ عن رياض الجنة، فقال: «مجالس الذكر، فاغدوا وروحوا في ذكر الله»^(٧٧). وقال الإمام علي

بن الحسين (عليه السلام): «مجالسة الصالحين داعية إلى الصلاح»^(٧٨).

وقد حث القرآن الكريم على الاعتزال عن مجالس السوء: ﴿وَإِذْ أَعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأُوْا إِلَى الْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١٦].

والمجالسة مقدّمة من مقدّمات الصداقة إذا كانت محدودة العدد، ويتأثر ر الطفل والمراهق بمن يجالسه ولو مؤقتاً إمّا تأثيراً فجائياً أو تأثيراً بطيئاً وتدرجياً. وفي أجواء المجالسة الكثيرة العدد كالاحتفالات والمهرجانات والتظاهرات، يؤثر العقل الجمعي على الفرد وخصوصاً الطفل بواسطة الاستهواء والمحاكاة، وخصوصاً إذا كان العقل والإرادة ضعيفين، حيث يستسلم للآراء والممارسات الجمعية أو لأفراد أكبر منه أو أكثر قدرة على التحريك، فهو يتأثر شعورياً أو لا شعورياً بمن لهم:

١ - مكانة اجتماعية وسياسية مرموقة.

٢ - مكانة دينية وقدسسية خاصة.

٣ - الامتياز بالحول والطول.

٤ - الامتياز بالقدرة الأكبر منه.

٥ - القدرة البلاغية والخطابية.

ولهذا نلاحظ في المهرجانات الكبيرة أو الاحتفالات أو التظاهرات يخرج الإنسان وخصوصاً الطفل عن اتزانه العقلي والانفعالي والسلوكي تأثيراً بغيره، فيصرف حينها يصفقون ويصرخ حينها يصرخون، ويبكي حينها يبكون أو يضحك حينها يضحكون، أو يقوم تأثيراً بغيره بالاعتداء على الممتلكات العامة في التظاهرات ككسر زجاج المباني وحرق السيارات أو ما شابه ذلك. وقد أثبتت التجارب الميدانية تأثير المجالسة على الفرد وخصوصاً الطفل، ولهذا شجعت الإرشادات والوصايا الدينية على اختيار المجلس الصالح والمصلح.

قال لقمان عليه السلام لابنه: «يا بني لا تقترب فتكون أبعد لك، ولا تبتعد فتهان، كل دابة تحب مثلها وإن ابن آدم يحب مثله ... كما ليس بين الذئب والكبش خلّة، كذلك ليس بين البارّ والفاجر خلّة . من يقترب من الزفت يعلق به بعضه، كذلك من يشارك الفاجر يتعلم من طريقه . من يحب المراء يشتم، ومن يدخل مداخل السوء يتهم، ومن يقارن قرين السوء لا يسلم، ومن لا يملك لسانه يندم»^(٧٩).

وأول خصائص الجليس أن يكون متديّناً لكي تستقيم المفاهيم والقيم لمن يجالسه، ويكون الفكر والرأي منقاداً لأسس العقيدة الدينية . قال رسول الله ﷺ: «لا تصحب إلا مؤمناً ولا تجالس إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي، وإنّ فقراء أمتي يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمئة عام»^(٨٠). وقال: «مجالسة أهل الدين شرف الدنيا والآخرة»^(٨١). وقال الحواريّون لعيسى عليه السلام: لمن نجالس؟ فقال: «من يذكركم الله رؤيته، ويرغبكم في الآخرة عمله، ويزيد في منطقتكم عمله»^(٨٢). وقال الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «جالسوا أهل الدين والمعرفة، فإن لم تقدروا عليهم فالوحدة آنس واسلم، فإن أبيتم إلا مجالسة الناس، فجالسوا أهل المروّات، فإنهم لا يرفثون في مجلسهم»^(٨٣). وقال الحكماء: من جلس مع ثمانية أصناف من الناس زاده الله ثمانية أشياء: من جلس مع الأغنياء زاده الله حب الدنيا والرغبة فيها . ومن جلس مع الفقراء زاده الله الشكر والرضا بقسمة الله تعالى . ومن جلس مع السلطان زاده الله الكبر وقساوة القلب . ومن جلس مع النساء زاده الله الجهل والشهوة . ومن جلس مع الصبيان زاده الله اللهو والمزاح . ومن جلس مع الفساق زاده الله الجرأة على الذنوب والمعاصي، والإقدام عليها، والتسويق في التوبة . ومن جلس مع الصالحين زاده الله الرغبة في الطاعات . ومن جلس مع العلماء زاده الله العلم والورع»^(٨٤).

وحدّد رسول الله ﷺ الخصائص الحميدة وغير الحميدة التي تكون أساساً يعتمد عليه في اختيار المجلس فقال: «لا تجلسوا عند كلّ داعٍ مدّعٍ يدعوكم من اليقين إلى الشكّ، ومن الإخلاص إلى الرياء، ومن التواضع إلى التكبر، ومن النصيحة إلى العداوة، ومن الزهد إلى الرغبة، وتقربوا من عالم يدعوكم من الكبر إلى التواضع، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الشكّ إلى اليقين، ومن الرغبة إلى الزهد، ومن العداوة إلى النصيحة»^(٨٥).

وحذّرت التعاليم والإرشادات الدينية من مجالسة أصناف من الناس . قال رسول الله ﷺ: «أولى الناس بالتهمة من جالس أهل التهمة»^(٨٦). وقال الإمام الصادق عليه السلام: «من قعد عند سبّاب لأولياء الله فقد عصى الله»^(٨٧). وقال رسول الله ﷺ: «إياكم ومجالسة الموتى»، قيل: يا رسول الله من الموتى؟ قال: «كلّ غني أطغاه غناه»^(٨٨).

والإرشادات الدينية تدعو إلى مجالسة الصالحين، وتحذّر من مجالسة الطالحين والمنحرفين.

ومن هذه المجالس:

- ١ - الذين يخوضون في آيات الله.
- ٢ - أماكن الريبة.
- ٣ - تجمّعات المنحرفين.
- ٤ - مراكز ومؤسسات الجائرين.
- ٥ - تجمّعات المغتايين وأصحاب الإشاعات.
- ٦ - تجمّعات الأشرار.
- ٧ - المناظرات المثيرة للفرقة بين الناس.
- ٨ - مجالس اللّهو الحرام.
- ٩ - المجالس المختلطة من الذكور والإناث.

١٠ - مجالس اللّثام.

١١ - مجالس الجهلاء والحمقى.

١٢ - الطرق العامّة.

١٣ - المشاركة في دور السينما المبتذلة.

١٤ - المشاركة في المسارح المبتذلة.

رابعاً: المسجد.

المسجد محيط تربوي متكامل يساهم في الارتباط بالله تعالى والارتباط بالدعاة والصالحين، ويجعل الإنسان يعيش أجواء روحية ومعنوية وخلقية سامية تصلحه وتغيّره وتوجهه نحو الكمال أو التكامل والسمو.

فالمسجد محيط تربوي للارتباط بالله والدعاء بالإخلاص له : ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩]. ولهذا قرن القرآن الكريم بين الإيمان والعبادة وبين إعمار المسجد: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨].

وقد يستغلّ المسجد من قبل المغرضين والمنحرفين ليحولوه إلى محيط يروج للتأمر أو الانحراف، لذا نهى القرآن الكريم عن الصلاة فيه ودعا إلى مقاطعته: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [١٠٧] لَأَقْعُمَنَّ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٧-١٠٨].

وأكد القرآن الكريم على المشاركة في صلاة الجمعة لدورها في التربية وبناء الشخصية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

والمساجد من أهمّ الأجواء الإيمانية والتربوية ، التي تسهم بشكل فعال في

تربية الإنسان وإصلاحه وتغييره، والمسجد خير محيط للإنسان للارتباط بالله سبحانه وتعالى وبالعالم الغيب، حيث يجعل الإنسان يعيش أجواءاً معنوية وروحية يتعالى فيها على أثقال الحياة ويتسامى فيها فكراً وعاطفة ثم سلوكاً قال الإمام الحسن عليه السلام: «من أدام الاختلاف إلى المسجد أصاب إحدى ثمان: آية محكمة، وأخاً مستفاداً، وعلماً مستطرفاً، ورحمة منتظرة، وكلمة تدلّه على الهدى أو تردّه عن ردى، وترك الذنوب حياءً أو خشية»^(٨٩).

ولأهمية المسجد في بناء الشخصية الرسالية تضافرت الروايات عن أهل البيت عليهم السلام على استحباب بناء المساجد، واستحباب الصلاة فيها، ووضعوا برنامجاً متكاملًا في المستحبات والمكروهات التي ينبغي مراعاتها داخل المساجد؛ وهي الحصن الواقي الذي يدفع الإنسان للحركة نحو السمو والتكامل. خامساً: العلماء.

للعلماء دور أساسي في تربية الناس وخصوصاً علماء الدين لأنهم ورثة الأنبياء والأوصياء، ولهم سلطان روحي على الناس؛ يؤثرون على أفكارهم وعواطفهم وإراداتهم ومن ثمّ مسيرتهم، فإذا كانوا مصلحين وصالحين صلح الناس، وإذا كانوا غير مصلحين وغير صالحين فسد الناس. ولهذا أكد القرآن على دور العلماء، وحثّ على التفقه في الدين: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٣]. وحثّ على الرجوع إلى العلماء: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

والمصداق الأكمل لأهل الذكر هم أئمة أهل البيت عليهم السلام كما ورد في بعض التفاسير، قال علي عليه السلام: «نحن أهل الذكر»^(٩٠).

وبما أنّ العلماء هم ورثة الأوصياء فإنهم من مصاديق أهل الذكر. ولتأثير العلماء على البناء التربوي ذمّ القرآن العلماء الذين لا ينهاون عن

المنكر: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِلَٰهَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣].

فقد ذمّ القرآن بني إسرائيل لانحرافهم وذمّ علماءهم لعدم قيامهم بنهيهم، وفي هذه الآية دلالة على أنّ تارك النهي عن المنكر بمنزلة مرتكبه. ووبّخ القرآن العلماء الفاسدين: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧٥].

ولدور العلماء في البناء التربوي قال الإمام علي عليه السلام: «إنّ كلام الحكماء إذا كان صواباً كان دواءً، وإذا كان خطأً كان داءً». وقال: «زلة العالم كانهكسار سفينة تغرق ويغرق معها خلق»^(٩١).

ولهذا ينبغي متابعة ومراجعة العلماء الصالحين الذين يجسّدون ما يرشدون به في مسيرتهم العملية.
سادساً: الحكم.

للحكام تأثير ملموس على البناء التربوي لأفراد المجتمع ؛ لأنّهم يملكون وسائل التأثير كالقوة العسكرية والمال والمنابر أو وسائل الإعلام، وكلّ حاكم حريص على تغيير المجتمع طبقاً لما يتبنّاه من عقائد وتشريعات وأخلاق، وهذا أمر واضح من خلال متابعة حركة الحلّام على طول التاريخ.

ولدور الحكماء في البناء التربوي وبناء الشخصية ، بيّن القرآن الكريم دور الحكماء الصالحين فقال : ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَنْقَبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].
وبيّن تأثير الحكماء الفاسدين، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۖ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

وأشار رسول الله ﷺ إلى ذلك قائلاً: «صنفان من الناس إذا صلحا صلح

الناس، وإذا فسد فسد الناس : العلماء والأمرء»^(٩٢) . وقال: «آفة الدين ثلاثة : فقيه فاجر، وإمام جائر، ومجهّد جاهل»^(٩٣) . وقال الإمام علي عليه السلام: «الملك كالنهر العظيم، تستمد منه الجداول، فإن كان عذباً عذبت، وإن كان مالحاً ملحت»^(٩٤) . ومن الحقائق التاريخية أنّ المجتمعات تتأثر بحكّامها، حيث تنعكس أفكار وأخلاق الحاكم وأجهزة الحكم على الناس ، خيراً أم شراً، فالحاكم حريص على تغيير المجتمع طبقاً لمبنياته الفكرية والعاطفية والسلوكية ، ويستطيع تحقيق ما يحرص عليه؛ لا متلاكه لمصادر القوة والتأثير، ومنها: المال والإعلام.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «السلطان الفاضل هو الذي يحرس الفضائل ويجود بها لمن دونه، ويرعاها من خاصته وعامته حتى تكثر في أيامه، ويتحسن بها من لم تكن فيه»^(٩٥) .

وجعل الإمام الصادق عليه السلام مقدمات الإصلاح واجبة على السلطان وعلى دولته فقال : «ثلاثة تجب على السلطان للخاصة والعامة : مكافأة المحسن بالإحسان ليزدادوا رغبةً فيه، وتغمّد ذنوب المسيء ليتوب ويرجع عن غيّه، وتألّفهم جميعاً بالإحسان والإنصاف»^(٩٦) .

والرعيّة تتأثّر بحاكمها كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «قلوب الرعيّة خزائن راعيها، فما أودعها من عدل أو جور وجده»^(٩٧) .

سابعاً: الكتلة الاجتماعية.

الكتلة الاجتماعية والتي تتكون من جماعة ذات فكر واحد وبرنامج واحد وهدف واحد له تأثير واضح وملموس في أغلب جوانب الحياة ، ومنها: الجانب التربوي حيث يكون لها دور أكبر وأكثر تأثيراً من الأفراد في إصلاح وتغيير الواقع أو في إفساده وتغييره نحو الأسوأ.

ولهذا أكد القرآن الكريم على تكوين كتلة من الدعاة أو من الأمرين بالمعروف والناهي عن المنكر . قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ

وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ [آل عمران: ١٠٤]. والمخاطب بهذه الآية هم المؤمنون كافّة، فهم مكلّفون ببلن «ينتخبوا منهم أمةً تقوم بهذه الفريضة، وذلك بأن يكون لكل فرد منهم إرادة وعمل في إيجادها»^(٩٨). فالكتلة أو الجماعة أو الأمة من الناس أكثر تأثيراً؛ إذ من خلالها تنقح الرؤى وتتجمع الطاقات والإمكانات وتتوّج الخطط والبرامج. وقد عبّر القرآن عن الكتلة الاجتماعية بالرهط تارةً وبالملاّ أخرى. والرهط: العصابة دون العشرة، ويقال إلى الأربعين^(٩٩). والملاّ: جماعة من الناس يجتمعون ليتشاوروا ويتحدثوا^(١٠٠). والرهط والملاّ يؤثرون في المجتمع في أغلب الأمور بما فيها التربية الصالحة أو الفاسدة، أو التأثير على المصلحين أو المفسدين. قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾^(٩٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَ لَوْلَئِهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلَكَ أَهْلَهُ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٩٨﴾ [النمل: ٢٤٨]. فقد تأمروا على صالح عليه السلام فكان تأمرهم أشد؛ لأنهم قوة أو كتلة مجتمعة. بينما نجد أنّ الكافرين كانوا يخشون كتلة شعيب كما حكى عنهم القرآن: ﴿قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ﴾ [هود: ٩١]. فالكتلة الاجتماعية محيط تربوي أكثر تأثيراً من الأفراد، ولذا فقد أمر القرآن الكريم بتشكيل أمة أو كتلة من الدعاة ومن الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنّ التجمّع قوة مؤثرة في الناس لما يحمل من وحدة الأهداف ووحدة الوسائل ووحدة الإمكانيات، ففيها تجتمع الطاقات وتتوّج الفعاليات، وهي تستطيع تكوين ما يسمّى بالعقل الجمعي المؤثّر على أفراد الناس فيستطيع المصلحون والمربّون التأثير على أفكارهم أو ممارساتهم حسبما يترأّاه من متبرّئات فكرية وسلوكية.

الهوامش:

- (١) الشيخ الصدوق، علل الشرايع، ص١٠٣.
- (٢) الدكتور فاخر عاقل، علم النفس التربوي ص٣٩.
- (٣) الفيض الكاشاني، المحجة البيضاء ٣: ٩٣.
- (٤) زهران، الدكتور حامد، علم نفس النمو: ص٢٦.
- (٥) القرشي، باقر شريف، النظام التربوي في الإسلام: ص٥٧.
- (٦) الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة ٢٠: ٨٥.
- (٧) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي ٥: ٣٥٤.
- (٨) أنطون رحمة، الشخصية وأثر معاملة الوالدين في تكوينها ص٤٠.
- (٩) الدرّ، د. إبراهيم، الأسس البيولوجية لسلوك الإنسان: ص١٧.
- (١٠) منصور، الدكتور علي، علم النفس التربوي ٢: ٤٥٢.
- (١١) الأمدي، عبد الواحد، تصنيف غرر الحكم ص٥٥.
- (١٢) م. ن.
- (١٣) م. ن. ص٧٦.
- (١٤) المقرّم، عبد الرزاق، مقتل الحسين: ص٢٠٩.
- (١٥) الطبرسي، الحسن بن الفضل، مكارم الأخلاق: ص٣٠٥.
- (١٦) الكليني، الكافي ٥: ٣٤٧.
- (١٧) حمّد، الدكتور عبد الوهاب، دراسات معمقة في الفقه الجنائي المقارن: ص٣٤.
- (١٨) فلسفي، محمد تقي، الطفل بين الوراثة والتربية: ص٧٨.
- (١٩) تصنيف غرر الحكم: ص٤٠٩.
- (٢٠) م. ن.
- (٢١) م. ن.
- (٢٢) م. ن.
- (٢٣) م. ن.
- (٢٤) م. ن. ص٢٥٤.
- (٢٥) م. ن. ص٣١٤.
- (٢٦) عبد الهادي، عائدة وصفي، أساسيات في علم الوراثة: ص٨٨.

- (٢٧) م.ن.
- (٢٨) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار ٤٠: ١٦٩.
- (٢٩) يفرز المبيضان بويضة بالتناوب، ويحدث التلقيح في قناة فالوب قبل وصول البويضة إلى
- (٣٠) المرجع عظمه وصفي، أساسيات في علم الوراثة: ص ٨٨ وما بعدها.
- (٣١) السبزواري، محمد بن محمد، جامع الأخبار: ص ٢٨١.
- (٣٢) الحسيني، شهاب الدين، العلاقات الجنسية: ص ١٤٢١٤١.
- (٣٣) الكليني، الكافي ٥: ٤٩٩.
- (٣٤) المحدث النوري، مستدرك الوسائل ١٤: ٢٢٤.
- (٣٥) الطبرسي، مكارم الأخلاق: ص ٢١٠، والسبزواري، جامع الأخبار: ص ٢٧٨.
- (٣٦) مكارم الأخلاق: ص ٢١٠.
- (٣٧) الحمداني، د. موفق، الطفولة: ص ٩٥.
- (٣٨) م.ن.
- (٣٩) أساسيات في علم الوراثة: ص ١٢٥.
- (٤٠) م.ن. ص ١٢٤.
- (٤١) مكارم الأخلاق: ص ٢٠٩.
- (٤٢) م.ن.
- (٤٣) وسائل الشيعة ٢: ١٣٤.
- (٤٤) مكارم الأخلاق: ص ٢١٠.
- (٤٥) م.ن. ص ٢٠٩.
- (٤٦) م.ن.
- (٤٧) م.ن.
- (٤٨) م.ن.
- (٤٩) الحمداني، الطفولة: ص ٩٤.
- (٥٠) مكارم الأخلاق: ص ٢١٢.
- (٥١) الحارثي، ابن شعبة، تحف العقول: ص ٣٤٠.
- (٥٢) طbare، عبد الفتاح، الخطايا في نظر الإسلام: ص ٨٩.
- (٥٣) رفعت، محمد، قاموس الطفل الطبي: ص ١١.

- (٥٤) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن ٥: ٣١٨.
- (٥٥) الحرّاني، تحف العقول: ص ١٨٩.
- (٥٦) م. ن. ص ١٩٤.
- (٥٧) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث ٥: ٢٢٨.
- (٥٨) القمّي، جعفر بن محمد، جامع الأحاديث: ص ٧٨.
- (٥٩) الكليني، الكافي ٥: ٦٤٠، كتاب العشرة، باب من تكره مجالسته، ح ٤.
- (٦٠) تصنيف غرر الحكم: ٤١٦.
- (٦١) تحف العقول: ١٤٤.
- (٦٢) الكافي، ٢: ٦٣٨، كتاب العشرة، باب من يجب مصادقته، ح ٢.
- (٦٣) م. ن. ح ١.
- (٦٤) الشيخ المفيد، الاختصاص: ص ٢٥١.
- (٦٥) جامع الأحاديث ٧٨.
- (٦٦) الكافي ٢: ٦٤٢، كتاب العشرة، باب من تكره مجالسته، ح ١٠.
- (٦٧) المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٢: ٢٧٧.
- (٦٨) تحف العقول: ص ٢٧٣.
- (٦٩) شرح نهج البلاغة ٢: ٢٧٢.
- (٧٠) م. ن.
- (٧١) م. ن. ٢٠: ٢٤٤.
- (٧٢) تحف العقول: ص ٢٠٢.
- (٧٣) تصنيف غرر الحكم: ص ٤١٨.
- (٧٤) السيوطي، الجامع الصغير ٢: ٧٣٨.
- (٧٥) الفراهيدي، الخليل، ترتيب كتاب العين: ص ٧٩٨.
- (٧٦) الأصفهاني، الراغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص ٧٩٧.
- (٧٧) مكارم الأخلاق: ص ٣١٢.
- (٧٨) تحف العقول: ص ٢٠٥.
- (٧٩) الكافي ٢: ٦٤٢، كتاب العشرة، باب من تكره مجالسته، ح ٩.
- (٨٠) الديلمي، الحسن بن علي، أعلام الدين في صفات المؤمنين: ص ٢٧٦.
- (٨١) الصدوق، الخصال ١: ٥، باب الواحد، ح ١٢.

- (٨٢) أعلام الدين في صفات المؤمنين: ص ٢٧٢.
- (٨٣) المحدث النوري، مستدرك الوسائل ٨: ٣٢٨، كتاب الحج، أبواب أحكام العشرة، باب ١١، ح ٨.
- (٨٤) السمرقندي، نصر بن محمد، تنبيه الغافلين: ص ٤٤٢.
- (٨٥) الحلبي، أحمد بن فهد، عدّة الداعي: ص ٦٩.
- (٨٦) مستدرك الوسائل ٨: ٣٣٩.
- (٨٧) الكافي ٢: ٣٧٩، ح ١٤.
- (٨٨) ورام بن أبي فراس، مجموعة ورام: ٣٢.
- (٨٩) تحف العقول: ص ١٦٤.
- (٩٠) الطبري، محمد بن جرير، تفسير القرآن ١٧: ٥.
- (٩١) شرح نهج البلاغة ٢: ٣٤٣.
- (٩٢) السيوطي، الجامع الصغير ٢: ١٠١.
- (٩٣) الجامع الصغير ١: ٦.
- (٩٤) شرح نهج البلاغة ٢: ٢١٢.
- (٩٥) م. ن. ٢٠: ٢٨٢.
- (٩٦) تحف العقول: ص ٢٣٤.
- (٩٧) تصنيف غرر الحكم: ص ٣٤٤.
- (٩٨) المراغي، تفسير المراغي ٢: ٢٢.
- (٩٩) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص ٣٦٧.
- (١٠٠) ترتيب كتاب العين: ص ٧٧٥.

التناظر في نهج البلاغة

جدلية العدل بين الأنا والأخ والنظير

□ الأستاذ: محمود حيدر (*)

تقديم

من أين لنا أن ندخل في نهج البلاغة؟
سؤال يبقى على نصاب الولادة كلما اهتدينا إلى جواب...
لكأنك حين تنصت إلى الخطبة، تروح الخطبة تهحك ما ابتغيت من بلاغتها.
فكلما توسّعت طلباً جاءتك على حسب سعيك ، وفاضت عليك بمقدار
سعتك. فأنت في حالك هذه، لن تفارق الحيرة. فستأتيك الخطبة كلّ آن بمسألة.
كما لو كنت وسط جلال الكلمات كذاك ال ساري في بحر لجي ، أو في نهر لا
منتهى لمجراه.

ولم غدوت من النهج على السمع والإصغاء حُلْتُ إلى باب من أبوابه
العالية، باب موصول بحكمته، وحلمه، وببلاغته القصد الذي فيه . عنيت به
باب التناظر في الوجود . وامتكا كلامي كلمات من كتاب أرسله الإمام عليه السلام إلى
مالك الأشرتر واليه على مصر، يعظه فيه ويرشده إلى صراط العدل وتقوى الله في

(*) باحث إسلامي ورئيس مركز دلتا للأبحاث المعمّقة/ لبنان.

الرعيّة: «وأشعر قلبك الرحمة للرعيّة، واللطف بهم، ولا تكون عليهم سَ بَغاً ضارباً تغتنم أكلهم، فإلّهم صنفان : إمّا أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق .. فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحبّ وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه»..

والآن ما الذي أعنيه بالتناظر؟

في الفلسفات الاجتماعية الحديثة الكثير مما عني الإشكال حول الأنا والآخـر.. أو الأنا والغير، لكن الإشكال لم يستو على حال ، فامتدّ السجال في نظريّ الحقوق إلى ما لا حصر له من المسافات من دون أن يستقرّ على أرض الوضوح.

هذه المقالة تسعى لبيان رؤية الإمام عليّ (عليه السلام) في الإشكال . ولقد وجدت في ما لخصه لهذه القضية بعض الكلام حول النظر في الخلق . ووجدت أيضاً فائدة في إيراد العناوين الإيضاحيّة التالية:

- الأنا في مقالة الإمام هي ضمير المتكلم لسيّد الأولياء وإمام المتّقين ووصيّ رسول ربّ العالمين ﷺ .

- الأخ هو المؤمن المتحيّز في الشريعة المقدسة. ولذا فهو «أخ» الأنا في الدين.

- وأمّا النظر، فهو المعادل للأنا والأخ في المنشأ والأصل.

- وهو المثل الإيجابيّ للأنا والآخـر.

- وهو أساساً ذلك الكائن صاحب النفس المحترمة، الممنوحة من الحقّ

الأوّل على مشيئة الاستخلاف الآدمي. والنظر بهذه المثابة هو ما يتعدّى المفهوم المألوف عن الآخر، كون الآخر يفترض الخصومة النديّة. حيث المسافة بينه وبين الأنا تبقى محكومةً بالأغراض والإعراض.

- والنظر يتعدّى أيضاً مفهوم الغير، كون الغير مقولة مشوبة بثقافة تلموديّة

لا ترى إلى الأغيار سوى كائنات نازلة في عقيدة الشعب المختار.

- الآخر والغير هما من صنع الأنا التاريخي للفكر الفلسفي الغربي، التي غالباً ما تنحكم بحراك المصالح والأهواء والرغبات المباشرة.

- أمّ النظرية فهو في مقام الإمام، الكائن المستخلف في الأرض، والمتمصل بالشهادة والغيب. ولذا فهو امتداد طوي للأنا مع الحق الأول، مثلما هو امتداد عرضي للأنا مع سائر الخلق. وهذا الامتداد الخلقى نظير الأمر الإلهي. وهو يؤلف صلة الوصل الوجودية في مثلث الأنا والأخ والنظير. كما يؤلف صلة الوصل الوثقى مع الله. ذلك يعني أنّ حضور النظير، لحضور الأنا والأخ في الدين، هو حضور أصيل يتحرك تحت إشراف الحق الأول وعنايته. وإذا فالثلاثية العلوية هي على الحقيقة نظائر مجتمعة على السوية في عالم الوحدة. ذلك أنّ الاتصال بالواحد يفضي إلى أصالة تلك النظائر، لجهة استحقاقها للحقانية المجعولة لها من الحق الأول.

والحاصل: أنّ حق النظر هو حق متأب من الله، لا من الأنا. وهنا بالذات مصدر التجلي التناظري بين الحق والخلق في نهج البلاغة..

لو أحلنا كلام الإمام عليه السلام بشوقه: العلمي والعملّي، لنسبناه إلى عالم الحكمة الأخلاقيّة البالغة. ففي مراتب هذه الحكمة يتدرّج السائر نحو الحق الأول، ويترقى عبر جدي لا نهاية لها، من المحو، والإثبات، والترك، والابتلاع، وكذلك عبر محاكاة لوازم الشريعة وأحكامها، وصولاً إلى تدبّ حقائقها الباطنة ومثالاتها.

الحكمة الأخلاقية البالغة التي يراد للإنسان من خلالها إدراك النظير، لا تمسّ غايتها إلاّ ببحلة علميّة وعملية مضمّنة في طلب الالتحاق بالربوبية. فمّ النظر على نحو ما يريده الإمام عليه السلام، لن يتحقّق على التمام إلاّ إذا رأينا إليه بعين الحق، لا بعين ذاتنا. فلا تستقيم الرؤية التوحيدية مع رؤيتنا المكتنّزة بالفقر، واستعلاء الإبنية، ونكران الجميل. فقاعدة التناظر في الكثرة الخلقية هي قاعدة

أصيلة ثابتة ينفرد بها الخالق وحده تعالى . والخلق المأمورون بتمسُّها لا ينالونها بغير المجاهدة . ولهذه المجاهدة شرائط معرفية وسلوكية، هي من مقتضيات الرحلة الشاقة في المباحث الإلهية والمعارف الربوبية . وهي، على ما يبين الحكيم الإلهي صدر الدين الشيرازي ، رحلة في غاية الغموض ، ودقيقة المسلك ، ولا يقف على حقيقتها إلا واحد بعد واحد، ولا يهتدي إلى كنهها إلا وارد بعد وارد . والمراد من الحكمة التي على الساعي في الحق أن يمتلئ بها، هي التي تؤول إلى معرفة ذات الحق الأول، ومرتبة وجوده، وصفاته وأفعاله، وإلى إدراك كيفية صدور الموجدات منه تعالى . وهذه الحكمة التي ظهر مثالها الأكمل في نهج البلاغة، هي عناية ربانية و موهبة حقانية، كما في الكتاب العزيز : ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]. وهي من فضل الله وكمال ذاته ورشحات وجوده، آتاها الله لمن اختاره واصطفاه من خواص عباده ومحبيه . ولا ينالها أحد من الخلق إلا بعد تجرده عن الدنيا وعن نفسه بالتقوى والورع والزهد الحقيقي، والانخراط في سلك المقرّبين من ملائكته وعباده الصالحين حتى يعلمه من لدنه علماً ، ويؤتيه حكمة وخيراً، ويحيه حياة طيبة، ويجعل له نوراً يمشي به في ظلمات الدنيا، كما في قوله تعالى : ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

يظهر النظر في المقالة العلوية من محصول الحكمة البالغة ، ملًم انطوى عليه كتاب الله العزيز . وهي الحكمة التي استحقها كوصي للحقيقة المحمّدية ﷺ . وظهر النظر في الآيات البيّنات بين في قوله تعالى : ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَحَدٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

النظر إذاً، هو المساوي والمثل ولكن على نصاب العدل . أي: على النشأة الأصلية للنوع الآدمي وواحدية تلك النشأة . والنظر هو المعادل بين اثنين من أصل واحد . حيث الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد كما تقرّر الحكمة الإلهية .

فكلّ متقابلين على نحو التناظر هما نظيران متعادلان في أصل تقابلهما وجهاً لوجه. وبذلك يقول التناظر إلى مبدأ الإيجاد. فالكون مثلاً يدار بسلسلة من الأنظمة والقوانين الدائرية الثابتة التي لا تتغير. وهذه القوانين والأنظمة هي نظائر متعادلة في أصل ظهورها في الوجود، رغم الاختلافات والتفاوتات بين شخوصها وأفوادها.. ويقوم العدل في نظام النشأة الكونية على وجود مراتب مختلفة ودرجات متفاوتة للوجود. وهذا هو من شأن ظهور الاختلاف والنقص والعدم.

ولأنّ التفاوت والاختلاف والنقص في المخلوقات أمور لا تتعلّق بأصل الخلق، أي: أنّه ليست مخلوقات، بل هي من لوازم ومقتضيات تلك المخلوقات، فمن الخطأ الظنّ بأنّ الخالق قد رجّح بعض مخلوقاته على بعض. أمّ الترجيح، فهو الذي يؤدّي إلى نقض العدالة والحكمة، فإنّه من فعل الفاعل البشريّ، أي: من المخلوق.

أمّ الذات الإلهيّة المقدّسة، فلمّا كانت وجوداً صرفاً، وكما لا محضاً، وفعلية خالصة، فهي إذاً، منزّهة عن تلك الوسائل والأفكار والوسائط، وبالتالي: عن كميّات الترجيح التي هي من لوازم الاجتماع البشريّ. ولذا فالعدل - بمعنى التناسب والتوازن - من لوازم كون الهج حكيماً وعليماً. فهو سبحانه بمقتضى علمه الشامل، وحكمته العامّة، يعلم أنّ لبناء أيّ شيء مقادير معيّنة من العناصر. ولذا، فهو من يرثب تلك العناصر لتشييد ذلك البناء، وضمن دائرة ارتباط العدل بالحكمة، بوصفها صفتين من صفات الحقّ تعالى، يتجلّى العدل الإلهيّ من خلال فيضه على كلّ مخلوق بقدر ما يستحقّ، كما تظهر الحكمة من خلال كون النظام الذي أبدعه هو أحسن وأصلح نظام. وعلى قول الفيلسوف نصير الدين الطوسي: «لا يوجد حكم لائق غير حكم الحقّ.. ولن يأتي حكم يفضّل الحكم الحقّ، وكلّ شيء موجود قد أوجِد كما كان ينبغي، ولم يوجد شيء

لا ينبغي وجوده»^(١)..

ولأنّ لازم الحكمة والعناية الإلهية هو أن يكون للكون والوجود معنى وغاية، فأَيُّ شيء يوجد، إمّا أن يكون خيراً بنفسه، وإمّا أن يكون وسيلة للوصول إلى الخير... فالحكمة من لوازم كونه عليماً ومريداً، هي توضيح أصل العلّة الغائية للكون. أمّا العدالة، فليس لها علاقة بصفتي العلم والإرادة، ولكنّها بالمعنى الذي مرّ تكون من شؤون فاعليّة الله، أي أنّها من صفات الفعل وليست من صفات الذات^(٢).

النظير في بلاغة التوحيد

بلاغة التوحيد عند الإمام عليّ عليه السلام نجدها في بيان مقصده تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، فبيّن أنّ الخلائق لا تحيط بالله علماً؛ إذ جعل تبارك وتعالى على أبصار القلوب الغطاء. فلا فهم يناله بالكيف، ولا قلب يثبت به بالحدّ. فلا تصفه إلّا كما وصف نفسه. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. خلق الأشياء فليس من الأشياء شيء مثله. فلحدّ الإمكانيّ هو الغطاء الذي يخفي الذات المقدّسة، وهذا الحدّ هو سبب لمحدوديّة الممكن، وعجزه عن إحاطة الحقّ الأوّل. ولم لم يكن له تعالى حدّ وجوديّ، بل هو وجود صرف صريح، فقد كان له الإحاطة والسلطة على الأشياء. بل إنّ الحقّ في مقام ذاته وغيبه المنعوت بالكنز الخفيّ منزّه عن التعينات. ولهذا ورد النهي عن التفكير في ذات الله وفي قول الإمام عليّ عليه السلام: «من تفكّر في ذات الله أَلَحَدَ. ومن تفلّو في صفاته أرشد». وهذا ما يتبين في القرآن الكريم حيث لم يشتمل من معرفة الذات في الأغلب إلّا على تقديسات محضة، وتنزيهات صرفه، كقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقوله: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠].

سنرى أنّ أسمى صفات الإمام عليّ عليه السلام في توحيد الله صفة العبوديّة، أي: عبادة

اليقين عبادة لا شية فيها. وهي وصول العابد إلى مقام الحمد لذات الله، حيث الحمد مقصور على الله؛ لأنَّ الله. وهو غير مرتبط بعطاياه ورحمته ورزقه، ووعد الموحدين بالنعيم الأبدي، وإنَّا لأهَّ الحقَّ الأحد الصمد. وهذه المرتبة من اليقين التام لا نُحرك إلا من مقام القائل: «إلهي ما عبدتك طمعاً في جزئك، ولا خوفاً من نارك، بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك». وبهذا، فلنَّ أقرب تعبير قدَّمه الإمام عليه السلام لمقام الحمد هو شعيرة السجود؛ لكونها الشعيرة الدالة على الإقرار التام بالصمديَّة وتسييحها. والحمد هو عين العلم بالله.

ومن هذا المحلَّ العلمي ينظر الإمام عليه السلام إلى الأنا والأخ والنظير. ومنه يتبدئ السير في حركة القول والعمل تأسيساً على الارتباط الموثوق بين الحامد والمحمود، وبين العابد والمعبود.

وحتى يُعرف الحقَّ بذاته حقَّ المعرفة على قاعدة «بك عرفتك»، عبوديَّة الإمام للحقِّ بالخلق؛ لتصير المعرفة بالله معرفةً بمخلوقاته بالتبعيَّة. ذلك أنَّ حقيقة العبوديَّة هي معرفته لذاته في تبعيَّتها. والتبعيَّة عموماً عبارة عن الارتباط بشيء في أمر لا يتمَّ حصوله إلا بهذا الشيء. وفي مقام تبعيَّة الإنسان خصوصاً، هي أن يرتبط بشيء تحصل له به فائدة أكبر من تعيُّن وجوده وتحقُّق سلوكه. فتكون العبوديَّة في هذه الحال، هي معرفة الارتباط الذي يحصل به التعيُّن الوجودي والتحقُّق السلوكي. ويصطلح أهل المعرفة على تسمية هذا الارتباط بلسم «التبعيَّة الأصليَّة»^(٣).

تأسيساً على عبوديَّة الحمد لذات الله، يشرع الإمام عليه السلام في السفر إلى عالم الناس. ومن فضاء الحمد يمضي إلى حلِّ إشكال التدافع بين الإنسان والإنسان. والحلَّ الذي أظهروه الإمام عليه السلام عبر التناظر على قاعدة التعرُّف الخلاق بين منوعات الكثرة البشريَّة.

سيكون لمسار التعرُّف أن يترسخ عبر حركة تسري في جوهر العلاقة التي لا

تنفصم بين الحق والخلق. أمّا ميدان هذا الجريان ، فهو في الحيز الذي يشهد فيه الحق على الخلق. وهو ما اصطلح عليه بعالم الشهادة. فسيكون على الإمام المبين وسط هذا العالم، أن يخلّ ويبين ويعلم ويقيم الوزن بالقسط بين الناس ، تبعاً لتقريرات الحق الأول في الشريعة المقدسة.

يقين الإمام عليه السلام أنّ العلم مقرون بالعمل، فمن عَمِلَ لم يَعرَفْ، والعلم يهتف بالعمل، فلن أجابه، وإلا، ارتحل عنه. وإذ يهتف العلم بالعمل، فذلك يعني أنّ نداء العلم لصاحبه متلازم مع وجوده بالقوّة، بوجوب إخراجه من القوّة إلى الفعل، فلن لم يستجب ذاك صاحب ارتحل عنه علمه سالكاً سبيل النسيان.

لقد عرف الإمام عليه السلام الحق. وبهذه المعرفة أدرك سريان الحق في الخلق، حتى لقد صارت البلاغة عنده علماً، كلّ قول فيه ينحكم بقول الحق، وكلّ عمل ينحكم بعمله. ليست المعرفة بحق الناس عند الإمام عليه السلام أمراً محصلاً بالاكْتِسَاب بقدر ما هي دفع إلهي، ذلك أنّ حق الإنسان غير منقطع عن حق الله في الخلق. والإحالة العلويّة إلى الحق الأول يجعل حق الإنسان مرتبة من مراتب ذات الحق. وبذلك يغدو كلّ حق في عالم الكثرة البشريّة موصولاً بعروة وثقى بالحق في عالم الوحدة الإلهيّة. وفي الرؤية العلويّة ما من فاصل بين حق الله وحقوق الناس. لكنّ صلات الوصل بناءً على هذه الرؤية تنبث من قيوميّة الحق تعالى على الوجود، لا على محوريّة الإنسان التي بنى عليها العقل الغربي منظومته الفلسفيّة ورؤيته إلى الوجود.

قوام التناظر بين الأنا والأخ والنظير في مقالة الإمام عليه السلام انبثاقه من دائرة الألوهيّة. فهذه الثلاثيّة جارية على الاستواء ضمن هذه الدائرة فلا تتعدّها. القائل بالتناظر الذي هو الأنا العارفة بالحمد لله، وهو أمير المؤمنين عليه السلام، لا يفلوق الثلاثيّة. إنّ ركن من أركانها، وحين يصف الناس، ويصنّفهم، لا يكفي بالتوصيف والتصنيف على نحو ما يفعل المنفصل عن إطار الصورة، وإنما يُقحّم

نفسه داخل حقل التفاعل بوصفه وصي الرسول ﷺ وحامل الأمانة والإمام المبين.

التناظر في الاجتماع البشري إذاً هو حضور الإمام والأخ والنظير في حركة الواقع، ولكن هذا الحضور عند ولي الله، ينبغي له الانتظام على الصراط. ومبتدأ الصراط هو قبول التكليف بوصفه واجباً افترضه الحق على الولي ليتولى شؤون خلقه.

وأما مناط التكليف - كما سيقرّر الإمام ﷺ في النهج - فعائد إلى تنزيل الآخ والنظير في مقام الأنا العارفة بالحمد لله . وهذه الموقعية تلك التي تتجلى بعقد إلهي يظهر في عالم الناس وقوامه سير الأنا في معراج الحق انية، بدءاً من الحق الأول، امتداداً إلى الأخوة في الإيمان، وصولاً إلى النظير في الآدمي. والسير في معراج الحق انية على النحو الذي يمليه العقد الإلهي هو سير متساوق مع القوانين التاريخية. أي أنه سير في الخلق بالحق، فيه يرجو السائر عناية الحق وتأبيده ليفلح بما أمر به في عالم الناس . يخالطهم، يدبر شأنهم، ويرشدهم إلى الحق.

لقد وضح الإمام ﷺ خط السير في دنيا الخلق بعناية الحق بادئاً من نفسه. ولمّ جاء في وصيته لابنه الحسن ﷺ: «يا بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك. فلحُب لغيرك ما تُحِبُّ لنفسك، واكره له ما تكره لها . ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم، وأحسن إلى جميع الناس كما تحب أن يُحسن إليك. واستقبح من نفسك ما تسقبحه من غيرك، وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل ما لا تعلم وإن قل ما تعلم، بل ولا تقل كل ما علمت مم لا تحب أن يقال لك. ولا تسأل عما لا يكون.... واعلم يا بني أن رأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس. ولا خير فيمن لا يعاشر بالمعروف من لا بدّ من معاشرته، حتى يجعل الله إلى الخلاص منه سبيلاً ، فليّ وجددت جميع ما يتعايش به الناس وبه

يتعايشون ملء مكيال، ثلثاه استحسان وثلثُ غُتغافل»^(٤).

منتهى معراج الإمام عليه السلام في رحلة التكليف لإصلاح عالم الكثرة، العودة إلى المبدأ. وما دام كل أمر متعلق بتوحيده تعالى فلا مناص من الرجوع إليه في كل شأن متعلق بتدبير الاجتماع الإنساني. وهو ما يبينه الموحّدون ممّن نهجوا نفس نهج البلاغة. فيقولون: إنّ النهايات هي الرجوع إلى البدايات. وهذا القول يترجم أصل الميل والعشق لكل مخلوق للرجوع إلى أصله ومبدئه، وعبارة أخرى: هو أصل عودة كل غريب إلى وطنه.

ويعتقد الأولياء أنّ هذا الميل إلى المبدأ يشمل كل ذرات الوجود، ومنها: الإنسان، ومهمّة التكليف الإلهيّ تظهير هذا الاعتقاد من خلال الإرادة والعزم على أداء المهمّة. والإرادة عند الأولياء تعدّ أول منازل السير إلى الله عبر إصلاح شؤون الخلق. ذلك ما ألّفناه في نهج الإمام عليه السلام. فلم يفصل بين عبادة الحمد والتزنية لله الواحد الأحد الصمد، وبين فعليّة العبادة في الاجتماع الإنسانيّ. حيث تتمظهر أسماء الله وصفاته وأفعاله كشواهد وموازين في أعمال الناس وتجارهم.

ولمّا كان في التجارب علم مستحدث، كما تبين الحكمة العلوّجيّة، يجد المكلف الرساليّ نفسه أمام مقتضيين ينبغي له الأخذ بهما وهو يمضي في مسار التكليف المقتضى الأول: هو الخطاب الإلهيّ، وقوامه أن يعلم المكلف أنّ الحقّ يخاطبه في كلّ شيء، وأنّ هذه المخاطبة مستمرّة باستمرار حياته، وأنّ نصّ هذا الخطاب، إن حُفِظَ رسوماً في الصحف المطهرة، فمعانيه مودعة في نفس المكلف، وفي الأكوان من حوله: ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَتَنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، ويعلم أنّ هذه الأكوان ما قامت ولا استقامت إلّا بهذه المعاني الإلهيّة التي على المكلف واجب التعرّف عليها والتقرب بها إلى حضرة الله.

المقتضى الثاني: هو الرؤية والمراقبة، ومؤداهما أن يعلم المكلف أن الله يراه رؤية لا تنقطع، وأن هذه الرؤية إن جاءته بالرضا عن أفعاله سعد سعادة لا يشقى بعدها، وإن جاءته بالسخط شقي شقاوة لا يسعد بعدها، وبذلك، فهو مطالب بأن يراقب نفسه ويراقب الله في كل أفعاله^(٥).

من هذين المقتضيين الإجماليين، تتفرع ثلاثة مقتضيات تفصيلية تفترضها شروط العمل في ميادين التجربة التاريخية وهي (الاشتغال بالله) و(التعامل مع الغير). و(التفاعل مع الأشياء أو مع سائر الموجودات).

- في المقتضى الفرعي الأول، يدرك المكلف أنه مخلوق للاشتغال بالله، وأن الاشتغال بغيره ينبغي أن يذكره بالله دائماً وأبداً. فما يعقل المكلف شيئاً إلا ويجعله هذا الشيء يعقل أمر ربّ فيه.

- في المقتضى الفرعي الثاني، أي: التعامل مع الغير، فلنّ المكلف يأتي أعمالاً لصالحه بينها على اعتقاداته مقرراً لغيره في ذات الوقت بحقّ الإتيان بمثل هذه الأعمال الصالحة، وبحقّ توجيهها بما عنده من اعتقادات، كما يرتبّ المكلف هذه الأعمال جميعاً بحسب ما يقتضيه الصالح العام.

- أمّ الثالث، فهو مقتضى التفاعل مع الأشياء، وفيه يتّجه المكلف إلى الموجودات من حوله بقصد إرضاء حاجاته المشروعة، وحفظ حياته المادّيّة، فيفعل فيها ويتصرّف بها بحسب هذه الأهداف، كما تفعل فيه هذه الموجودات هي الأخرى، وتؤثّر فيه بما يوافق هذه الأهداف أو يعارضها فتقوم بينهما علاقات الأخذ والعطاء والتأثّر والتأثير.

تدخل ثلاثية الأنا والأخ والنظير دخولاً بيّناً في صميم هذه المقتضيات، سواء ما تعلّق منها بالمستوى الإجماليّ لجهة صلة المكلف بالحقّ الأول أو ما يتعلّق منها بالمستوى التفصيليّ لجهة صلة المكلف بمنعطفات وتعقيدات وشواغل الاجتماع البشريّ. ها هنا على التعيين يمكننا فهم ما ذهب إليه

الإمام عليه السلام في التوصيف والتصنيف لأحوال الناس في حراكهم التاريخي؛ إذ إنه ميّز بين النظر في مقامه التكويني حيث التعادل والتساوي في أصل الخلق وبين النظر في عالم الكثرة والاختلاف والتدافع في حقول الخير والشر.

لقد أراد الإمام عليه السلام بمقالته أن ينشئ عقداً رحمانياً ينظّم صلات الوصل بين الناس. لكن لا يعني أن عقداً كهذا يغيب حال التغير والاختصاص والعداوة، ففي أثناء خلافته صنّف أعداء الدولة الإسلامية إلى ثلاثة: الناكثين والقاسطين والمارقين.

الناكثون هم أصحاب الجمل، والقاسطون أصحاب صفين، وأمّ المارقون، فهم أصحاب النهراون من الخوارج. وفي الخطبة الشقشقية من نهج البلاغة يقول: «فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة، ومرقت أخرى، وقسط آخرون»، وأمّ صفات هذه الطوائف فقد توزّعت بين الجشع، وحبّ المال، والسعي إلى السلطة، والنفاق، ناهيك بالخوارج الذين امتازوا بالتكفير والعنف وإثارة الفتن.

هذا التصنيف المثلث الأضلاع الذي وضعه الإمام عليه السلام ليبيّن أحوال الأمّة لم يكن بخارج عن التناظر الرحماني. فهي هي امتداداً جوهرياً ليلبغ مثلث الخصوم. فالأنا العلوية هنا تدرك أن في عالم الكثرة حركةً وتغيّراً وتبدلاً، فالعدو في لحظة ما يمكن أن يتحوّل إلى وليّ حميم، كما في آية الأمر الإلهي بالدفع: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، ﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

تظهر الآيتان على كمالهما في مقام التطبيق في قول الإمام عليه السلام: «صافح عدوك وإن كره، فإنه ممّا أمر الله في عبادته»، وقوله عليه السلام: «ما يكافأ عدوك بشيء أشدّ عليه من أن تطيع أمر الله فيه».

وفي هذين المأثورين ما يفصح عن الامتداد الرحماني ، الذي يبدأ من الأنا العارفة بالحمد لله ، إلى النظر وإن كان لك عدوٌّ أ. وذلك ما يقيّمه الحكماء والعرفاء في أعلى مراتب الارتباط بالحقّ الأوّل؛ إذ على قاعدة الحبّ في الله والكره في الله يستوي الموحد على الصراط . حيث الأولياء لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ومثلما يسري مفهوم النظر على الفرد والمجموعات فلنّ للمفهوم سريانه في فضاء الحضارات والأديان. وما في القرآن الكريم من البينات بصدد الاختلاف والتنوّع وتكثُّ طرق معرفة الحقّ من خلال الأديان ورسالات الوحي ما يفضي إلى بيان الرجوع إلى المصدر الأوّل والحقّ الأوّل. ذلك ما يجعل مبدأ ال تنظر ضرباً من الكثرة في عين الوحدة، بحيث يغدو التكثّر عن الحقيقة الواحدة في الأصل الإنسانيّ، ذلك أنّ الاختلاف في الألوان والأعراق والألسن هو من آيات الله وسنّة من سنن الخلق.

* * *

الهوامش:

(١) مرتضى مطهري، العدل الإلهي: ص٨٢، الدار الإسلامية، بيروت ١٩٩٧.

(٢) م. ن. ص٨٢.

(٣) طه عبد الرحمن، العمل الديني وتجديد العقل: ص١٣٠، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٧.

(٤) نهج البلاغة: ص٧٣٩-٧٤٠.

(٥) طه عبد الرحمن، العمل الديني وتجديد العقل: ص١٣٠.

الاستبداد الفكري وجذر العطالة السياسية

أهمية التكوين والتنشئة الأخلاقية للنخب والقيادات

□ الأستاذ: نبيل علي صالح (*)

تعاني مجتمعاتنا العربية حالياً من مجموعة أزمات وملفات سياسية واقتصادية واجتماعية عالقة، تنتقل من عام إلى آخر من دون البحث الجدي عن حلول جدية ودائمة لها.. ولا أعتقد أن تلك الأزمات ستجد طريقها للحل قريباً حتى مع بزوع فجر ما سُمّي بربيع الثورات العربية التي ضربت أمواجها شواطئ العرب هنا وهناك.. ليس لأنّ الربيع غير جميل، ولا يسعد القلوب والأفئدة، وليس لأنّه فصل النشاط والحيوية والأمل والعمل.. بل لأنّ طبيعة المتصرّين فيه ربما ستساهم إلى حدّ بعيد في إعادة اجترار أصل المشكلة العربية القائمة منذ قرون، وهي أزمة ومشكلة السلطة والحكم والحرية.

طبعاً، وحتى نكون منصفين وقارئین للحدث من زواياه المتنوعة وليس من زاوية أحادية، لا بد من القول بأنّه يكفي هذه الثورات أنّه احرّكت كثيراً من المستنقعات العربية الفكرية والسياسية الآسنة الغارقة بكثير من أحوال الفكر

(*) باحث وكاتب سوري مهتمّ بشؤون وإشكاليّات الثقافة العربيّة، بكالوريوس في هندسة الطاقة الكهربائية.

والسياسة الديماغوجية التقليدية التي لم تقدّم أشياء جديدة للجماهير العربية والإسلامية على مدى عقود طويلة..

وإذا ما أردنا أن نكون أكثر دقة وتحديداً في توصيف المأزق الفعلي الراهن الذي نعانيه، فإنّه يمكننا محورته في الأمور التالية:

١. غياب (أو تغييب) الثقافة النقدية الحقيقية التي يمكن بمقدورها خلق مجال سياسي وفضاء اجتماعي عام مضاد للاستبداد الفكري والسياسي القائم بكل أشكاله وصوره.
 ٢. ضمور الوعي الاجتماعي العام في مجتمعاتنا العربية والإسلامية بصور ومفاهيم وحقائق الاستبداد الفكري التاريخي، في الوقت الذي تعتبر تلك الجماهير أنّ الاستبداد السياسي هو بيت الداء، وهو الذي يجب أن تعلّق عليه (تلك الجماهير الغفيرة) كل الكوارث والأخطاء والمصائب التي ابتليت بها دون معرفتها أو إحجامها عن فهم ووعي دور الفكر والقمع المعرفي في ذلك كله.
 ٣. انعدام (أو تلاشي) القدرة على تمييز الاستبداد، والتنبيه لمختلف أشكال حضوره المخفية على الساحة الاجتماعية.
 ٤. فقدان الإرادة السياسية والكتلة الجماهيرية (البشرية النوعية) المؤثرة التي قد لا تهدف بالدرجة الأولى إلى قلب نظام الحكم أو استلام السلطة، بل إلى إصلاح وتغيير أرضية وقواعد العمل السياسي نفسه، وإلى تكوين مناخ وأرضية وقابلية فكرية وسياسية جديدة وكتابة تاريخ سياسي وثقافي جديد تتفتح فيه كل ألوان الحياة والربيع الإنساني، بعد أن تجف فيه كل منابع الاستبداد أفكاراً ورموزاً وشخصاً.
- كل ذلك أدّى - كتشخيص نهائي لأزمنا العربية المقيمة - إلى مسخ هوية الإنسان، ووجوده، وتدمير الأخلاق والفضيلة، وقتل العلم، وخنق الإبداع؛

لأنَّ الاستبداد الفكري الذي يجمع روح الإنسان وينمطه بعادات وتقاليد متكلسة جامدة، يدفعه لكي يلتزم بقيم المجتمع المستبد القائم على النفاق والإمعية والازدواجية والتملق والكذب والتدجيل وادعاء التطهر وما إلى ذلك..

من خلال ذلك نجد أنَّ الضرورة العملية تتطلب البحث المعمق عن أسباب حدوث تلك الأزمات المفوضية إلى حالة الخطام والخراب المجتمعي العربي الراهن.. وهذا ما يقودنا دوماً إلى الوقوف المتأمل والمحلل لمجدداً أمام محنة (الاستبداد السياسي) العربي الذي أثبت بجدارته وكفاءة لا نظير لها قدرته على الثبات في وجه كلِّ التحولات والتغيرات العالمية.

إنَّ هذا التقصي المعرفي عن أسس الاستبداد وعوامل ضعف وانحطاط رموزه ونخبته الحاكمة القابضة على ثلاثية القوة (المعرفة، السلطة، الثروة) في مجتمعاتنا وأوطاننا، يقتضي منا بدايةً العودة إلى فهم معنى الكلمة في معاجم اللغة التي استفاضت في الحديث عن هذا المفهوم الخطير.

فقد جاء في المعجم الوسيط أنَّ الاستبداد لغةً، هو اسم لفعل (استبدَّ) يقوم به فاعل (مستبد)؛ ليتحكم في موضوعه (المستبد)، فلا بد أن يتجسّد الاستبداد في شخص أو فئة، يقال: استبد به، انفرد به.. واستبدَّ: ذهب. واستبد الأمر بفلان: غلبه فلم يقدر على ضبطه، واستبد بأميره: غلب على رأيه، فهو لا يسمع إلا منه^(١).

أما في لسان العرب: استبد فلان بكذا، أي انفرد به، فيقال استبد بالأمر، يستبد به استبداداً إذا انفرد به دون غيره^(٢).

وفي شرح نهج البلاغة: الاستبداد بالشيء، التفرد به^(٣).

وإلى ذلك ذهب الجوهري في الصحاح، حيث قال: استأثر فلان بالشيء استبد به^(٤).

كما أشار الفيروز آبادي إلى المعنى ذاته عندما قال : استأثر بالشيء استبد به، وخص به نفسه^(٥). ص ٣٤١، مادة بدد)..

إذاً الاستبداد هو الاستئثار المطلق بالسلطة والتشبيث العنيف بالحكم .. أي سلب الحكم الصالح من أهله وأصحابه الحقيقيين .. وهو يكون عادة متراً فحاً مع تجاوز شبه كلي للقانون والنظام الذي يرعى الصالح العام في الدولة، وحرمان الناس من ممارسة حقوقهم الطبيعية في القول والتعبير والانتخاب والمشاركة السياسية الفعالة، بعد أن تتم عملية السيطرة الكاملة على مقدرات الآخرين المادية، وتدمير قيمهم المعنوية والإنسانية، وإلغاء شخصياتهم المستقلة والتميزة، وتقزيمهم ومسحهم، ليتم تحويلهم إلى مجرد أتباع أو عبيد لدى الحاكم المستبد، وذلك بفعل القوة المادية القاهرة، والمعنوية المضللة التي تلغي القوانين وتعطل التشريعات، وتجعل من إرادة المتسلطين قانوناً ونظاماً وسبيلاً أوحده يجب أن يعمل به، إذ ليس هناك من حد أو معيار أو ضابط أو رادع ما للطاغية.. فهو يسخر كل شيء لإرادته ورغباته ونزعاته، لا بل إنه يعتبر نفسه القانون الفصل والمعيار الحقيقي، (فهو الدولة والدولة هو).

وقد لاحظنا أن الباحث خلدون النقيب استخدم مصطلح الاستبداد للفرقة بين الحاكم الذي يلتزم بالقانون قولاً وفعلاً، والحاكم الذي يكون قوله وفعله هو القانون. فإذا وجد القانون، ولكن الحاكم يحتكر سلطة تعديل وتغيير القانون فهو إذن حكم مطلق، وإذا قيدت سلطة الحكم بقانون أساسي، فهو حكم دستوري.

وقد يكون الحكم الاستبدادي فردياً أو حكم جماعة، كما أن هنا ك أهمية لتوجيه النظر نحو نوعية (الاستبداد) الذي ينبع من اختراق الدولة للمجتمع، وهيمنتها عليه بصورة كبيرة يجمعها خلدون في عبارة «الاحتكار الفعال لمصادر القوة والسلطة في المجتمع».

كذلك نجد تعريفاً آخر للاستبداد ينقله حسن حنفي في عرضه القيم لفكر عبد الرحمن الكواكبي في (طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد)، وذلك باعتبار «الاستبداد هو الحكم الذي لا توجد بينه وبين الأمة رابطة معينة معلومة مصونة بقانون ناقد الحكم. ولا عبرة فيه بيمين أو عهد أو دين أو تقوى أو حق وشرف أو عدالة ومقتضيات المصلحة العامة».

ولأن الأشياء تعرف بعكسها، فإننا هنا نرى ضرورة الإشارة إلى معنى قيمة (العدل) لاستيضاح الصورة العكسية لمعاني ومرادفات الاستبداد

مفهوم العدل:

ولتأسيس المعنى المراد توضيحه بخصوص قيمة العدل نقول : إن القوانين والتشريعات التي يتم سنّها وكذلك الأشكال التنظيمية، في بلد ما، تعكس أو تعبّر عن تصور السلطة لقيمة ومفهوم العدل.

بناء على ذلك وبوجه عام، فإنّ ه في الأنظمة الحاكمة المستبدة تسير الأمور دوماً من أعلى إلى أسفل. بينما في الأنظمة الديمقراطية تسير الأمور من أسفل إلى أعلى وبالتبادل.

وتبدو أهمية قيمة العدل في الحياة السياسية والاجتماعية إلى حد أنه يبدو طبيعياً أن نعتبرها الشرط الأساسي لوجود (دولة) بتنظيمها السياسي والقانوني والاجتماعي، فإذا غاب العدل فنحن أمام أي شكل اجتماعي آخر غير الدولة . فالنظام السياسي العادل هو الذي يعمل لصالح المجتمع، ويحترم حق وق المواطنة ويقيم (دولة القانون).

ومن المعروف أنّ الاستبداد يستند أساساً - في المعطى الثقافي - على الموروثات والمناخات التقليدية السائدة حتى اللحظة في مجتمعاتنا العربية والإسلامية، كما أنّه يتغذى دائماً من ينابيع الثقافة العربية (القديمة - الحديثة)

القائمة بمجملها - إلا ما رحم ربي - على قاعدة القهر والتغلب والملك العضوض وشتى أنواع ومنابع العصبيات الطائفية..

وقد أثبتت التجربة السي اسية العربية والإسلامية عموماً - منذ حروب الإخوة الأعداء في بواكير الإس لام، وحتى عهود الاستقلال الشكلي - أنَّ مجتمعاتنا وأوطاننا لا تزال مرتتهن ة قسرياً لتنظيمات أخرى داخل المجتمع كالجيش، أو العائلة / العشيرة، أو الحزب، أو الطائفة، أو مركب من بعض هذه التنظيمات أو كلها . ويمكننا أن نلاحظ في المثال والحالة السياسية لكثير من الدول العربية والإسلامية المعاصرة اجتماع كل تلك العناصر تحت قيادة حزب أو فئة أو فرد مستبد واحد، ينبغي تقديسه وتقديم فروض الولاء والطاعة له في كل الأوقات، بما يوحى وكأننا أمام عقلية وصائية بدائية لم يغادر فيها الإنسان لحظة وجوده الأولية على سطح هذه الأرض.

إذاً نحن نقف حقيقةً في مواجهة أزمة مفصلية ومصيرية، رهانُ التخلّص منها وجوديٌّ بامتياز.. إذ هل يعقل - ونحن نعيش في عصور الحداثة والتطور والمعرفة والانفتاح الكامل - أن تبقى الشعوب العربية والإسلامية - دون باقي شعوب العالم - عرضة على مدار تاريخها السياسي الحديث لأزمة وجود الأنظمة الشمولية التي وصلت إلى السلطة بقوة العنف والعاري، وزخم الدعم الخارجي، وتسلمت على رقاب العباد والبلاد، وحافظت على طغيانها الشامل بالسيف والعسف والقمع والاستبداد.. الأمر الذي جعل هذه الشعوب تفضل الركون والسلامة والرضى السلبي بواقع الحال، والتزام أقصى حدود الانضباط الإكراهي القسري في مواجهة جحافل قوى الأمر الوا قع اليومي من أمن وجيوش وغيرها.

من هنا وفي مواجهة ما يحدث من تراجعاً ت كبرى على مستوى معالجة الأزمات المتلاحقة المتصلة بملفات منطقتنا العربية والناجمة أساساً عن العجز

والفشل الكامل في إصلاح طبيعة النظم التسلطية الأمنية والبيروقراطية المهيمنة، يمكن أن نعتبر أنَّ حالة شبه الصرمت العربي من المحيط إلى الخليج على كلِّ تلك الهزائم والمآسي السياسية والاجتماعية المتزايدة والمتوالية بانتظام، ما هو إلا نتيجة (طبيعية ومنطقية؟!) لكلِّ تلك الأعمال الشنيعة الظالملة التي ارتكبت ولا تزال ترتكب يومياً بحقه، ولذلك ينبغي علينا ألاَّ نتوقع من مواطن جائع خائف محبط مستضعف، عاطل عن العمل، وفاقد للأمل، أن يخرج معارضاً أو مناصراً لقضية معينة ؛ إذ أنَّ لديه ما يكفيه من الهموم والمخاوف والأزمات والابتلاءات والضعغوطات اليومية على الصعيد المعيشي والشخصي والاجتماعي، وحين يفرغ منها قد يفكر بالشأن العام الذي تتوزع الاهتمامات حوله بين قوى الأمر الواقع الداخلي (النظم المستبدة)، وقوى الأمر الواقع الخارجي (القوى الدولية الكبرى) التي لا تزال تعتبر بلادنا المتميزة بطاقتها وثرواتها هدفاً لمعظم سياساتها واستراتيجياتها ومصالحها.

وللوصول إلى الأساليب التي يملئ من خلالها تعرية وكشف أسس وركائز الاستبداد العربي القائم، لا بدَّ من معرفة عوامل بقاءه ومظاهر استمراره التي يتم اللجوء إليها بهدف إعادة إنتاجها في مجتمعاتنا. وهذه العوامل هي:

(١) بقاء ثقافة الطاعة العمياء والاستعباد المنمَّط، مهيمنة على عقول مجتمعاتنا وسلوكيات الناس في بلداننا العربية والإسلامية، مع أنَّ الدين في أساسه هو حالة فكرية ثورية متحررة من كل قيد أو صنم، وهو دعوة إلى الثورة على الذات والتحرر والحرية والاستقلال وعدم التبعية الفكرية أو السياسية لهذا التيار أو ذاك الشخص والحزب .. والقرآن الكريم - دسوق المسلمين - حافل بأحاديث وآيات الحرية والتحرر وعدم اتباع سنة وتقاليد الآباء والأجداد وثقافات الأولين .. وبالتالي فقاعدة الاستبداد مركوزة هنا في القلب والوعي قبل السلوك، والضعغوطات الخارجية على الذات الإنسانية من هذا النظام أو ذاك

الحاكم، وأساس الانتصار على الاستبداد يبدأ وينطلق هنا من انتصار المرء والفرد على ذاته بتفجير وإلغاء ونفي أصل فكرة الاستبداد والتعصب في وعيه الذاتي الداخلي قبل الموضوعي الخارجي.

٢) عدم قناعة النخب الحاكمة في مجتمعاتنا أصلاً بفكرة التغيير السلمي، والانتقال الهادئ نحو عهود الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان وإعطاء الناس حقوقها وكراماتها . وأنّ الأصل في الدولة أن تكون محايدة ومستقلة كرابطة مدنية تحترم استقلالية الفرد الحر المتساوي القادر على تسيير أموره، وتحديد أهدافه العليا . وأنّ الحكومات يجب أن تخضع للمراقبة والمساءلة، وأنّ الحكام بدورهم يجب أن يخضعوا للقانون والمحاسبة المستمرة، وأنّ الأمة هي مصدر السلطات (وهي ولية على نفسها)، وليس الفرد الحاكم بمزاجه وجشعه وتكالبه على الكرسي والسلطة والثروة . حيث نراه يتخذ (كحاكم مستبد وسلطان مطلق الصلاحيات) كلّ الوسائل الممكنة وحتى غير المتصورة للبقاء في الحكم ومواجهة أيّ أفكار أو ممارسات غير طبيعية يمكن أن يشتم منها رائحة انفتاح ديمقراطي لأنه يهدد (بإنهاء سلطانه الاستبدادي)، حتى لو كان ذلك سيؤدى إلى انهيار الدولة ورمي المجتمع في أتون صراعات وحروب أهلية مدمرة لا تبقي ولا تذر، فهو كحاكم أصل ، والباقي كله - على ضخامته وعظمته - مجرد فرع.

٣) قيام النخب والنظم السلطوية الحاكمة - بقطع النظر عن مسمياتها قومية أو دينية أو غيرها - بالعمل على تفتيت وإذابة ما تبقى من علاقات ووشائج اجتماعية إيجابية قائمة بين الناس، كالعلاقات الأسرية، وعلاقات التآلف والتعاقد والتعاون والتكافل الاجتماعي التي قدمتها الأديان للإنسان، وحضته على تعزيزها وترسيخها في مختلف أنظمة سلوكه الفردي والاجتماعي وهذا التفتيت تمّ - ولا يزال يتم ويتحرك - إمّا عن طريق شراء الولاء ، أو

استخدام العنف والقمع العاري الذي يتجسد ويتمثل في هذا النمو السرطاني لأجهزة الحماية (الأمن)، والتي تحولت وظيفتها من واجب حماية الإنسان والأوطان والحدود، إلى حماية من هم في سدة الحكم من النخب ومراكز القوى السلطوية القهرية، حتى لو أدى الأمر إلى (ترويع المجتمع) وإذابته وتغيير أسس عيشه الطبيعية القائمة على الحرية والمسؤولية والأخلاق والفضائل الإنسانية الحميدة. أي أنه أصبحت مؤسستا الجيش والشرطة من أهم دعائم نسق الحكم الفاسد المستبد. وكما قال أحدهم: إنَّ صورة دولة المخابرات هي حالة عربية شائعة، وهي تجسد حالة (مخلوق ضخمة) يقوم على القوة والعنف والاستبداد، ويستمد أسباب استمراره من الخوف وليس من الشرعية.

أمّ الفرد عندنا - وهو أساس نشوء وبناء وتطور الوطن - فيظهر مطموس الشخصية، ضامر الضمير، مفتقراً لوعي ذاتي واضح ونوعي ومباشر، أو إرادة مستقلة حية، إذ تراه ميالاً إلى تفضيل الاستسلام والخنوع والرضى السلبي بحياته على مغامرة التمرد والاستقلال. وأمّ الجماعة عندنا فقد أعادوها إلى معناها القديم القائم على العصبية والقرابة الروحية أو العقيدية أو الدموية، أي أنها أضحت بعيدة جداً عن أن تتحول إلى جماعة مدنية حرة، متوحدة من حول خيارات إرادية طوعية كما أرادت كل الأديان الرسالية الإنسانية.

والمشكلة هنا تكمن على الصعيد الفكري الثقافي، وتتوسع في المستوى السياسي، وهي تتمثل في أنَّ المنظومات الاجتماعية الصغرى المنتمة لمرحلة ما قبل الدولة لا تستطيع القيام بدور سياسي وطني، بل إنَّ السماح بإقحامها في كل ما يتعلق بالحياة السياسية يحولها - بالضرورة - إلى وسيلة فصل لأعضائها عن بقية مواطنيهم. ومن المؤسف أنَّ هذا ما يحصل في أكثر من دولة عربية كما رأينا في حالة العراق أخيراً.

(٤) عدم وجود إعلام حر مستقل إلا فيما ندر في داخل بلدنا، مع طغيان

وجود إعلام رسمي - وحالياً غير رسمي إذ أصبحت كثير من وسائل إعلامنا العربية حتى الخاصة منها مرتبطة بهذه الجهة أو تلك - موالٍ هو جزء من جهاز سلطوي أعم وأشمل يعضده ويسانده، وهو في حقيقته ابن السلطة وربيبها، وأداة رئيسية للتعبيث، والشحن العاطفي من خلال آليات تزيف الوعي وإفساده إن أمكن. فالقضايا التي يتم طرحها تكون بما يتفق وتوجهات الحكم والنخبة والحكومة، والقضايا التي يتم حجبها، وتجاهلها تكون مما لا يحسن فتح ملفاتها (توخياً للمصالح العام؟!)، وهي مقولة تعني حصراً الحفاظ على الولاء والمصالح الخاصة لعلية القوم.

(٥) إلغاء الأحزاب الحرة، أو على الأقل السماح لها تنظيمياً والتضييق عليها عَملياً، مع باقي مؤسسات وبنى المجتمع الأهلي والمدني (وأحياناً إلغائها بالكامل) التي يفترض أن تكون شبه مستقلة عن الدولة. والعمل على استبدالها بعلاقات مصلحة انتهازية لا يمكن أن تقود إلا إلى تعميق النزاع الفردية الأنانية على حساب مصلحة الجماعة والمجتمع.. أي هدم ركائز الأخلاق والقيم السامية العليا التي تحرك القيادات وباقي أفراد المجتمع، وتؤهلهم للتضحية في سبيل فكرة ما وطنية أو قومية أو إنسانية من حرية و مساواة وعدالة اجتماعية، وتدفعهم للتنافس الشريف في الفضيلة وخدمة الصالح العام.

(٦) تميع وتغييب (أو إلغاء) القوانين والمؤسسات السياسية والاقتصادية كلها، وتبديلها عملياً بقانون واحد هو قانون الطوارئ (أو أي قانون آخر يحل محله روحاً ويختلف عنه شكلاً) الذي يقوم على قاعدة أنه (يجب أن يفسد من لم يفسد بعد ليكون الجميع مداناً تحت الطلب)، وبخاصة إفساد الجهاز القضائي والتعليمي التربوي.

(٧) إنَّ نظام الاستبداد ينب من نفسه وصياً على مصالح الناس والأوطان، ويقدم لهم نموذجاً الفريد في الوطنية وخدمة المجتمع وهذا النموذج هو الولاء

الأعمى والطاعة الكاملة للحاكم الفرد، بحيث يتمكن دائماً من سحق وتفتيت بذور الحرية والتعددية السياسية، بدعوى أنها تهدد أمن المجتمع وتضعفه في مواجهة قوى الخارج التي تريد نهب أوطاننا وغزو بلداننا وانتهاك كراماتنا ومقدساتنا.. والمؤلم أن نخب وسلطات الاستبداد العربي - في نظرتها تلك إلى مفهوم الوطنية - لم تألوا جهداً في قتل المواطن والوطن، وبناء السجون والمعتقلات وسحق المعارضين، واستغلال موارد البلدان في طريق وطنيتها الفريدة (نهب منظم، لصوصية حضارية، تهريب الثروات للخارج، التنازل عن الأراضي... الخ)، ولم يتواكف أمام شعوبها وشعوب العالم سوى المحن، ولم تنتج سوى الأزمات، مما قاد إلى ما نحن عليه اليوم من انسداد كل أفق ممكن لإيجاد حلول ومعالجات ناجعة للأزمات المتوالدة باستمرار في أوساط مجتمعاتنا العربية والإسلامية..

هذا ولا تزال نظمنا الحاكمة بعيدة كل البعد في فكرها وسلوكها عن المعنى الحقيقي لفكرة الوطن والمواطن والمواطنة، والمتمثلة في الاشتغال على بناء الحكم المدني الصالح من خلال وجود المواطن السليم المعافي القادر على العمل والإنتاج واستخدام طاقاته النفسية والمعنوية في بناء وطنه الحر وإنشاء المؤسسات المدنية الفاعلة، وربط المواطنة الحقيقية للفرد بحقوق وواجبات ومصالح ومسؤوليات والتزامات تخص الجميع بما فيها النخب الحاكمة. وبمعنى آخر تتأسس الوطنية الحقيقية على بنية مجتمعية مدنية تعاقدية يترتب عليها مجموعة منظومات حقوقية وثقافية ومؤسسية ديمقراطية وتمثيلية قادرة على الانتقال بالأمة من مجرد سديم بشري هائم وغائم وعائم إلى مستوى كتلة تاريخية منسجمة مندمجة وموحدة الرؤية في وعيها لذاتها ودورها الحضاري الرائد المناط بها حاضراً ومستقبلاً.

وقد أفضت كل تلك الأسباب مجتمعة إلى جعل إنساننا العربي المعاصر -

طبعاً بعد مرور عقود طويلة صعبة ومريرة من السيطرة والهيمنة والسحق والإلغاء المتواصل - إنساناً مشلول التفكير والإرادة، وعاجزاً عن الحركة الذاتية بأي اتجاه.. كما أنه لا غرابة في ظل تلك الأجواء التناقضية المتوترة على الدوام أن يعيش الإنسان العربي مغرباً ومغترباً عن ذاته، مستباحاً ومعرضاً لمختلف المخاطر. فهو على الهامش تشغله لقمة العيش، لا يجد مخرجاً سوى الخضوع أو الامتثال القسري، يجتر هزائمه الخاصة والعامة وهو مغلوب على أمره، عاجز عن التغيير أو تحدي قوى الاستبداد..

إذ أنه - كما نراه حالياً - يعاني من الأمراض والتشوهات الاجتماعية والنفسية بشكل يجعله غير قادر على التفكير المنطقي السليم، والحركة العقلانية النوعية الهادفة والخالية من الشطط.. وبالفحجة فقد أصبحنا أمام إنسان مقصي مهمش، وغير متفاهم مع ذاته ومحيطه، الأمر الذي انعكس تناقضاً واضحاً في سلوكه اليومي، وفي وعيه لحياته وطريقة تعامله مع همومه الخاصة والعامة. وقد رأينا كيف أن المواطن العربي أو الفرد العربي المسلم كثيراً ما يتصرف بشكل مضاد لمصالحه ومصالح وطنه وأمته، وهو يفعل هذا بدافع شحنة التشوهات والمتناقضات والعاهات النفسية والاجتماعية التي يعاني منها، والقصور الذاتي الذي هو واقع فيه نتيجة سيطرة مفاهيم وثقافة الاستبداد على حركته الوجودية ككل، كالضبط والردع والأمر والنهي ووالخ...

من هنا يأتي تأكيدنا على ضرورة إحداث التغيير الثقافي الفكري المعرفي قبل السياسي؛ لأنّ تغير الطبائع والنفوس، أساس لتغيير الواقع الخارجي، أي ضرورة تغيير الواقع الثقافي والمعرفي السائد حيث إنّ جذر العطالة وعلة الأزمة كامنة هنا.. لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وفاقد الإرادة والحيوية والتضحية - وكل قيم الفاعلية والحركة والنشاط والاندفاع العقلاني باتجاه العمل المنتج والمبدع - لا يمكن أن ينطلق مبدعاً ومنتجاً في أي موقع أو مجال من المجالات، بل يبقى

في موقع المتلقي والمتأثر والمستهلك لمنجزات وإبداعات الآخرين .. ومجتمعاتنا العربية حاليًا تقدّم لنا أفضل مثال ونموذج حي على ذلك الارتكاس الحضاري والتقهقر المعرفي الإبداعي بالرغم من بعض النقا ط المضيئة هنا وهناك، وهي على كلّ بسيطة وقليلة لا تشكل حالة فريدة مت مميزة يمكن الاعتماد عليها .. حيث إنّها حضارة لا تنتج شيئاً على الإطلاق تقريباً، وتست هلك كلّ شيء مما ينتجه ويصنعه الآخرون .. حتى سياساتها الداخلية المحلية، لا يرسمها أو يخططها قادة وزعماء تلك الدول إلا بما يتناسب مع مصالح الدول والقوى الكبرى .. إنها مجرد مجتمعات خاملة مستهلكة تعب لا تقدم شيئاً للحضارة ولا لنفسها، يتحكم فيها مجموعة حكام يفكرون بعقليات بدائية، ويحكمون بلدانهم من زمن بعيد على أسس عشائرية عائلية عاطفية هوجاء، بعيدة كل البعد عن أي منطق أو مبرر عقلي صحيح، سوى تكريس مكاسبهم ومصالحهم، والبقاء الدائم في الحكم واستمرار الوجود على رأس النظام والدولة.

وبالنتيجة نؤكد أنّ الاستبداد والتسلط (القهر القائم على العنف العاري) - وهو ركن الحكم العربي على وجه العموم بمختلف ألوانه وأ أشكاله - هو شيء أعمى يسير عكس حركة التاريخ والحضارة والحياة الإنسانية الطبيعية .. وهو قانون قسري ظالم، والقسر استثناء لا يدوم ؛ لأنّه يقف على طرفي نقيض من فطرة الإنسان، ومن حريته، ومن قدرته على تحقيق الاختيار السليم، بل إنه يشل طاقة التفكير واستخدام العقل والفطرة الصافية عند الإنسان، ويرهن مصائره للمجهول، ويجعله أسيراً بيد الجهل والتخلف .. وهنا تقع الكارثة الكبرى عندما يفقد هذا الإنسان حريته .. لأنه يفقد معها كل شيء جميل في الحياة .. إنه يفقد العزة والكرامة والأخلاق والعلم، وبالتالي يكون مصيره الموت المحتّم أو العيش على هامش الحياة والوجود كأبي كائن آخر، وقديماً قالوا إنّ الإنسان حيوان سياسي. أي: أنه يختلف عن الحيوان في عقله الذي أكرمه الله تعالى به بما

يجعله قادراً على التخطيط والتفكير وتنظيم حياته وحاضره ومستقبله، وعندما يفقد هذا الإنسان حريته ومشاركته في تدبير سياساته وشؤونه المختلفة يصبح مجرد حيوان يأكل ويشرب وينكح، هذا إن استطاع إلى ذلك سبيلاً. وهنا نطرح سؤالنا الدائم:

هل من حلٍّ أو علاجٍ لهذا المرض المستشري، وهو مرض الاستبداد واحتكار السلطة الذي يعد هو نفسه ال سبب الرئيسي في عرقلة وتعثّر نمو (الدولة) في الواقع العربي؛ لأنّ حرّمها (ويحرّمها) حيوية التجدد، ويمنع عنها أسباب التطور والنمو والارتقاء إلى مراحل أعلى؟!!

في الواقع لا يوجد لدى أحد - فرداً كان أم حزباً أم دولة - أي حل سحري لأزمة الاستبداد الشاملة التي تلف بظلالها السوداء الفضاء الأوسع من عالم الإسلام والمسلمين حالياً حتى بعد نجاح ثورات ما يسمّى بالربيع العربي.. ولا شك بأن للثقافة النقدية وللمثقف النقدي العضوي أهمية قصوى في تسليط الضوء على مكامن الخراب والدمار التي أنتجتها استراتيجيات الاستبداد في عالمنا العربي، في محاولةٍ منها لتقديم رؤية حقيقية عن الأوضاع المتخلّفة السائدة عندنا مرتبطةً بتصور (سيا - ثقافي) ما للخروج من الأزمة المقيمة.

كما أنّ للتربية العائلية والاجتماعية دوراً أساسياً في بناء الإنسان الحر السليم في بنيتها الفكرية والسلوكية.. ولكن عمق الأزمة وضخامة سلباتها، وأسس معالجتها لا ينطلق فقط من العائلة والثقافة والفرد والمجتمع ومؤسسات الدولة في عملية تثقيف وتربية ونهضة متوازنة، وإنما أيضاً من خلال وجود نخبة سياسية عقلانية واعية تقود عمل وجهد كل أفراد المجتمع والأمة، بحيث تتوقف على نوعية وأخلاقية وعدالة وتوازن تلك النخب (وطبيعة معرفتها وخبرتها بواقع مجتمعاتها والبيئة الإقليمية والدولية التي تعمل فيها، وتقدمها في تطوير الصيغ وقواعد العمل التي تساعد على حل النزاعات المحتملة أو القائمة

فيما بينها للحفاظ على أكبر قدر من التعاون والتفاهم (مستقبل الأمة وقيمة وجودها الحضاري وتطورها الدائم وحضورها الفاعل بين الأمم والشعوب الأخرى، وذلك على مستوى نجاح تلك النخب القيادية في استثمار موارد البلاد وقدراتها الهائلة مادياً وبشرياً، والارتقاء بمستوى تنظيم المجتمع والناس، والسهر على تنظيم شؤونهم وأحوالهم المختلفة، وتحقيق التراكم والتقدم في أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية.

كما أننا يجب ألا نغض النظر عن وجود رابط بين قوى الاستبداد الداخلي وقوى التحكم والهيمنة الخارجية التي تعمل على الدوام - وفق قاعدة المصالح والمنافع التي هي أساس العلاقات الدولية في كل مكان وزمان - على تمكين وجودها ورعاية مصالحها بقطع النظر عن طبيعة النخب والحكومات القائمة في مجتمعاتنا .. ولكن بالرغم من وجود مثل تلك التدخلات الخارجية والمخططات الكبرى التي تهيكلها مختلف القوى والدول للحفاظ على وجودها ومصالحها في منطقتنا العربية، فلم يعد عامل التدخل الخارجي كافياً لتفسير رعايتنا وقابليتنا للفكرة الاستبدادية ذاتها ومن ثم خضوعنا لها، حتى لو كانت مسؤولية الدول الغربية رئيسية فيما نحن فيه من مآسٍ ونكبات متوالدة باستمرار، وما نواجهه من تحديات ومخاطر مصيرية. وباعتقادي أن نعمة توجيه الاتهامات الجاهزة للآخرين، وحتى وجود استسهال كبير لدى القوى الأجنبية في التدخل في العالم العربي، وعدم قدرة مجتمعاته على وضع حد له يحتاجان هما نفساهما إلى تفسير، يصعب من دونه الخروج من حلقة المحاكمة المفرغة التي تضعنا أمام منطق البيضة والدجاجة.

من هنا - وطالما أن المحن والمصائب لا تزال تتدافع وتتوارد علينا من هنا وهناك (تدافع الأكلة على القصعة)، وقد عجز الجميع عن مواجهتها بأضعف الإيمان - فإن الواجب يقتضي منا أن نجعل منها وسيلة فعالة لتعرية

الاستراتيجيات الحقيقية والمصالح المتبادلة لكل من الاستبداد الداخلي والاستعمار الخارجي؛ حيث إن:

- كل دعوة وطنية مفصولة عن الحرية خداع.
- وكل دعوة للتعددية السياسية الحقيقية مفصولة عن التضامن الإنساني بين الجماعات والبشر لئلا يذهب قراح..
- فلا وطنية من دون مواطنين أحرار، ولا ديمقراطية (وتعددية حقيقية مضمونة) من دون علاقات دولية متكافئة.

وبالنظر إلى ذلك يمكننا أن نقرر هنا بأن المستقبل الثقافي والسياسي للعرب والمسلمين في هذا العصر (بما فيه مستقبل الصراع الوجودي مع العدو) سيتحدد من خلال طبيعة الشروط النفسية والعملية التي ستمتع بها الكتلة الشعبية الحيوية المغيرة في داخل عالمنا العربي والإسلامي، وبخاصة ما يتعلق منها بالإرادة المستقبلية الحركية لشعوب هذه المنطقة القادرة على مواجهة عوامل تخلفها الداخلية أولاً التي أنتجت مناخات الاستبداد المقيت.. حيث إنَّ من المعروف للجميع أن الاستبداد لا يسود في أي مجتمع إلا في حالة تخلف البنى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحقوقية لهذا المجتمع (التي تعتبر أساس استعداد الناس لتقبل واقع الاستبداد، واتخاذ موقف سلبي من مقاومته) والتي تتمظهر من خلال ما يلي:

١. سيادة العلاقات والأنماط السلوكية الأهلية شبه البدائية بين الناس (كالعلاقات القرابية القبلية والعشائرية والطائفية التي حاربتها بقوة الأديان السماوية ومنها ديننا الإسلامي الحنيف)، مما يؤثر سلباً على طبيعة العلاقة السليمة والتعامل العقلاني الذي ينبغي أن ينشأ عنده عن فكرة الدولة. وهذا يعود إلى وجود نوع من التناقض الذهني بين الدولة الواقعية والمتخيلة كما يصورها الأب والإمام في المسجد مثلاً وبين الدولة كما هي في حقيقتها الواقعة

التي يتعامل مع مختلف مفرداتها اليومية هنا وهناك . ويتأثر هذا التصوير بالمؤلفات الشرعية التي تتخيل دولة نموذجية يصفها الدكتور العروي بـ(الطوباويات الإسلامية). وهو يعرف هذه الطوباوية بتخيّل نظام أفضل خارج الدولة القائمة^(٦).

٢. قابلية الناس عندنا - للأسف حتى الآن - للخضوع لإرادة النخب والقادة والزعماء الكاريزمية من مختلف الاتجاهات والتيارات . والقابلية الاجتماعية للاستبداد (structural limitations) هي استعارة من المفكر الواحل مالك بن نبي الذي طرح فكرة (القابلية للاستعمار) كأداة لتفسير تغلغل الاستعمار في البلدان الإسلامية؛ حيث إنّ كلّ نظام اجتماعي (بما هو منظومات قيم، وتوازنات، ونمط إنتاج) يسمح بخيارات محددة ويمنع أخرى . هذه المفاضلة وتحليلاتها الواقعية ليس قراراً واعياً ونهائياً، بل هي محصلة موضوعية للتفاعل بين مجموع العناصر التي تشارك في تكوين الحياة الاجتماعية إضافة إلى تأثير العوامل الخارجية . القابلية للاستبداد ضمن هذا المنظور ليس ردة فعل مؤقتة على أزمة اقتصادية أو سياسية خانقة كما تطرحه نظرية الزعامة الكاريزمية مثلاً، بل نمط ثقافي - اجتماعي يتمتع باستمرارية وعلاقة تفاعلية مع مجموع العناصر المكونة لظروف المعيشة في مجتمع محدد. والثقافة السياسية لمجتمع ما - حسب وصف اللموند - هي بمثابة خريطة ذهنية تحدد صورة الفرد كفاعل سياسي مقارنة بغيره من الفاعلين، كما تحدد صور العلاقة بينها ونوعية الأفعال وردود الأفعال المتوقعة من جانبهم.

٣. غياب مفهوم الحق المرتبط بالواجب، والحرية المرتبطة بالاختيار والمسؤولية الواعية . وهذا ما يفضي لاحقاً إلى انهيار شبه كلي لمفهوم الدولة والمسؤوليات الكبرى المناطة بالفرد والمجتمع والنخبة الحاكمة في بناء وتطوير مجتمعاتها ومؤسساتها . أي أننا نصبح - نتيجة ضياع معايير الحق والواجب

ووجود القيادات والنخب الفاسدة الم ستبدة - أمام حالة إفلاس مشروع بناء الأمم، وفي مقدمها مسؤولية بناء الدولة نفسها التي ترعى مصالح مواطنيها وتسهر على أمنهم وسلامتهم وحرياتهم وحقوقهم. وهذا الإفلاس لا يعني شيئاً آخر سوى العجز عن تحقيق الأهداف التي لا وجود للتآلف والتعاون الوطني الداخلي من دونها، وخسارة الرهانات التي تملئ البلاد من لعب دورها السليم في إقليمها (الجغرافي - السياسي).

٤. سيطرة نموذج الدولة الريعية الاجتماعية على كافة سلوكيات وأنماط حركة المجتمع العربي والمسلم الذي يقوم على وجود وهيمنة بنية مجتمعية وسياسية إنتاجية (تجارية - زراعية) متمركزة حول النواة العائلية الأولى، يرافقها نظام ريعي في البلدان المنتجة للنفط كما يؤكد د حليم بركات . وفي ظل هذه الريعية تكون العلاقة بين الدولة والمجتمع هي علاقة من طرف واحد، فالدولة الريعية القائمة هي التي تعطي كل شيء، (إنها كالأم الحنون ؟!) وتوفو كل شيء، وبالتالي فإن خط العلاقة بين المواطن والدولة يتحدّد ويتمحور فقط حول مقدار ما يحصل عليه من مال أو خدمات توفو مالا، ولم تعد الحقوق السياسية موضوعاً للنقاش أو المطالبة . وفي ظل هذا النموذج أيضاً تتحوّل الثروة إلى وسيلة لتثبيت النموذج السياسي الخاص للمجموعة الحاكمة التي تستعيز عن القمع المباشر والعنيف بشراء الولاء.

٥. فشل مشروعات التنمية وتعثو تحديث الدولة العربية، وتفاقم المشكلة الاقتصادية وإخفاق خطط الخصخصة وإعادة التكيف، وتواضع نتائجها، واقتران التحول إلى الانفتاح واقتصاد السوق بظواهر مرضية منها : الرشوة والمحسوبية والاختلاس، وإهدار الأموال العامة، حيث ظهر للعلن أن كل ما قامت به معظم نخب الحكم العربي من مشاريع وأعمال اقتصادية أدّى إلى خلق طبقة اجتماعية طفيلية غنية ومترفة (قديمة - جديدة) تمكّ مجموعة إقطاعيات

ومراكز نفوذ موزعة بين الأقرباء والحاشية والزبائن الذين يستعملهم الحاكم في استراتيجية عامة هدفها المحافظة على السلطة ومراكمة الثروات والامتيازات المرتبطة بها. ولا نعتقد أن تلك المشاكل الأساسية ستُحلّ بسحر ساحر بعد تغيير تلك النظم كما حدث في تونس ومصر وليبيا واليمن وغيرها لاحقاً .. فالعطالة أعمق من تغيير شكل النظام وبقاء مضمونه مسيطراً ومهيمناً.

وكتيجة للفشل الذريع في تطوير وتحديث الدولة (حيث استبداد حكامها وجشعهم وانحطاط تكويناتهم الأخلاقية السلوكية هو علّة ذلك حتماً وبالدرجة الأولى)، فقد هيمن الفقر وانتشر التخلف في مجتمعاتنا. والرابط هنا بين الفقر والاستبداد (موضوع حديثنا) أن الفقر يعني التهميش والحرمان من التمثيل السياسي الصحيح وعدم القدرة على تفويض الآخرين للتعبير عن المصالح، وبوجه عام الخروج من دائرة النظام السياسي.

وليس من قبيل المبالغة القول بأنّ جماعات الفقراء المتزايدين في المجتمعات العربية تعيش مغرّية الوعي، ضائعة الآمال، تقوم أو تنخرط في أنشطة تقليدية وهامشية خارج نطاق العمل الاجتماعي المنتج والمؤثر.

وهؤلاء يفرض عليهم نوع من التسلط و (الحجر) عن المشاركة السياسية نتيجة تركيز واستئثار السلطة بالثروة. وهنا تنمو اتجاهات السلبية واللامبالاة لدى المواطنين تجاه الشأن العام مما يضطرهم إلى قبول أوضاع شاذة غير متكافئة، يخضعون فيها للقوة المسيطرة حتى مع الحرمان من حقوقهم ومكتسباتهم الأساسية. وهذا الخلل في معادلة التنافس والصراع المجتمعي وهيكل القوة القائمة بين مختلف مواقع المجتمع، تكون من أهم نتائجها أن يظل الفقراء مهمشين صامتين لا يشاركون في أي استراتيجية تنموية. وطالما ظل المهمشون منفعلين ومفعولاً بهم في تلك المعادلة المختلفة لصالح طرف السلطة، فلن يجدي كثيراً الحديث عن التمكين أو الأحقية أو المشاركة أو الفاعلية.

٦. غياب الإجماع الوطني، أي منظومة القيم والمعايير المتفق عليها من قبل الجميع كقاعدة للعلاقة بين المواطنين من جهة وبينهم وبين الدولة من جهة أخرى. وغياب هذا الإجماع هو مظهر لغياب الهوية الوطنية الجامعة.
٧. طغيان سلوكيات خاطئة عن كثير من المفاهيم الدينية مثل التوكل والانتظار والقناعة والرضى، وو.. الخ، يلجأ إليها الناس لرفع الظلم والتسلط الواقع عليهم، عندما تشتد مظالم المستبدين والطغاة، بدلاً من الفهم الصحيح للقول المأثور «اعقلها وتوكل» أو الفهم الصحيح لدلول الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقْوَمُ حَتَّى يَغْيُرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، أي: الاعتماد الفاعل على الله تعالى، المتجسّد من خلال قيام الإنسان بالحركة والعمل الأساسي الأولي، وهو فعل وحركة مقاومة الاستبداد نفسه.
- وبالمحصلة نقول إنّ النتيجة الرهائية الطبيعية التي سيفضي إليها الاستبداد المزمن وإعادة إنتاجه هي وجود مجتمعات عربية تعاني الركود والأزمات الاقتصادية والاجتماعية المستمرة، وتعميق التفاوت الخطير في توزيع الثروة الوطنية، وتوسيع الفجوة بين الأغنياء والفقراء، وتنامي الفقر، ومزيد من تهميش الجاهل (المستبعد أصلاً عن دائرة المشاركة والقرار) التي تفقد تدريجياً ويوماً بعد يوم حسّ ها الوطني والسياسي. وفي إطار ذلك كلّ ه، فإنّ السمة الوحيدة الباقية للمجتمع العربي الإسلامي القابع في حزن وحس الاستبداد وغول الدولة السلطوية هي أنّ ه مجتمع يفقد تدريجياً السيطرة على شروط بقائه واستقراره في الحاضر والمستقبل. مع أنّ الماء الراكد العفن المليء بالطحالب والأشنيات منذ زمن في تلك المستنقعات بدأ بالتحرك السريع..
- ولكننا بالمقابل نعتقد أنّ ه إذا ما استطاعت تلك الكتلة الشعبية الحيوية أن تخوض معركة التحرير في الداخل (وقف بدأتها مؤخراً على مستوى الجمهور العام والطاقت الشبابية العاطلة عن العمل) على مستوى إنتاج سلطة

ديمقراطية شرعية (طوعاً لا كرهاً، وانتخاباً لا فرضاً) قادرة على امتلاك زمام ذاتها، والتصرف بحرية واختيار دون وجود موانع قمع واستبداد، بالاستناد على آلية العمل التعددي السياسي، والاعتراف بالآخر، ومن ثم العمل على بناء علاقات عربية وإسلامية تكاملية في كل المجالات، فإن الأمة عند ذلك ستكون قد وضعت نفسها على بداية الطريق الصحيح المؤدي إلى أن تتحرك بإرادتها هي على طريق النهوض والشهود الحضاري من خلال ما تمتلكه من قوى وإمكانات منظورة وغير منظورة.. مع أن الطريق طويل وصعب..

ونعود هنا مجدداً للتأكيد على أن امتلاك الأمة لقوى وقدرات كامنة في داخلها تؤهلها للعب أدوار حضارية وإنسانية قوية متعددة في عالم اليوم والغد (دور الأمة الوسط الشاهدة على نفسها وعلى غيرها من الأمم والحضارات) هو أمر غير كاف على الإطلاق، حيث إن كل الأمم تمتلك قوى كامنة غير منظورة في داخل جسمها الحضاري، بل إنه يحتاج إلى إعادة بناء ومن ثم تفعيل وتنشيط عمل ودور الكتلة البشرية النوعية والحيوية الجديدة التي ذكرناها آنفاً .. وهي كتلة تستطيع تحويل القوى الكامنة الهائلة التي تمتلكها الأمة (والتي بدأت تحبو شيئاً فشيئاً نتيجة لسوء استخدامها وإدارتها من قبل النخب الحاكمة المستبدة) إلى قوة حقيقية على أرض الواقع .. وهذا هو برأيي سر وجود وقوة وامتداد أية حضارة على وجه الأرض منذ فجر الخليقة وحتى نهاية الوجود .. وأنا أرى أن أضرب هنا مثلاً بسيطاً على المستوى السياسي النظري، وهو أن الأمة التي تريد أن تكون فاعلة ومؤثرة في العالم المعاصر لا بد أن تكون بحوزتها أوراق رابحة دوماً تستثمرها أثناء حدوث الأزمات ووقوع التحولات الخطيرة التي قد تمر بها (وهي أوراق كثيرة ولا شك على صعيدنا العربي والإسلامي) .. هذه الأوراق هي التمثيلات الواقعية والأدوات العملية لتلك القوى الكامنة التي يجب تحريكها هنا وهناك لدرء المخاطر، ومواجهة التحديات بعقلها دى،

ورؤية واضحة، وشفافية كاملة بين قوى الكتلة ذاتها.

وإنّ الإقامة على أي صورةٍ من صور الانحراف عن هـ ذا السبيل لاستنهاض الأمة (بحيث تخرج بهذا الانحراف عن العرضية العابرة إلى الوصف اللازم المستقر)، فإنّ احتمال تعرضنا جميعاً إلى خطر الاستبدال سيصبح كبيراً، كما هو واضح في نصوص القرآن الكريم:

- ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ مُّحِبُّهُمْ وَ مُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

- ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

وهي نصوص صريح، تتحدث بلغة التهديد والوعيد وإنزال غضب الله عن سنة (الاستبدال التاريخي) التي يمكن أن تطال كلّ متكاسل أو متقاعس عن نصرة الحق والخير والعدل.

والوقت - كما نعلم جميعاً - يمضي مسرعاً، ولا يرحم ولا ينتظر أحداً، وهو ليس في م صلحة القا عدين والمتقاعسين والمنهمكين في حركات وهلوسات داخلية هنا وهناك تشتت القوى وتبعثر الطاقات وتبدها عن الهدف الكبير .. وحتى الآن ليس معلوماً متى سينطلق العرب والمسلمون بجدية شاملة نحو الإصلاح الكلي الشامل المرتكز على مشروع نهضوي حقيقي قبل فوات الأوان، وقبل أن يواجهوا أوضاعاً أكثر سوءاً من الأوضاع السيئة والمزرية التي يعيشونها حالياً، قد يتعرضوا من خلالها - كما ذكرنا - لخطر تصفية ما تبقى مما يمكن أن نسّم به تجاوزاً (أمة عربية) أو (نظاماً عربياً) على حد تعبير البعض . خصوصاً وأنّ هناك مهمات ثقيلة بانتظار مجتمعاتنا ونخبنا وأحزابنا وشعوبنا كلّها تنوء تحت حملها الجبال كما يقال، وهي:

- ملف بناء الدولة من الداخل، دولة الإنسان والقانون والمؤسسات والعدل والحرية والكرامة، قبل الحديث عن الخارج ومخططاته ومؤامراته وضغوطاته

وارتهاناته.. أي ضرورة تفعيل كلّ مواقع التغيير السياسي المتمحور حول إعادة السياسة وكلّ ما يتصل بإدارة الشأن العام إلى حضان المجتمع، وتمكين الشعوب من المشاركة المنتجة في صناعة قراراتها وتقرير مصيرها وصناعة وجودها.

- ملف الانقسامات الداخلية بين الدول العربية والإسلامية، وضرورة معالجتها بحكمة وعقلانية واعتدال في مواجهة تحديات إثبات الوجود والذات الحضارية في عالم لا يحترم إلا الأقوياء.

- النزاعات المتفجرة في الداخل بين النظم الحاكمة والشعوب المحكومة بين كلّ فترة وأخرى، ملف الأقليات والتنمية وتوزيع الثروة. ووالخ.

- ملف الأمن الإقليمي وأمن كلّ شعب من شعوب المنطقة.

- ملف التنمية الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية.

ولا شك أنّ تلك المسؤوليات الكبيرة التي لا تزال تنتقل وتترحل معنا من عام إلى آخر وتنتظر على طريق الحاضر والمستقبل لهذه الأمة ومصيرها القادم، تتطلب نخباً وقيادات نوعية أخلاقية مضحية ومؤمنة عملاً لا قولاً بمسؤولياتها الكبيرة، تعمل بوحى مبادئ وقيم وغايات إنسانية لا مصلحية نفعية خاصة وهذا التاريخ كلّه يشهد على أنّّه لم تنطلق أمة أو شعب من الشعوب من سباته وتخلّفه من دون وجود مثل هذه الطبقة القيادية المضحية والمنكرة لذاتها ومصالحها الخاصة في سبيل بناء الصالح العام والحفاظ عليه وتطويره وتفعيله. لذلك، فإنّ الأمة ممثلة في هذه الجماهير الواسعة التي خرجت لطلب الإصلاح والتغيير السلمي، انطلقت على هدي واقع سياسي وفكري جديد، يقوم على رؤية واضحة هي قيام الدولة المدنية الديمقراطية الحرة، بهدف تعميق المحتوى الإنساني والمضمون الديمقراطي للواقع السياسي العربي والإسلامي، الذي غلبت عليه في السابق قيم الاستبداد والتسلط وإلغاء إرادة الناس، على مستوى الفكر كما على مستوى الممارسة . ففي مجتمع واسع متعدد الجماعات

العرقية والدينية والمذهبية كعاملنا العربي الكبير، لا يمكن لحركته الجامعة الإنسانية المنطلقة إلا أن تكون حركة إنسانية ديمقراطية تعترف بالتنوع وتُثري به، وتحترم تعدد الجماعات المكونة للأمة وتسعى إلى تحقيق التكامل بينها، بل تحترم السيادة الوطنية لأقطارها وتسعى لأن تحقق تكاملها القومي بعد أن ترسخ إحساس أبناء هذه الأقطار بهذه السيادة.

والأمر الذي تنعقد عليه الآمال - في هذا المجال - يكمن في دفع القوى الحية والجمهير الواسعة (صاحبة المصلحة الحقيقية في الإصلاح والتغيير السلمي الديمقراطي) إلى أن تؤمن بأن الهدف الكبير دونه أثمان وتكاليف وتضحيات جسام.. وما أعنيه هنا هو ثمن الحرية حتماً، التي هي أغلى شيء في هذا الوجود الحي المتحرك.

* * *

الهوامش:

- (١) راجع المعجم الوسيط ج١، ص٤٢.
- (٢) لسان العرب، ج٣، ص٨١.
- (٣) راجع: شرح النهج لابن أبي الحديد، ج٩، ص٢٤٣.
- (٤) راجع الصحاح، ج٢، ص٤٤٤، مادة بدد.
- (٥) القاموس المحيط، مادة بدد.
- (٦) راجع: عبد الله العروي، مفهوم الدولة، بيروت ١٩٩٨ / ص: ٩٠.

قراءة قانونية

في اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة
(سيداو)

□ الدكتورة: غادة أحمد عيسى (*)

مقدمة

يحتل موضوع حقوق المرأة موقعاً مهماً في الدراسات الإنسانية؛ نظراً لصلته الموضوع بحقوق الإنسان أولاً، ولأنّ موضوع المرأة وحقوقها تعرّض للكثير من التساؤلات والإشكالات القانونية والاجتماعية والدينية ثانياً. وهذا ما يتطلب الإقدام على دراسة مثل هذا البحث بموضوعية والبعد عن الانفعال والانجرار خلف العاطفة. ومما لا شك فيه أنّ حقوق المرأة تعرّضت إلى انتهاكات كبيرة مسخت شخصيتها واعتبرتها مجرّد سلعة أو سلاح يستخدم لتحقيق مآرب دنّية.

وسأكتفي في هذه الورقة بمعالجة المحاور التالية بما يرتبط بالاتفاقية المشار

(*) دكتوراه في قانون الأعمال، باحثة إسلامية / لبنان.

إليها في العنوان، والمعروفة باسم: (Cedaw):

- (١) التعريف باتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة.
- (٢) الآلية المتبعة للوصول إلى هذه الاتفاقية وجعل موادها قواعد كونية تحكم البشر جميعاً (إلزامية المواثيق الدولية - اتفاقية سيداو).
- (٣) أهم المبادئ والحقوق التي كرستها الاتفاقية.
- (٤) التزامات الدول تجاه الاتفاقية.
- (٥) التحفظات الواردة على بعض بنود الاتفاقية (الموقف الدولي من الاتفاقية).
- (٦) مخاطر الاتفاقية من الوجهة القانونية.
- (٧) إطلالة سريعة على البروتوكول الاختياري الملحق باتفاقية سيداو.
- (٨) خاتمة (توصيات).

المحور الأول:

تعريف اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة.

اتفاقي القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة (Cedaw)، والتي هي اختصار للجملة الإنكليزية التالية:

(Convention on the elimination of all forms of discrimination against women).

(سيداو) هذه هي معاهدة ترعاها منظمة الأمم المتحدة للقضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة، أعدتها مفوضية المرأة بمنظمة الأمم المتحدة، وقد بدأت فكرة تلك المعاهدة بمعاهدة سابقة أعدتها تلك المفوضية، اسمها (معاهدة حقوق المرأة السياسية)، والتي تبنتها وأجازتها الجمعية العامة للأمم المتحدة في عام ١٩٦٧م، ثم بدأت مفوضية المرأة تلك بإعداد معاهدة القضاء

على جميع أشكال التمييز ضد المرأة سنة ١٩٧٣ م، وانتهت منها في سنة ١٩٧٩ م، واعتمدها الأمم المتحدة في ٢٨ كانون الأول ديسمبر ١٩٧٩، وأصبحت سارية المفعول بعد توقيع خمسين دولة عليها في ٣١ كانون الأول ديسمبر ١٩٨١ م، وما تزال الدول توقع عليها بعد ذلك تباعاً.

تتألف هذه الاتفاقية من ثلاثين مادة تدور حول حق المرأة في التمتع بجميع الحقوق الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، المدنية، والسياسية، المنصوص عليها في جميع المعاهدات الدولية على أساس متساو مع الرجل. وتشير أيضاً إلى أن التمييز ضد المرأة يشكل انتهاكاً لمبدأ المساواة وكرامة الإنسان، ويعدّ عقبة أمام مشاركة المرأة، على قدم المساواة مع الرجل، في حياة بلدها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ويعوق نموّ ورخاء المجتمع والأُسرة، ويزيد من صعوبة التنمية الكاملة لإمكانات المرأة في خدمة بلدها والبشرية. وتلزم هذه المعاهدة الدول الأطراف بتبني التدابير المناسبة من التدابير، التشريعية وغير التشريعية، لحظر كلّ تمييز ضد المرأة، ولكفالة تطورها وتقدّمها الكاملين، ولتمكينها من التمتع بحريّاتها الأساسية وحقوق الإنسان الخاصة بها.

المحور الثاني:

الآلية المتبعة لتحويل قواعد اتفלקية سيداو الى قواعد كونية تحكم البشرية جمعاء

يبدو من خلال ما ذكرناه في المحور الأول أن إعداد اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة مرّ بمراحل متعددة قبل الوصول إلى اعتماد نصّ محدد للاتفاقية وعرضه للتوقيع والتصديق والانضمام، كما أنّ الأمم المتحدة لم تكتف بعرض الاتفاقية للتصديق وحسب، وإنما جهدت في الضغط على الدول التي لم تصادق وتلك التي صادقت مع بعض التحفظات من أجل الالتزام الكامل

بالاتفاقية، وبذلك لا يمكن اعتبار بنود الاتفاقية مجرد نصائح أو توجيهات تقترحها الأمم المتحدة للقضاء على التمييز ضد المرأة، وإنما هي قواعد كونية إلزامية تعرّض مخالفاتها للمساءلة القانونية، ويمكن تلخيص هذه المراحل بما يلي:

المرحلة الأولى :

مرحلة تشكيل الرأي العام الدولي حول قضية المرأة من خلال تكثيف اهتمام وسائل الإعلام ، وتسييل الضوء على هذه القضية ، وإثارة الجمهور؛ ليبدأ النقاش والحوار حولها.

المرحلة الثانية :

مرحلة صياغة قواعد الاتفاقية من خلال استطلاع رأي الدول الأعضاء ، وعقد المؤتمرات الدولية للخروج منها بمواثيق واتفاقيات ومعاهدات تكون ملزمة للبلدان التي تصادق عليها.

المرحلة الثالثة :

مرحلة الضغط على الدول المصدقة لرفع تحفظاتها على بعض البنود، ومن ثم الضغط على الدول غير الموقعة عليها أصلاً للتوقيع والتصديق عليها؛ لتصبح بعد ذلك قواعد اتفاقية (سيداو) قواعد كونية تحكم كلّ المجتمعات مهما اختلفت فكرياً، ثقافياً ودينياً.

المحور الثالث:

أهم المبادئ والحقوق التي تركزها الاتفاقية.

ويمكن الإشارة إلى أهم هذه المبادئ والحقوق في ضمن النقاط التالية:
الأولى: تغيير الهوية البيولوجية والنفسية للمرأة ، وإحلال فكرة النوع الاجتماعي (الجندر) محل مصطلح الجنس (النوع البيولوجي).

وفي هذا المجال نصّت المادة (٥) فقرة (أ) على ما يلي : «تعديل الأنماط الاجتماعية والثقافية لسلوك الرجل والمرأة بهدف تحقيق القضاء على التحيزات والعادات العرفية وكلّ الممارسات الأخرى القائمة على فكرة دونية أو تفوّق أحد الجنسين، أو على أدوار نمطية للرجل والمرأة».

الثانية: مساواة المرأة بالرجل فيما يتعلق بالحقوق السياسية.

فقد ورد في المادة (٧) ما يلي: «تتخذ الدول الأطراف جميع التدابير المناسبة للقضاء على التمييز ضدّ المرأة في الحياة السياسية والعامة للبلد، وبوجه خاص تكفل للمرأة، على قدم المساواة مع الرجل، الحق في:

أ. التصويت في جميع الانتخابات والاستفتاءات العامة، وأهلية

الانتخاب لجميع الهيئات التي ينتخب أعضاؤها بالاقتراع العام.

ب. المشاركة في صياغة سياسة الحكومة ، وتنفيذ هذه السياسة ، وفي

شغل الوظائف العامة ، وتأدية جميع المهام العامة على جميع

المستويات الحكومية.

ج. المشاركة في جميع المنظمات والجمعيات غير الحكومية التي تُعزى

بالحياة العامة والسياسية للبلد».

الثالثة: مساواة المرأة بالرجل فيما يتعلق بجنسية أطفالها.

جاء في المادة (٩) الفقرة (٢) ما يلي: «تمنح الدول الأطراف حقاً مساوياً لحقّ

الرجل فيما يتعلق بجنسية أطفالها».

الرابعة: تشجيع المرأة على الاختلاط في التعليم ، واعتباره ركيزة أساسية

للعملية التعليمية.

ففي المادة (١٠) الفقرة (ج) جاء: «القضاء على أيّ مفهوم نمطي عن دور

الرجل ودور المرأة على جميع مستويات التعليم وفي جميع أشكاله ، عن طريق

تشجيع التعليم المختلط وغيره من أنواع التعليم التي تساعد في تحقيق هذا

الهدف...».

الخامسة: إلغاء دور المرأة في تربية الأطفال وإقامة مراكز تربوية لتربية الأطفال داخل المجتمع وليس داخل البيت.

على هذا الأساس جاء المادة (١١) بند (٢) فقرة (ج): «توخياً لمنع التمييز ضد المرأة بسبب الزواج أو الأمومة، ولضمان حقها الفعلي في العمل، تتخذ الدول الأطراف التدابير المناسبة».

السادسة: كرّست الاتفاقية جملة من الحقوق للمرأة أسوة بالرجل في ميادين عديدة، كمساواة المرأة والرجل في ميادين العمل والأجر والرعاية الصحية، كما هو الحال في المادتين (١١، ١٢).

السابعة: مساواة المرأة بالرجل فيما يتعلق بالحقوق الأسرية، ما يتطلب إبطال أحكام الميراث.

ففي المادة (١٣) فقرة (أ) جاء: «تتخذ الدول الأطراف جميع التدابير المناسبة للقضاء على التمييز ضد المرأة في المجالات الأخرى للحياة الاقتصادية والاجتماعية لكي تكفل لها، على أساس تساوي الرجل والمرأة، نفس الحقوق ولا سيما الحق في الاستحقاقات الأسرية».

الثامنة: تكريس حرية المرأة في التنقل، وفي اختيار سكن منفصل عن سكن الزوجية.

ونصّت على ذلك المادة (١٥) فقرة (٤): «تمنح الدول الأطراف الرجل والمرأة نفس الحقوق فيما يتعلق بالقانون المتصل بحركة الأشخاص وحرية اختيار محل سكناهم وإقامتهم».

التاسعة: تكريس مساواة المرأة بالرجل في كافة الأمور المتعلقة بالزواج والعلاقات الأسرية سيما في مسألة اختيار الزوج وعقد الزواج.

جاء في المادة (١٦) فقرة (أ) و (ب): «تتخذ الدول الأطراف جميع التدابير

المناسبة للقضاء على التمييز ضد المرأة في كافة الأمور المتعلقة بالزواج والعلاقات الأسرية، وبوجه خاص تضمن على أساس المساواة مع الرجل:

أ. نفس الحق في عقد الزواج.

ب. نفس الحق في حرية اختيار تيار الزوج، وفي عدم عقد الزواج إلا برضاها الحر والكامل.

العاشرة: منح المرأة نفس الحقوق وإلزامها بنفس المسؤوليات العائدة للزوج أثناء عقد الزواج من الإنفاق والمهرو تجهيز المسكن و...، وعند فسخ عقد الزواج من الأمور المرتبطة بالطلاق والعدة وتعدد الزوجات.

وهذا نص المادة (١٦) فقرة (ج): «تتخذ الدول الأطراف جميع التدابير المناسبة للقضاء على التمييز ضد المرأة في كافة الأمور المتعلقة بالزواج والعلاقات الأسرية، وبوجه خاص تضمن على أساس المساواة مع الرجل نفس الحقوق والمسؤوليات أثناء الزواج وعند فسخه».

الحادية عشر: إعطاء المرأة حق اختيار اسم عائلتها على قدم المساواة بالرجل.

ففي المادة (١٦) فقرة (ز): «تتخذ الدول الأطراف جميع التدابير المناسبة للقضاء على التمييز ضد المرأة في كافة الأمور المتعلقة بالزواج والعلاقات الأسرية، وبوجه خاص تضمن على أساس المساواة مع الرجل نفس الحقوق الشخصية للزوج والزوجة، بما في ذلك الحق في اختيار اسم الأسرة، والمهنة، والوظيفة».

المحور الرابع:

التزامات الدول الأطراف في الاتفاقية.

بموجب المادة الثانية من الاتفاقية يجب على الدول الأعضاء في الاتفاقية ما

يلي:

(١) إدخال مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة في نظامها القانوني (المادة ٢/ فقرة أ-ب).

(٢) إلغاء كافة القوانين التي تميّز بين الجنسين (المادة ٢/ فقرة و-ز).

(٣) تبني قوانين مناسبة تمنع التمييز ضد المرأة (المادة ٢/ فقرة ب).

(٤) تأسيس مجالس وهيئات وطنية لضمان الحماية الفعالة للمرأة ضد التمييز (المادة ٢/ فقرة ج).

(٥) ضمان إزالة جميع أعمال التمييز ضد المرأة من قبل الأشخاص والمنظمات والمؤسسات (المادة ٢/ فقرة د-ه).

المحور الخامس:

الموقف الدولي من الاتفاقية (التحفظات).

اخ تلف الموقف الدولي بين معارض للا اتفاقية بالمطلق وبين مؤيد مع بعض التحفظات:

أمّ الدول التي لم تصادق على الا تفليقية فهي سبعة : الجمهورية الإسلامية الإيرانية، السودان، الصومال، قطر (ولكنّها صادقت عليها مؤخراً في ١٩ نيسان ٢٠٠٩)، سويسرا، الولايات المتحدة الأميركية ، دولة الكرسي الرسولي (الفاتيكان)^(١)، الأزهر رفض الاتفاقية إلا أن مصر كدولة صادقت عليها.

أمّا الدول التي صادقت على الا اتفاقية مع التحفظ على بعض بنودها فنشير إلى بعض النماذج:

النموذج اللبناني: صادق لبنان على الاتفاقية في ٢٦/٧/١٩٩٦، مع التحفظ على بعض البنود، وهي: المواد: (٢، ٩، ١٥، ١٦، ٢٩)، والتي كما سيبدو أنّ أغلب الدول المصادقة على الاتفاقية تحفظت على هذه المواد.

النموذج المصري : فهو يعكس النموذج التقليدي ، ويعكس بشكلٍ جيّ

ووفي صورة للتحفظات التي عبّر ت عنها أغلبية الدول العربية والإسلامية. فهي تتحفّظ إلى حين إعداد هذا المقال على المواد الخمس التي تحدثنا عنها، وهي المواد: (٢، ٩، ١٥، ١٦، ٢٩).

النموذج الباكستاني: الباكستان لم تتحفّظ سوى على الفقرة الأولى من المادة (٢٩)، والتي تتعلّق بإمكانية خضوع البلد المصادق لمحاكمة بلد مصادق ثانٍ ولمساءلة قانونية دولية، وهي بذلك فقرة تضعف من سيادة البلد الموقّع على اتفاقية سيداو؛ لذلك جاء التحفظ عليها من أكثر من بلد حتى خارج الدائرة العربية الإسلامية.

النموذج التونسي: تونس غير متحفظة على المادة الثانية وهي مادة هامة جداً في آلية السيداو؛ لأنّه تلك التي تُلزم البلد المتعهد باتخاذ كل التدابير التشريعية والتنفيذية لإلغاء كلّ أشكال التمييز ضد المرأة، وقد سحبت تحفظها على المادة (٩) في ٢٠٠٦.

النموذج المغربي: رفع المغرب في ١٠ ديسمبر ٢٠٠٨ بمناسبة ذكرى الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الستين كلّ تحفظاته على السيداو. وهذا نموذج يعبر عن رغبة المغرب في الانخراط في الآليات التعاهدية الدولية ليؤكد بذلك اختياراً يدعم مسارات التحديث، حتّى لو كان هذا الأمر على الحساب الديني، وتقاليده المجتمع العربي.

لكنّ بعض المنظمات غير الحكومية التي تعمل على ما سمّته في إحدى حملاتها (مساواة دون تحفظات)، (égalité sans réserves)، لاحظت أنّ الاشتغال الميداني على ممارسات نقض وإلغاء التمييز في حاجة إلى مزيد من الوقت. فرفع التحفظات المغربي ما زال من حيث النصوص جزئياً فقد بقيت الورقة المغربية النهائية قيد الإعداد. وفي الانتظار ما زال الإعلان مسألة شفوية لم تتخذ البعد القانوني التنفيذي، كما أنّ الفجوة، بين التشريعات والتطبيقات

والممارسات الاجتماعية التي تخضع إلى عقليات لا تستوعب كل ما ورد من تغييرات في المدونة المغربية.

كما أن الجمهورية الإسلامية في إيران لم توقع على هذه الاتفاقية؛ وذلك للمواد والبند التي فيها مخالفة واضحة للشريعة الإسلامية .

المحور السادس:

مخاطر الاتفاقية من الوجهة القانونية

إن الاتفاقية بما ترقى به عن قوانين الدول الداخلية من حيث التراتبية، من شأنها - وكما تبين معنا من خلال قراءة المادة الثمانية منها - أن تُغني فاعلية كل قانون داخلي لأي دولة يتعارض مع أحكامها.

ولكن إذا عُ دنا إلى تعريف الدستور والقانون بشكل عام، فإن القانون بكلمات موجزة هو تلك القواعد التي تنظم العلاقات في مجتمع ما، بحيث يأخذ المشرع بعين الاعتبار، عند وضع أي قانون، المصالح المتعارضة بين الأفراد، فيأتي القانون المؤر منسجماً مع واقع وظروف المواطنين في البلد، وبالتالي فإن أي اتفاقية لا تراعي خصوصية كل دولة ومدى إمكانية انسجام هذه الاتفاقية مع واقع الدولة، بل تأتي عامة وعشوائية، فلن من شأن ذلك أن يخلق فوضى وبلبل داخل الدولة، وازدواجية بين ما تراه من أسباً لأفرادها وبين ما تفرضه الاتفاقية عندما تكون هذه الأخيرة متعارضة مع القوانين المحلية . ويبدو ذلك جلياً من خلال تعارض اتفاقية سيداو مع قوانين الجنسية ، وقوانين الأحوال الشخصية للعديد من الدول.

لذلك نجد أن أغلب الدول الموقعة على الاتفاقية تحفظت على المواد التي تنال من قوانينها الداخلية . ولكن يبقى السؤال إلى متى ستمسك هذه الدول بتحفظاتها في ظل الضغوطات التي تمارسها الأمم المتحدة من خلال الهيئات

والمجالس المحلية التي تسوّق بكافة الوسائل لهذه الاتفاقية ، والتي ترفدها
بتقارير دورية حول مدى التزام الدول بتطبيقها؟!

ولعلّ السؤال الأخطر هو : ما هي القيمة القانونية لهذه التحفظات التي
أبدتها الدول طالما يوجد مادة في الاتفاقية هي المادة (٢٨)، والتي تمنع في فقرتها
الثانية أيّ تحفظ يتعارض مع روح الاتفاقية وغرضها الأساسي (ألا وهو :
التساوي السّلم بين الرجل والمرأة)، في حين أنّ البنود المتحفّظ عليها تجسّد روح
الاتفاقية وغرضها الأساسي، والتحفّظ عليها يعني رفض مبدأ التساوي المطلق
بين المرأة والرجل.

إذاً إنّ السماح للدول المصادقة على الاتفاقية أن تتحفّظ على بعض بنودها،
مع وجود المادة (٢٨) المشار إليها أعلاه، لا قيمة قانونية له بل هو مجرد حيلة
قانونية اتّبعتها الأمم المتحدة لتشجيع الحكومات على التوقيع على الاتفاقية
والالتزام بها...

المحور السابع:

إطالة سريعة على البروتوكول الاختياري الملحق باتفاقية القضاء على
جميع أشكال التمييز ضد المرأة:

ما المقصود بالبروتوكول؟

البروتوكولات عادة تصدر بعد الاتفاقيات، إمّا لتلافي بعض الثغرات التي
تظهر في الاتفاقيات بعد البدء في تطبيقها، أو لتبيان بعض جوانب تلك
الاتفاقيات بشكل واضح وجليّ، أو لإضافة بعض الإجراءات الجديدة لها.
ويسمّى البروتوكول بـ"الاختياري"؛ لأنّه لا يلزم الدول الموقّعة على الاتفاقية
بالمصادقة عليه، أو الالتزام به.

لماذا البروتوكول الاختياري للسيداو؟

لا توجد في اتفاقية (سيداو) آلية تسمح للنساء (أفراداً ومجموعات) بتقديم الشكاوى بشكل مباشر إلى لجنة سيداو (CEDAW Committee) بالأمم المتحدة، وبالمثل لا توجد فيها آلية تمكّن لجنة سيداو الدولية من تلقي أيّ شكاوى من النساء بشكل مباشر، والتحقيق فيها .. ومن هنا بدأت اللجنة في وضع بروتوكول يُوجد مثل تلك الآليات.

وبالفعل، تمّ في عام ٢٠٠٠ وضع البروتوكول الاختياري (Optional Protocol) كملحق لاتفاقية سيداو، والذي يعطي النساء الحق في تجاوز الحكومات، والتقدم بشكاوى مباشرة إلى الأمم المتحدة. وبذلك يمنح لجنة سيداو صلاحية أكبر في إجبار الدول المصدّقة على البروتوكول على تنفيذ الاتفاقية؛ تفادياً للعقوبات التي يمكن أن توقع عليها إذا لم تلتزم التزاماً كاملاً بالتنفيذ، حيث يعطي لجنة سيداو الحق في: - تلقي الشكاوى الفردية^(٢).

- المعاينة الميدانية، والتحقيق في تلك الشكاوى.

مخاطر البروتوكول الاختياري الملحق باتفاقية سيداو؟

من أهمّ مخاطر البروتوكول تقييم سلطة الدولة الطرف فيه من خلال:

(١) إجراء المراسلات: والذي بموجبه تستطيع النساء (أفراداً أو جماعات) أن تتقدّم بشكاوى مباشرة ومكتوبة إلى لجنة السيداو.

(٢) إجراء التحقيق: والذي من خلاله يمكن للجنة سيداو أن تحقق في الشكاوى المقدمة لها، وأن تلزم الدولة الطرف (إذا كان الإخلال بتطبيق الاتفاقية من قبل حكومتها) بأن تتعاون معها، وتتخذ التدابير اللازمة، وأن تطلعها على التدابير التي اتخذتها استجابة إلى مثل هذا التحقيق^(٣).

(٣) فعلى سبيل المثال لو تقدمت امرأة مسلمة في دولة موقّعة أو منضمّة إلى البروتوكول بشكاوى أمام لجنة سيداو بسبب توريثه نصف ميراث

أخيها وهو ما يشكل (تمييزاً) بحسب الاتفاقية، جاز للجنة سيداو أن تطلب من الدولة الطرف أن تتخذ تدبيراً عاجلاً كتوقيف توزيع الميراث مثلاً، ثم يلي ذلك مطالبة الدولة بتعديل قانون الموارث بحيث يوزع الميراث بالتساوي بين النساء والرجال . كذلك، إذا علمت اللجنة بتزويج فتاة دون الثامنة عشرة في دولة طرف (والذي تعدّه الاتفاقية عنفاً ضد الطفلة)، فإنّ البروتوكول يعطي لجنة السيداو - دون انتظار شكوى من أفراد - حقّ إرسال عضوٍ إلى الدولة للتحري عن تلك المسألة، وإصدار توصيات، وعلى الدولة الطرف الردّ خلال ستة أشهر بما اتخذته من تدابير لوقف هذا الأمر.

(٤) عدم السماح بإبداء أيّ تحفظات على البروتوكول (المادة ١٧ من البروتوكول): وهذا إنّما يدل على إلزام الدولة الطرف بتطبيق جميع بنود البروتوكول، وأنّ ما جاء في المادة العاشرة حول حقّ أيّ دولة عضو في عدم الاعتراف باختصاص اللجنة المنصوص عنها في المادتين (٨) و(٩)، يتناقض تماماً مع المادة السابعة عشر . وبالتالي كما في اتفاقية سيداو فإنّ السماح للدول الأطراف في البروتوكول بأن تتحفظ على اختصاص لجنة سيداو لا قيمة قانونية له مع وجود المادة (١٧) التي تمنع أيّ تحفظ على البروتوكول، بل هو مجرّ د حيلة قانونية لتشجيع الدول على التصديق والانضمام إلى البروتوكول الملحق بالاتفاقية.

خلاصة (توصيات):

إنّ المجتمع الدولي الذي اعتبر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عام ١٩٤٨ م هو المثل الأعلى المشترك الذي ينبغي أن تسعى شعوب العالم لبلوغه، سرعان ما اكتشف أنّ الجهد الفكري البشري قاصر ، ولا قبل له بوضع تصوّر

يستوعب مستقبل العالم.

ولذلك لم يكذب المداد الذي كُتب به الإعلان العالمي حتى ظهرت الحاجة إلى مواثيق إضافية تعيد ترتيب الحقوق والحريات التي وردت به وتفصّلها وتضيف إليها، وفي تقديرنا أنّ السبب في ذلك يرجع إلى ضعف البعد الأخلاقي لحقوق الإنسان، وعدم بلورته والاهتمام به؛ لأن الغرب لا يحبّ أيّ ارتباط بين حقوق الإنسان والدين؛ خوفاً من استغلال الدين في العمل السياسي على نحو ما كان يحدث في العصور الوسطى، ولكن ليس رفضاً للدين من حيث المبدأ.

لذلك، فإننا نرى أنّ هـ توجد قابلية لدى النظام الدولي لحقوق الإنسان للاستفادة من أيّ تصوّر يؤدّي إلى تقوية حقوق الإنسان، وأنّه لا بدّ من العمل على استغلال تلك القابلية لطرح تصوّرنا الديني والأخلاقي. وهذا ما بدأت به الجمهورية الإسلامية الإيرانية حين وضعت مسودة إعلان مقترح حول حقوق المرأة وواجباتها في النظام الإسلامي.

بعيداً عن العاطفة والانفعال، وبالرغم من إيماننا بخطورة اتفاقية سيداو على قيم ومبادئ المجتمعات سيما الإسلامية منها، إلا أنّنا - إذا أردنا أن نحسن الظن - يمكن أن نقول بأنّ هذه الاتفاقية تمثّل جهداً بشرياً لمساواة المرأة والرجل، ولكن ذلك الجهد البشري قاصر بطبيعته وسوف يظلّ قاصراً، ويقع العبء على المسلمين لبلورة المساواة التي وردت في الشريعة الإسلامية والتي تقوم على العدل لا على التشابه، والترويج لها باعتبارها الوضع الأفضل لكلّ المجتمعات بغضّ النظر عن الدين الذي تدين به.

وعلى الرغم من طول هذا الطريق ومشقة السير فيه، إلا أنّنا نرى أنّ أيّ خطوة نخطو فيها هي خطوة في الاتجاه الصحيح...

* * *

الهوامش:

- (١) الكرسي الرسولي أو الكرسي البابوي : هو كيان سياسي قانوني معترف به دولياً يرأسه (أسقف روما) أو رأس الكنيسة الكاثوليكية، المعروف عموماً باسم بابا الفاتيكان. وتمثل الإدارة البابوية الرومانية الحكومة المركزية في الكرسي الرسولي وهي تمثل مجموعة من الإدارات والهيئات الكنسية والتي يرأسها البابا . ويعتبر الكرسي الرسولي المتحدث باسم الكنيسة الكاثوليكية. كما يخضع الكرسي الرسولي لكافة القوانين و الاتفاقيات الدولية المعمول بها.
- (٢) المادة ١ : تقرّر الدولة الطرف في هذا البروتوكول (الدولة الطرف) باختصاص اللجنة الخاصة بالقضاء على التمييز ضد المرأة (اللجنة) في تلقي التبليغات المقدمة لها وفقاً للمادة الثانية، والنظر فيها. المادة ٢ : يجوز تقديم التبليغات من قبل الأفراد أو مجموعات الأفراد، أو نيابة عنهم، بموجب الولاية القضائية للدولة الطرف، والتي يزعمون فيها أنه م ضحايا لانتهاك أيّ من الحقوق الواردة في الاتفاقية على يدي تلك الدولة الطرف. وحيث يقدم التبليغ نيابة عن أفراد أو مجموعات من الأفراد، فيجب أن يتم ذلك بموافقتهم، إلا إذا أمكن لكاتب التبليغ تبرير عمله نيابة عنهم من دون م ثل هذه الموافقة . المادة السابعة فقرة أولى : تنظر اللجنة في التبليغات التي تتلقاها، بموجب هذا البروتوكول، في ضوء جميع المعلومات التي تُوفّر لها من قبل الأفراد أو مجموعات الأفراد أو نيابة عنهم، ومن قبل الدولة الطرف ، شريطة نقل هذه المعلومات إلى الأطراف المعنية.
- (٣) المادة ٨ / ١ : إذا تلقت اللجنة معلومات موثوقاً بها تشير إلى حدوث انتهاكات خطيرة أو منهجية للحقوق الواردة في الاتفاقية، على يدي الدولة الطرف، فإنّ على اللجنة أن تدعو الدولة الطرف إلى التعاون معها في فحص المعلومات، وأن تقدم، لهذه الغاية، ملاحظات تتعلق بالمعلومات ذات الصلة.

المرأة المسلمة وتحديات العصر

الحجاب نموذجاً

□ الأستاذة: أمينة الهندي (*)

مقدمة

الحديث عن قضايا المرأة في الفكر الإسلامي، لم ينقطع أو يتوقف خلال القرن الأخير . فقد كان لهذه القضايا في حقل الدراسات الفكرية وال ثقافية ضمن الإطار الإسلامي، اهتماماً واسعاً يفوق من الناحية الكمية قضايا أخرى عديدة لا تقل أهمية وخطورة عن تلك القضايا . مما يؤكد حضور هذه القضايا في الذهنيات الإسلامية والالتفات إليها بصور وبواعث مختلفة حرّضت على أن تحتل هذه المكانة البارزة في كتابات الإسلاميين. فلا نكاد نجد كاتباً أو مفكراً أو فقيهاً أو مصلحاً إلا وكتب في هذا الموضوع، أو أعطى رأياً أو فكرة حوله . إلى جانب ظهور العولمة كسمة لواقعنا المعاصر الذي تتشابك فيه الظواهر وتتعدد وتتصل بعضها بشكل يصعب معه فصلها عن بعضها البعض، وتطرح العولمة

(*) مدرسة الأديمية، وباحثة إسلامية / البحرين .

- مجموعة من التحديات في وجه الأمة الإسلامية أوفي وجه الفرد المسلم، سواء كان رجلاً أم امرأة، بما حدا بنا إعداد هذا البحث الذي سيتناول المحاور التالية:
- (١) التحديات التي تواجه المرأة المسلمة في واقعنا المعاصر.
 - (٢) التحديات والإشكالات الفكرية لمسألة الحجاب ومناقشتها.
 - (٣) التحديات والعقبات الاجتماعية لمسألة الحجاب ومناقشتها.
 - (٤) التوصيات.

التحديات التي تواجه المرأة المسلمة في واقعنا المعاصر

١. التحديات المعرفية:

في عصر العولمة وعند تلاشي قيمة المكان والزمان، تبرز تحديات كبيرة للمرأة في مواكبة النتاج المعرفي المتسارع، فهل وضعت المرأة المسلمة من ضمن أجندتها مسألة الاطلاع على المستجدات المعرفية؛ لتتمكن من إثراء ثقافتها ومجابهة أي إشكاليات فكرية تعترضها، وتقليل الهوة بين الأجيال

٢. التحديات السياسية:

حيث تواجه المرأة المسلمة تحديات كبيرة على صعيد تفعيل دورها السياسي، وكيفية التعاطي مع مختلف العوامل السياسية المؤثرة، بالنحو الذي يضمن لها أداء دورها على أكمل وجه.

٣. التحديات الاقتصادية:

لا تختلف المرأة المسلمة عن مثيلاتها عند الحديث عن التحديات الاقتصادية؛ حيث تشكّل النساء ٧٠٪ من فقراء العالم، نصف سكان العالم يحققن ثلثي ساعات العمل، يحصلن - فقط - على عشر الدخل العالمي، ويمتلكن ١٪ من ثروات العالم، ويشكلن ١٪ من صانعي القرار في العالم، وهنّ ٧٥٪ من اللاجئين والمهاجرين؛ بسبب الحروب والفقر وانتهاك حقوق الإنسان . كما أنّ

المجتمع والدولة عموماً، تريد من المرأة أن تكون عضواً نشطاً في تنميه البلاد، بحيث تُستهلك المرأة في وظائف إما ثانوية بأجرٍ قليل وجهدٍ كثير، وإما في وظائف مقبولة نوعاً ما تأخذ الجهد كله غير تاركة للمرأة وقتاً لتلبية احتياجات البيت، هذا مع تعزيز ثقافة الاستهلاك التي تجعل جلّ نساءنا تحت خط الفقر النسبي، والذي يعرف بعدم قدرة الفرد / الأسرة على الوفاء بالمستوى المعيشي للمجتمع الذي يعيش فيه.

أما على مستوى البحرين، فنلاحظ أن الملفات المتعلقة بالقضايا العمالية، والتي تمثل المرأة فيها نسبة عالية، مثل ملفات عاملات المصانع، ومدرسات رياض الأطفال، تتحرك بشكلٍ بطيء، وإلى الآن لم يتم التوصل لحلول عادلة تُنصف المرأة.

٤. التحديات القانونية:

حيث لا زالت القوانين الوضعية قاصرة عن الوصول إلى المنظومة القانونية المبنية على أساس الشريعة الإسلامية، والقادرة على معالجة كل الثغرات القانونية فيما يرتبط بحقوق المرأة في مختلف المجالات..

٥. التحديات الاجتماعية:

من أكبر التحديات التي تواجه المرأة كونها مسلمة، هي التحديات الاجتماعية؛ لارتباطها الوثيق بالحياة العملية والواقع المعاش، ولتداخل أنماط من العلاقات المتشابكة النسبية والسببية، واختلاف المنظومات الكفريّة في العالم العربي والإسلامي الذي أحدث نوعاً من الاصطدام بين هذه الثقافات، فوضعت مفاهيم إسلامية على طاولة الحوار، منها مفهوم القوامة / تعدد الزوجات / الإرث، وكان للحجاب - وهو موضوع بحثنا - نصيب الأسد في دائرة الجدل.

الحجاب نموذجاً للتحديات:

التحديات والإشكالات الفكرية لمسألة الحجاب ومنقشتها:

قبل الشروع في استعراض الإشكالات أودّ الإشارة إلى نقطتين مهمّتين:
الأولى: إنّ الخلاف بين مؤيّدَي السّتر أو الحجاب ومعارضيه ليس اختلافًا في المبدأ، وإنّما هو اختلاف في التفاصيل؛ لأنّ من لا يؤمن بالعريّ - وهو حال مجتمعاتنا الإنسانية إلّا ما شدّد منها - فهو يؤمن بالسّتر (الحجاب)، ولكن يختلفون في تفاصيل السّتر، وكم قطعة، وحجم القطع الساترة، ما يؤكّد أنّ أصل السّتر والحجاب قضية إنسانية، نعم تفاصيلها وكيفيتها يرجع فيها إلى الشريعة.

الثانية: إنّ المقصود بالحجاب في الفكر الإسلامي هو اللباس الشرعي والسّتر، وليس قطعة من القماش الموضوعة على الرأس، وربما كان لوقع هذا المصطلح عند الكثيرين مدعاة لرفضه؛ حيث إنّهُ يوحي بحجب وغياب المرأة عن المجتمع، فالحجاب هو وظيفة المرأة عند تعاملها مع الرجل الأجنبي لقد قمت بتصنيف التحديات الفكرية التي تواجه المرأة المسلمة في اتجاهين، وهما:

أولاً: التوجّه الأوّل الذي يشكّك في صحّة تفسير آيات الحجاب ومعناه ١
وصلاحيته الزمنية من خلال عدّة نقاط نذكرها:

- إنّ الحجاب فُرِضَ فقط على نساء النبي ﷺ، وليس على عموم النساء.
- إنّ الحجاب فُرِضَ على البيئة القبلية بحكم وضعهم المعيشي، ووجود الإماء؛ حيث كانت المرأة تخرج لقضاء حاجتها في الخلاء، فتتعرّض للتحرشات، ولا تميّز عن الأمة، معتمدين على سبب نزول بعض الآيات
- إنّ الألفاظ التي وردت في آيات الحجاب ألفاظ فضفاضة، فالقصد الإلهي في آيات الحجاب هو التزام الحشمة والوقار. أمّا كيفية ذلك فتدخل فيه أمور

كثيرة، على رأسها تغيير العادات، وأيضاً إرادة المرأة وحرّيتها، وما يرتضيه ضميرها.

المناقشة:

- أمّا ما يرتبط بفرض الحجاب على خصوص نساء النبي ﷺ، فإنّ الآيتين من سورة الأحزاب: ﴿يَسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ۚ إِنَّ أَتَقِيْنَ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (٣١) و﴿قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾، وإن كان فيها تخصيصٌ بنساء النبي ﷺ، لكن قوله: ﴿وَقُلْ لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۚ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۚ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الذَّكَرِ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَتِ النِّسَاءِ﴾ (النور: ٣١)، واضحٌ وصريحٌ الدلالة بلزوم الستر، وحدوده لعموم النساء.

- أمّا القول بفرض الحجاب لزمان غير زماننا اعتماداً على سبب نزول الآيتين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٩)، من تعرّض الحرائر للتحرشات أثناء خروجهنّ لقضاء حوائجهنّ، وفي زماننا هذا لا وجود للإماء، وتتمّ قضاء الحاجة داخل المنزل، فتنتفي بذلك علّة تشريع الحجاب، ولكنّ الآية رقم (٣١) من سورة النور صريحة ومطلقة، كما أنّ ما ذكره المفسّرون من علّة الستر في هذه الآية حتّى تعرف الحرائر وتتميّز عن الإماء، فلا يتمّ التعرّض لهنّ، لا يخلو من إشكال؛ إذ يفهم منه أنّ التعرّض للإماء لا مانع منه، والحال أنّ الأمر ليس كذلك؛ حيث إنّ التعرّض لهنّ ذنب؛ لهذا يذكر

الشهيد مطهري في تفسير ﴿أَنْ يُعَرَّفَنَّ﴾، وهو حينما تخرج المرأة من دارها مستورة مراعية جانب العفاف، فسوف لا يجزؤ المنحرفون على التعرُّض لها، وسوف يعرفن بأنهن نساء عفيفات، وهو أقرب لروح الإسلام.

- وأريد التوضيح هنا أنَّ حدود الستر بين مؤيدي ومعارضى الحجاب يرجع للاختلاف في تحديد الأجزاء المثيرة للغريزة الجنسية، وعند الرجوع للنموذج الذكوري في عصرنا الحاضر؛ حيث إنَّه موقع الاختبار والابتلاء نجد أنَّ منهم من يحمل نفسية حيوانية مريضة بحيث إنَّ غريزته قد تثار حتى عند رؤيته لطفلةٍ معاقبةٍ أو لامرأةٍ مغطاة من الرأس إلى القدم. فهل يلزم ذلك فرض حجاب على المرأة يخفيها يقعدها في المنزل بحجة وجود مثل هذه النفوس؟! كما أنَّ بعض النفوس لا تتحرَّك غريزتها حتى لو رأت نساءً بملابس السباحة، فهل يلزم ذلك إعطاء مساحةٍ للتعري بحجة وجود مثل هذه النفوس؟! النفسيات؟!

يبقى القسم الثالث، والذي تختلف مواضع إثارة الغريزة لديه من فرد لآخر، وبالتالي يصعب تحديد مواضع الإثارة بهذه الطريقة؛ لاختلاف الأذواق والبيئات، ولعوامل أخرى، فلا بدَّ من الرجوع لصانع هذه النفسية الذي هو أكثر تشخيصاً بأغوارها ومعرفة بأسرارها، فنحن عند شراء أيِّ جهاز أو أداة لا بدَّ لنا أن نقرأ قبل استخدامها النشرة المرفقة للاطلاع على كيفية الاستخدام ونقاط الضعف والقوَّة، فصانع هذه الأداة أعلم ممَّا بخفاياها، والله سبحانه وتعالى بحكم كونه خالقنا هو أعلم بنا من أنفسنا، فهو بإمكانه أن يضع نموذجاً للستر يلبي احتياجات المرأة، ويظهرها في المجتمع كإنسانةٍ لا كأنتى؛ كإنسانةٍ في مواجهة إنسان، لا كأنتى في مواجهة ذكر، وذلك بابتعادها عن كشف المناطق التي يمكن أن تكون عنصراً من عناصر الإثارة ولو بشكلٍ عام.

- أنَّ ما طرح من كون المقصود من الآية هو (التزام الحشمة والوقار. أمَّا

كيفية ذلك فتدخل فيه أمور كثيرة، على رأسها تغير العادات، وأيضاً إرادة المرأة وحرّيتها، وما يرتضيه ضميرها (، ففيه نظر؛ لأنّ مسألة الحشمة مسألة نسبية تختلف من بيئة إلى أخرى، فلباس قد يبدو عند أهل الشام محتشماً، ولكنه في دول الخليج يعتبر غير محتشم، فهل على المسافرة من منطقة لأخرى تغيير زيّها تبعاً لعرف أهل البلد؟! وهذا ممّا لا يمكن الالتزام به.

إلى جانب أنّنا لو نظرنا إلى المجتمعات الغربية وضمن الجامعات الداعية للعري ماذا سيكون عليه حال لباس الحشمة لديهم؟!!!

أعتقد أنّ لباس السباحة سيكون محتشماً بهذا المنطق، كما أنّنا، وفي عصر العولمة، بدأ الذوق العام يتوحد من خلال النماذج المطروحة إعلامياً، وهي نماذج الفيديو كليب والأفلام، فأين لباس الحشمة من ذلك؟!

لهذا نجد أنّ هناك حاجة ماسة لتحديد مواقع الكشف و الستر، كما هي الحاجة لبيان كيفية الصّلاة وتفصيلاتها عند تشريعها. وقد بيّنت الآية بعض هذه التفصيلات: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾؛ حيث كانت جيوب نساء العرب واسعة، وكنّ يسدلن خمرهنّ من الخلف، فتبدوا آذانهن وأقراطهنّ وصدورهنّ، فجاء حكم هذه الآية يُلزم أن يستخدم القسم الذي يسدل الخلف من الخمار لتغطية ما كان مكشوفاً (الرقبة والنحر). ولا مجال لعرض الروايات في تفصيل ذلك ويمكن الرجوع إليها في الكتب المعتبرة، وأكتفي بالإشارة إلى حديث واحد، وهو خبر مسرّعة بن زياد: قَالَ: وَسَمِعْتُ جَعْفَرًا عليه السلام وَسُئِلَ عَمَّا تُظْهِرُ الْمَرْأَةُ مِنْ زِينَتِهَا قَالَ: «الْوَجْهَ وَالْكَفَيْنِ»^(١).

ثانياً: التوجه الثاني، وهو التوجّه الذي يعارض فلسفة الحجاب ضمن أمور

كثيرة نعرض التالي منها:

* إنّ الحجاب يصوّر المرأة كوعاء جنسي لا أكثر، بينما المرأة قادرة بسلوكها أن تفرض احترامها على الرجل وعلى من حولها، ليس بغطاء رأسها أو بعباءتها،

كما أنَّ الحجاب يفترض أنَّ الرجل العربي حيوان شهواني، لا يستطيع أن يسيطر على غرائزه، وهو افتراضٌ مجحفٌ وغير عادل في حقّه.

المناقشة:

١- أنَّه للوقوف على الخلفية الفلسفية لتشريع الحجاب في الإسلام، لا بدّ من الإجابة بادئ ذي بدء عن السؤال التالي : هل هناك ضرورة لإيجاد ضوابط لعلاقة الرجل بالمرأة أم لا؟ أو أنَّ العلاقة بينهما تدخل في إطار حرية كلّ منهما الفردية، التي لا يحقّ لأحدٍ من الناس أو لأيٍّ من القوانين التحكم فيها؟ هناك اتجاه موجود في الفلسفات الغربية، يعطي للإنسان حرية كاملة في علاقته بالجنس الآخر؛ باعتبار أنَّ ذلك شأنٌ خاصٌّ بالرجل والمرأة، يحقّ لهما التحرك فيه دون أية ضوابط أو شروط . أمّا الإسلام وغيره من الأديان والخطوط الفكرية الملتزمة، فيضع قيوداً معيّنة على الحرية الفردية في هذا المجال؛ لأنَّ الحرية المطلقة فيه تخلق الفوضى، وهذا ما ينعكس سلباً على المجتمع فيما يتصل بالأنساب والعائلة.

من هنا، فإنَّ الإسلام يؤكد على جانب الالتزام في حركة الحرية الفردية، ويهيئ الجو النفسي لضمان انضباط الإنسان أمام غرائزه في الوقت نفسه، عبر جملة من التشريعات التي تحقق ذلك. وهنا يدخل تشريع الحجاب كواجب مع غيره من التشريعات التي تمنع الإنسان من أن يعيش حالة طوارئ نفسية أمام نداء الغريزة، ويأخذ موقعه في هيكلية الضوابط التشريعية المتكاملة التي تجعل من الانضباط الأخلاقي أمراً ممكناً وواقعياً.

٢- كما أنَّنا عندما ننظر إلى ما أنتجته تجربة الإنسان المعاصر من انحرافات وأزمات (من قبيل ارتفاع نسبة الاغتصاب والإجهاض والتفكك الأسري)، مع وجود الضوابط القانونية، نرى لزماً علينا الإقرار بأنَّ تجربة الاعتماد على وازع الإنسان الداخلي فقط في ضبط النفس وحفظ الجماعة، تجربة فاشلة،

فالانحرافات الموجودة في المجتمعات التي تسمح بالحرية الجنسية، وتعتبر الالتزام الأخلاقي اختياراً شخصياً، أكثر من الانحرافات الموجودة في المجتمع الذي يعتمد الحجاب؛ ذلك أن تأثر الإنسان نفسياً وشعورياً بحالته الخارجية، أمر طبيعي، بحيث يؤدي اقترابه من المحرقة إلى الاحتراق لا محالة، أو على الأقل يصبح في معرض الاحتراق.

ولا فرق هنا بين الحريق المادي وبين الحريق الغريزي . عندما نهى للإنسان الجائع كل العناصر التي تستثير شهيته وتتحدى جوعه، فلا بد من أن يقبل عليها بشكل طبيعي جداً؛ لهذا فمسألة كون الحجاب يصور المرأة كجسد فقط، والرجل كشهوة فقط قول عارٍ عن الصحة، بل إن الإسلام يريد حصر ألوان المتعة الجنسية سواء كانت بصرية أو سمعية أو لمسية في محيط الأسرة والزواج الشرعي، ويبقى المحيط الاجتماعي العام ميداناً للعمل والإنتاج.

*** الحجاب رمزٌ لتخلف وقمع المرأة.**

المناقشة:

- ١- إنَّ التخلف إنما يتعلّق بكل أنواع الحركة التي تُسيء إلى وعي الإنسان وإلى علاقته مع الآخرين، وإلى نشاطاته في الحياة، فهل ستر المرأة يفعل مثل هذه الأمور؟ بالتأكيد ما من عاقل يستطيع أن يقول نعم، بل العكس قد يكون هو الصحيح؛ إذ عندما يفتح الإنسان على جوٍّ غرائزي محموم، فمن شأن ذلك أن يستهلك الكثير من طاقاته في الأمور التي لا تنمي فيه العقل
- ٢- إنَّ ثقافة العصر تعتبر الإنسان حراً في فعل ما يشاء، والنساء المحجبات يعتقدن أن الحجاب جزء من التزامهن الديني والأخلاقي والاجتماعي، فلماذا يُعتبر ذلك تخلفاً؟!

- ٣- إنَّ التطوّر التقني الموجود في الغرب لم ينشأ عن رفض الحجاب؛ لأنّ مسألة التطوّر هي من المسائل التي تحدثها تحولات فكرية في فهم الكون والحياة

وأسرار الطبيعة، ومحاولة صياغة الواقع على شاكلتها، وإيجاد الفرص للناس المختصين أو الذين يملكون خبرة في هذه المجالات بالتحديد، وهذا لا علاقة له بأن تلبس المرأة الحجاب أو لا تلبسه، بل إننا نجد على المستوى العالمي أن المرأة المحجبة أثبتت جدارتها في كثير من المواقع الحياتية، ولم يمنعها حجابها أو يعيق حركتها كما يدّعي البعض ذلك.

* يعتبر الحجاب انتهاكاً لكرامة المرأة كإنسان.

المناقشة:

الحجاب لا يسيء إلى كرامة المرأة، بل يؤكد احترام الناس لها؛ لأنها عندما تخرج بالطريقة التي نراها هذه الأيام، ينظر إليها غالباً كأنثى لا كإنسان، ونحن نعرف أنه في كل المجتمعات حتى المتحضرة، توجد انتهاكات كثيرة بحق المرأة كإنسان، بسبب ظهورها كأنثى، ومن تلك الانتهاكات حوادث الاغتصاب التي يارس فيها الرجل عدوانية جنسية مباشرة على المرأة، مع وجود الحرية الجنسية الكاملة في تلك المجتمعات، مما يعني أن طبيعة حركة المرأة هناك تجعل من نظرة الرجل إليها نظرة جنسية بالدرجة الأولى، وهو ما تعكسه الكثير من الأعمال التي توظف فيها أنوثة المرأة بشكل أساسي لمركزية ذلك الجانب في طبيعة النظرة إليها؛ بدءاً بالسكرتارية ووصولاً إلى الجاسوسة..

* الحجاب يعدّ قناعاً لبؤس المرأة وتقييداً لحريتها.

المناقشة:

١- إذا كان الحجاب قناعاً لبؤس المرأة ومتاعبه، فإن كل القيم التي يؤمن بها الإنسان، كالصدق والأمانة والإخلاص تقف في وجه الحصول على ما يشتهيه هي قناع لبؤسه. إن احترام الإنسان للقيم التي يؤمن بها في حركته، تفرض قيوداً على تلك الحركة، فتحرّمه من بعض ما يشتهي الحصول عليه، ولكن ذلك لا ينتقص من أهمية وجود القيم في حياته؛ لأن وجودها يحقق

للإنسان الفرد والجماعة مكاسب أكثر ديمومة وأهمية من تلك التي يعيق احترام القيم تحقيقها.

٢- الحجاب ليس مسألة فردية فحسب، وإنما هو مسألة اجتماعية أيضاً؛ لأنّ من شأن كلّ ما يصون الفرد من السقوط والانحراف أن يصون المجتمع، و من شأن كلّ ما يؤدّي بالفرد إلى السقوط والانحراف أن يتهدّد المجتمع فهو وسيلة وقائية ودفاعية للمجتمع من الوقوع في الرذيلة.

* الحجاب وسيلة يعتمدها الفقراء في الدفاع عن القيم التقليدية، فالسفور والملابس والتزيّن مكلفٌ بالقياس بالحجاب.
المنافسة:

أمّا بخصوص القول بأنّ الحجاب وسيلة الفقراء للدفاع عن القيم التقليدية، فكيف نفسّر حجاب الميسورات وهنّ كثيرات؟ !! فنحن نعرف أنّ المرأة في المدينة المتحضرة في المجتمعات الإسلامية، قبل التآثر بالحضارة الغربية كانت متمسكة بالحجاب بالدرجة نفسها لتمسك المرأة الفقيرة به

* إنّ كثيراً من المحجبات لا يلتزم بالسلوكيات الدينية، وعلى العكس فإنّ كثيراً من السافرات يلتزم بها، وهذا دليلٌ على أنّ الحجاب ليس شرطاً ومعيّاراً للالتزام الأخلاقي.
المنافسة:

الإسلام ينظر إلى الحجاب ككلّ لا يتجزأ؛ بحيث يراعي بعديه المادي والمعنوي معاً (فهناك حجابٌ ماديٌّ وحجابٌ معنوي)؛ نظراً للتفاعل الوثيق فيما بينهما، فهو من جهة يحمّص، وبشدة، على الالتزام بالحجاب المعنوي العاصم للمرأة من الضلال والانحراف والسقوط الأخلاقي والعملي معاً؛ لأنّ من شأن هذا الحجاب وطبيعته، إيجاد المناعة النفسية إزاء كلّ ما يهدّد المرأة من انحرافات أو سقطات أخلاقية وغير أخلاقية، وهذه المناعة هي التي تكمن وراء التشريع

الإسلامي للحجاب المادي؛ حيث إنَّه ومن جهة أخرى يشدّد على الالتزام بالحجاب المادي باعتباره نوعاً من أنواع الوقاية التي تحمي الرجل والمرأة من التأثير بالأوضاع التي يمكن أن تنعكس سلباً على روحية الإنسان وأخلاقيته. من هنا، فإنّ ترك الحجاب المادي يهدّد الحجاب المعنوي؛ باعتبار أنّه يبيّئ الأجواء لاهتزاز الحجاب المعنوي وتضعيفه، وبالتالي لانحرافه وسقوطه، والعكس صحيح، فالمقولة السابقة لا تعفي المحجبة من ضرورة الالتزام بأخلاقيات الرسالة، ولا تعفي السافرة من ضرورة الالتزام بالحجاب الإسلامي.

*** العقبات الاجتماعية التي تواجه المرأة المسلمة إزاء لبسها للحجاب**
النظرة التي تعتبر الحجاب موروثاً اجتماعياً، وليس التزاماً شرعياً علينا كمسلمات التعبد به.

المناقشة:

- ١- أنتجت لنا هذه النظرة ظاهرة غريبة في مجتماعتنا هي ظاهرة الحجاب غير الشرعي إذا صحّ التعبير، وهي ثقافة خطيرة انتشرت بصورة واضحة - للأسف - في واقعنا المعاصر، وما طفرات التجديد والتعديل والتطوير في طريقة لبس الحجاب من لفّ الرأس بقطعة قماش، ومن ثمّ تغطيتها بشيلة، وإظهار الأذن، وحلقات الأذن إلّا شاهد على ذلك، فالحجاب الإسلامي من المفروض أن يُلقى هالة من الستر، وبالنتيجة الحشمة على المرأة، إنّما ما نراه اليوم من ازدواجية في لبس الحجاب حيث يجمع ستر الشعر مع ألبسة ضيّقة وألوان فاقعة وصرعات جديدة هي أبعد ما يكون عن فلسفة الحجاب، بل على العكس يتمّ استخدام الحجاب كأداة للزينة وليس كأداة ساترة للزينة
- ٢- إنّ التربية والمفردات المستخدمة لدى أولياء الأمور كان لها دورٌ كبيرٌ في الخلط بين الموروث الاجتماعي والالتزام الديني، فحلّت ألفاظ مثل عيب مقابل

لا يجوز وحرام، ولباس عصري مقابل لبس شرعي تنطبق عليه المواصفات.
 ٣- إنَّ معيار الجمال الحقيقي أصبح في مجتماعتنا هو بالذات المعيار الغربي المستورد، إنَّه المعيار المستبطن حتَّى في قسم كبير من قطاع النساء المحجبات، ومما يدلُّ على ذلك عند وجود المحجبة في بيئة نسائية (كالأعراس وغيرها) تجدها قد تحوَّلت بقدره قادر لا امرأة أخرى مطابقة لنموذج المرأة الجميلة التي تفرسها عليها رقصات الفيديو كليب وأفلام السينما من طريقة تلونها ولباسها العاري ومشيتها، ففي نظر هذه المرأة أنَّ الحجاب حقاً يقبحها وأنها أجهل بدونه، وهذا ما يدفعها للتمرد عليه وابتكار طرق وأساليب جديدة تقرب الحجاب من الصورة الجميلة المرتسمة في ذهنيها، وسيظل الحجاب في عقليتها ليس زياً جميلاً، وإنَّما هو يرتدى طالما لا يمكن ارتداء (الزي الجميل) ! وهذه الثقافة خطيرة على مفهوم وفلسفة الحجاب.

٤- إنَّ عملية تطور أو تغير شكل الحجاب هي انعكاس لواقع اجت ماعي يفتقر إلى المضمون (كمفهوم الستر)، ويركز على الشكليات (الموروثات الاجتماعية لا العقائدية).

* ظهور تيارات متشددة فرضت نموذج متشدد للحجاب الإسلامي، مما ولد لدى البعض ردّة فعل معاكسة، ونفور من مفهوم الحجاب.
 المناقشة:

١- الفكر الإسلامي المعاصر لا زال يع اني بصورة عامة من صعوبات في التقدّم بقضية المرأة على مستوى الفكر والواقع، هذه الصعوبات أساسها هواجس مقلقة منشؤها الواقع الاجتماعي والأخلاقي الذي يحيط بالمرأة في العالم العربي والإسلامي، ومن تأثيرات النموذج الغربي وطغيانه في العالم، فقد دفعت هذه الهواجس الاهتمام الأكبر نحو حماية المرأة وصيانتها حتى لو كان ذلك على حساب حقوقها التي كفلتها لها الشريعة، وتداخل مع هذه الهواجس

الموروث الاجتماعي والموروث الديني مما أنتج لنا نماذج متشددة عكس فهمًا خاطئًا للإسلام وللحجاب، وللإنصاف فإنَّ هناك أدبيات قدمت فكراً متجدداً يحمل الدقة والأصالة والموضوعية حول المرأة.

٢- كلا التوجهين (حالة التشدد في الستر وحالة العري) يعكس اختصاراً للمرأة في جسدها وإجحافاً بدورها الإنساني الاستخلافي.

٣- استغلال أعداء الإسلام هذه الفترة التي تعرّضت فيها المرأة المسلمة إلى الظلم والتعسف في إدارة الأسرة وسلبها لحقوقها التي منحها إياها الإسلام، وبدؤوها بدعوات تحرير المرأة من الظلم والاستعباد، وإرجاع حقوقها إليها بعبارات ملونة ومزخرفة التي قد تكون سبباً في خلع المرأة للحجاب

٤ - ربط بعض الأدبيات الإسلامية كرامة المرأة بالعفة والطهارة بعيداً عن الحقوق، بينما ربطت الأدبيات المغايرة كرامة المرأة بحقوقها بعيداً عن العفة والطهارة مما أربك المرأة المسلمة وجعلها تنظر للحجاب كقيد يمنعها من أخذ حقوقها.

* احتجاج الكثير من معارضي ارتداء الحجاب على ضرورة وجود قناعة شخصية وحرية فكر لدى الملكفات عند ارتدائهن الحجاب وعدم فرضه عليهن بحجة أنّهن إذا لم يقتنعن به سيخلعنه عند الكبر، ثم يردفون قائلين : وأي حرية شخصية تملكها فتاة في التاسعة أمرتها أمها بالحجاب؟!

١ - نعم، نحن ندعو للتفكير وتفعيل دور العقل، فثلث آيات القرآن تدعونا للتأمل، ولكن ما هي المساحة المسموح بها للعقل بالتدخل فيها؟ هناك توجه باعتناء العقل في كلّ إيديولوجياتنا، ولكن ماذا عن الغيب طيت؟ وماذا عن التشريع؟ وماذا عن ثوابتنا؟ نعم نستطيع الاستشهاد بالأدلة العقلية على ضرورة الحجاب، ولكن نحن كمسلمين لا بد لنا أولاً من أن نعرّز ثقافة الالتزام الديني لدى أطفالنا واستعمال المفردات الدينية التي تجعل فتياتنا يفكرن

بالحجاب تفكيراً مماثلاً لتفكيرهنّ بالصلاة والصوم كواجب شرعي يجب الالتزام به.

٢- إنّ الإسلام كلّ لا يتجزأ؛ فكوني آمنت بشهادة أن لا إله الله وأنّ محمداً رسول الله، فالحجاب من ضمن المنظومة الإسلامية لا أسمح لهذه المساحة بالأخذ والردّ فيها ضمن المجتمع المسلم . نعم لأجعلها ضمن حواراتي مع الأديان الأخرى، ومع تثقيف الأمهات لمحاورة بناتهنّ، ولكن لأعزز في ثقافتي أنّ هناك مساحة في منظومتي الإسلامية ليس بها أخذ وردّ

٣- لو فتحت كلّ الساحة بجميع أبعادها للعامة بمختلف مستوياتهم للنقاش فلن أضمن صحة سير الحوار الهادف، ولأصبحت الساحة فوضى يدلي كل من هبّ ودب فيها، وقد كفانا الله مشقة ذلك بإيكال هذا الأمر لثلة من الناس هم العلماء والفقهاء.

* إلزام بعض المؤسسات للعاملات فيها بزيّ لا يراعي الضوابط الشرعية المناقشة:

تعتمد الكثير من المؤسسات وخاصة التي تتطلب تعاملًا مباشرًا مع الزبائن هيئة معيّنة للموظفات مخالفة للحجاب الإسلامي، وقد يتعدّى ذلك إلى تفضيلهم للسافرة على المحجبة، أو بتوجيه الموظفات لممارسة ما يخدش حجابهنّ كوضع المكياج أو تقصير القميص وتضييق البنطال، فتضطرّ الفتاة لتلبية شروط مرؤوسيتها على حساب حجابها في مجتمع فرضت فيه ثقافة الاستهلاك والحالة المعيشية خروج المرأة لمزاولة العمل.

* الضغوط النفسية الذي يفرضها المجتمع على المتحجبات المناقشة:

١- هذه الضغوط نابعة مما ترسّخ في ذهنية الكثيرين كون المرأة المحجبة امرأة متخلفة وغير متحضرة، وقد تكون غير متعلمة أيضاً، فرضت هذه النظرة توجه

الكثيرات لنزع الحجاب أو لبس حجاب عصري كما يسمونه دفاعاً ولدرء الشبهة عن أنفسهن لدرجة أنه قد يفاجأ المتعامل مع المحجبة كونها تحيد اللغة الإنجليزية مثلاً، أو أن لديها إلماماً بعلوم مثل الصحة والهندسة والتكنولوجيا.

٢- امتدت هذه النظرة حتى إلى الشاب المقبل على الزواج، فهو يرغب أن تكون زوجة المستقبل مرتدية للحجاب ولكن بأسلوب عصري يدرأ عنها شبهة التخلف والجهل مما حدا بالكثير من الفتيات للاستجابة لهذه المتطلبات خوفاً من العنوسة.

التوصيات:

- ١- نشر الوعي بالتحديات التي تواجه المرأة المسلمة حتى نتمكن من التعامل معها بإيجابية تمنحنا القدرة ليس على البقاء فقط في عالم لا يقبل بالضعاف، ولكن يؤهلنا لأن نقوم بدور إيجابي في صياغة مفردات العالم الجديد من أجل أن تبقى أمتنا موحدة وقادرة على المهادرة الحضارية الإسلامية المتميزة.
- ٢- نشر ثقافة وفلسفة الحجاب الإسلامي أو اللباس الشرعي عن طريق حملة إعلامية تشتمل على:
 - ✓ الندوات والمحاضرات في أماكن العبادة والمدارس ومراكز الأحداث والسجون.
 - ✓ إعداد كتيبات توعية ووضعها في أماكن الانتظار كالمستشفيات والجامعات والعيادات الخاصة.
 - ✓ إعداد ملصقات ووضعها في الشوارع والطرق.
 - ✓ الدعوة لتعزيز مفهوم الحجاب في المناهج الدراسية.
 - ✓ تنظيم لقاءات شبابية لمناقشة الموضوع في المجمعات التجارية أو في الحدائق العامة مع الاتفاق مع بعض القنوات الفضائية لنقلها.

✓ نشر مقالات وكتابات حول الحجاب في الصحف والمجلات النسائية بمختلف توجهاتها.

٣- تعزيز ثقة المحجبة بنفسها وبحجابها عن طريق عدّة آليات، منها

○ تشجيعها حتى ولو بالكلمة الطيبة عند رؤيتها صامدة في بيئة ضاغطة ومعاكسة.

○ تثقيفها بفكر وفلسفة الحجاب وتحسينها.

○ التركيز على الفئة الشبابية المتميزة كالم تفوقات مثلاً أو الموهوبات؛ حيث إنّ فرض وصولهن لمراكز قيادية في المجتمع أفضل، وتبينهن ووضع برامج لتعزيز الحجاب لديهنّ، فعند التزام مثل هذه الشخصيات باللباس الشرعي يعزّز ذلك الثقة عند باقي الفتيات بحجابهن.

○ الاهتمام بالإعلاميات وإدخال فتيات ملتزمات بثقافة الحجاب هذا المضمار؛ لما سيكون له من مردود إيجابي على المجتمع.

○ محاولة الضغط على المؤسسات بعدم إلزام الموظفات لديهنّ بلباس لا يحمل مواصفات اللباس الشرعي.

٤- الدعوة لخطاب إسلامي معتدل يعزّز مفهوم الحجاب بأطره الشرعية الأصيلة والدقيقة حتى يتعزز انتماء المرأة لواقعها الديني، ولا تندفع باتجاه التحرّر على النمط الغربي.

٥- تعزيز ثقافة تربية الفتيات على اللباس الشرعي كالتزام ديني وأمر شرعي من ربّ العالمين، وليس كموروث اجتماعي.

٦- تعزيز جمالية الحجاب في ثقافة الجيل الشبابي عن طريق مشروع إعلامي مدروس يعرض في قنوات فضائية معتبرة لدى الجيل الشبابي.

* * *

الهوامش:

(١) الحميري، عبد الله بن جعفر، قرب الإسناد: ٨٢، نشر: مؤسسة آل البيت عليه السلام، الطبعة الأولى: ١٤١٣، قم.

سيدة من إيران

نصرت أمين الإصفهانية طاب ثراها

□ إعداد: آلاء دقيق

فلو كنّ النساء كمثّل هذه لفضّلت النساء على الرجال
فلا التأنيث لاسم الشمس عارٌ ولا التذكير فخرٌ للهِلال

الحديث عن المرأة ممّا يُستصعب؛ إذ اجتمعت فيها جهاتٌ وأبعادٌ متعدّدة،
فهي أمٌّ تحت أقدامها الجنّة، وزوجةٌ تجاهد في حسن تبعلها، وأختٌ تكون عوناً
لأخيها، وابنةٌ تعدّ نعمة من نعم الله تعالى ... ومع كلّ ذلك فهي ريجانة وليست
بقهرمانة.

فكيف إذا تزاхت هذه الصفات مع العلم والفضل والحديث والحكمة
والعرفان وتفسير القرآن ...، فحينها تشتدّ الصعوبة، بل يتعذّر الحديث
وجميع ذلك قد اجتمع في المرأة النموذج لهذا العدد، أعني السيّدة نصرت
أمين الإصفهانية.

وفي هذه الوريقات نريد أن نسلط الضوء على هذه المرأة النموذج؛ لتكون
أسوةً لنساء عصرنا وقدوة.

الهوية الشخصية:

عُرِفَتْ بأسماء وكنى وألقاب متعددة، إِلَّا أَنَّ اسمها الَّذِي سَمَّاهَا بِهِ والدها هو (نُصْرَتُ)، وذكرته هي في عدَّة مواضع، منها في إجازتها لتلميذتها السَّيِّدة (همايوني).

وذكرها بهذا الاسم عددٌ من الأعلام الَّذين مدحوها وأثنوا عليها، منهم المغفور له آية الله العظمى السَّيِّد مرعشي نجفي رحمته الله. وعُرِفَتْ أيضاً بـ (أُمينة)، و (أُم الفضل)، و (وَأُم الفضائل)، و (بانوي إيراني)، أي: سَيِّدة إيرانية.

والدها: هو السَّيِّد مُحَمَّد علي المعروف بـ «أَمين التَّجَّار»، ابن السَّيِّد حسن، ابن السَّيِّد مُحَمَّد، ابن العلامة الزاهد السَّيِّد معصوم الحسني الخاتون آبادي، ابن السَّيِّد عبدالحسين الخاتون آبادي مؤلِّف الكتاب التَّاريخي المعروف والمعتمد عليه «وقائع السنين والأعوام».

عُرِف والدها بتدوينه وتقواه وحبِّه لرجال العلم، وهو من أكبر تجَّار إصفهان في ذلك الوقت، وله مشاريع خيريَّة كثيرة. والدتها: بنت الحاج السَّيِّد مهدي الملقَّب بـ «جناب»، والتي كانت على مكانة عالية من النزاهة والعقَّة وحبِّ الخير.

زوجها: ابن عمِّها السَّيِّد ميرزا آقاي أمين التَّجَّار، والملقَّب بـ «معين التَّجَّار». أسرتهما: تنحدر هذه العلويَّة من أسرة السَّادة الخاتون آباديَّة، وهي من أشهر الأسر في إيران، حيث جُمِعَتْ بين العلم والسياسة والثروة. فقد لمع منها العشرات من العلماء والفقهاء والأصوليين والمفسِّرين والنسابة وذوي المناصب السياسيَّة العالية. فلا يكاد يخلو من ذِكرهم كتاب يضمُّ تراجم العلماء والمؤلِّفين، خصوصاً في القرنين الأخيرين.

مولدها ونشأتها العلمية:

ولدت في مدينة إصفهان سنة ١٣٠٨ هـ، ونشأت وترعرعت في أحضان والديها، في بيت ملؤه الإيمان والتقوى وحب العلم والعلماء، وفي بيئة بُنيت على أساس الولاء المطلق لأهل البيت عليهم السلام.

ولا شكّ أنّ هكذا بيت وهكذا بيئة قد رسما لهذه المولودة طريقها، وكانت لهما كبير الأثر في مسيرة حياتها المباركة.

بدأت بتعلّم القرآن الكريم ودراسة الكتب الفارسيّة، وهي في الرابعة من عمرها، وتزوّجت بابن عمها وهي في الخامسة عشر ربيعاً من عمرها. لكنّ واجبات البيت وتربية الأطفال لم تمنعها من التعلّم وقراءة الكتب والاستزادة من المعرفة والثقافة الإسلاميّة، بل استمرّت في الانتهال من المعارف الإسلاميّة رغم الظروف السياسيّة الصعبة التي كُنت تعيشها كلّ الأسر المتديّنة، وتعاني منها كلّ فتاة تريد الاستمرار في دراستها الإسلاميّة. فالحاكم الظالم رضا شاه كان قد بدأ حملته الشرسة في منع الحجاب الإسلامي، وفرض الثقافة والعادات الغربيّة على المجتمع الإيراني المسلم.

فبدأت رحمها الله وهي في العشرين من عمرها، بقراءة المقدمات الأدبيّة، وجانباً من أوائل الفقه والأصول وأوليات العلوم العقليّة عند أفاضل عصرها كالشيخ علي الي زدي المعروف بالحاج آخوند زفره اي، والميزا علي أصغر الشرّيف، والحاج آقا حسين نظام الدين الكجوي، والسيد أبي القاسم الدهكرد.

وحينما أتمّت مرحلة ما يسمّى في الحوزات العلمية بمرحلتها (المقدمات والسطوح)، بدأت بدراسة الفقه والأصول العالين والعلوم العقليّة على كبار الأساتذة في ذلك الوقت كالشيخ محمد رضا الإصفهاني المسجد شاهي المعروف بأبي المجد، والسيد محمد النجف آبادي، والسيد علي النجف آبادي. وهذا الأخير هو أكثر من استفادت منه علماً وعملاً.

كانت رحمته جادة في تحصيل العلم غاية الجدّ ، ومداومة على المطالعة والقراءة ، شديدة المواظبة على الحضور لدى الأساتذة في الساعات المعيّنة للدراسة ، لم تفوت الفوصة لتحصيل العلم واكتساب الآداب ، ولم تثن عزمها الموانع التي كانت تعترض طريقها في كثير من الحالات .

نقل أستاذها السيّد علي النجف آبادي أنّه سمع أنّ طفلاً لها قد توفي ، فظنّ أنّها سوف تنقطع عن الدرس لمدة طويلة حداداً على فقيدتها ، كما تقتضيه عواطف الأمّهات ، ولكن خادمها جاء بعد يومين يطلب منه الاستمرار في الدرس ، فتعجّب الأستاذ من هذا الالتزام بالدرس والمقاومة الروحية في الشدائد والمصائب .

وحينما بلغت الأربعين من عمرها ، كانت قد استكملت دراستها الإسلامية ، ووصلت إلى مرحلة عالية تؤهلها لاستنباط الأحكام الشرعية ، فقد امتحنها أجلة الفقهاء في عصرها بأسئلة كتيبة ، فكانت أجوبتها قوية جداً بحيث أثبتت جدارتها العلمية ومؤهلاتها العالية في استنباط الأحكام الشرعية ، فكتبوا لها إجازات صرّحوا فيها بأنّها بلغت درجة الاجتهاد ، وعظّموا مكانتها من العلوم الدينية ، ومن هؤلاء الفقهاء السادة المراجع : السيّد أبوالحسن الإصفهاني ، والسيّد الاصطهباناتي ، والشيخ محمد كاظم الشيرازي ، والشيخ عبدالكريم الحائري اليزدي .

وقد قضت هذه العلوية العالمة النصف الثاني من عمرها بالتدريس والإفادة وتربية الطالبات الدارسات للعلوم الدينية ، وأصبح بيتها في إصفهان منتدى للنساء العالمات يفتدن إليها من مختلف المدن وعلى مختلف المستويات الثقافية ؛ لغرض التعلم والاستفادة ممّا آتاه الله من العلم والمعرفة ، والاستشارة في أمور دينهن وما ألقى على عاتقهن من المسؤوليات .

واشتهرت شهرة كبيرة في آفاق إيران وغيرها من المراكز العلمية ، وعرفها

كبار العلماء والفقهاء، وأصبحت لها معهم علاقات علمية وطيدة؛ حيث كانوا يأتون إلى بيتها لأجل أن يتباحثوا معها في العلوم الإسلامية، أو يراسلونها مستفسرين عن رأيها في بعض الأحكام الشرعية، منهم المفسر الكبير السيّد محمد حسين الطباطبائي، والفيلسوف الشهير الشيخ محمد تقي الجعفري، والعلامة المجاهد الشيخ عبدالحسين الأميني.

وقد سعت ﷺ في إنشاء مدارس ومؤسسات لتربية البنات تربية إسلامية صحيحة، وكانت تتعهدّها بنفسها وترعاها، فمن مؤسساتها مدرسة للبنات عُرفت بـ «ديرستان دخترانه أمين»، و «مكتب فاطمة»، حيث تخرج منها نساء فاضلات تولين التدريس وبعض الشؤون العلمية والدينية للنساء في عصرها وبعد وفاتها.

ومن صفات هذه العالمة المترجم لها أنّها كانت منذ بدايات نشأتها العلمية تميل إلى التفكير والتدبر في الآفاق والأنفس ودرك الحقائق عن طريق العقل والكشف، لا عن طريق النقل من الأفواه والتقليد. فساقها هذا الميل النفسي إلى ما يُسمّى بالعرفان. واشتدّ عندها عند ما درست الفلسفة والعلوم العقلية، وظهرت هذه الظاهرة بارزة في كتابه «الأربعين الهاشمية» و «النفحات الرحمانية».

ومن صفاتها أيضاً التواضع الكبير ونكران الذات، فهي مع مقامها الرفيع في العلم وموقعها في المجتمع الإسلامي، كانت تتجنب وسائل الإعلام وما يؤدي إلى الشهرة، فتجيب الذي يسأله عن حياتها وعلمها بأجوبة جزئية، حتى إنّها طبعت بعض مقالاتها وكتبها باسم «بانوي إيراني» أي: سيّدة إيرانية. وقد ابتليت ﷺ بفقد أطفالها، حيث أنجبت ثمانية أطفال، لم يعيش منهم إلا واحد.

أساتذتها وشيوخها:

تلمّذت رحمتهما على أكابر علماء عصرها في إصفهان، وشهد مراجع التقليد في النجف الأشرف وقم المقدسة باجتهادها، وأجازها بعض الفضلاء بالرواية عنه، منهم:

- السيّد إبراهيم الحسيني الشيرازي الاصطهباناتي : منحها إجازة اجتهد ورواية في شهر صفر سنة ١٢٥٤ هـ..
- السيّد أبو الحسن الإصفهاني: منحها إجازة اجتهد، ذكرها صاحب كتاب المسلسلات في الإجازات.
- السيّد أبو القاسم الدهكردي : قرأت عليه بعض المقدمات الأدبية وأوائل الفقه والأصول.
- الحاج آقا حسين نظام الدين الكچوئي : قرأت عليه أوائل الفقه والأصول والعلوم العقلية.
- السيّد شهاب الدين المرعشي النجفي: منحها إجازة اجتهد ورواية.
- الشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي : منحها إجازة اجتهد ورواية، جعلها في ذيل إجازة الشيخ محمد كاظم الشيرازي له.
- الميرزا علي أصغر الشريف: قرأت عليه بعض المقدمات الأدبية، وجانباً من أوائل الفقه والأصول، وأوليات العلوم العقلية.
- السيّد علي النجف آبادي: تلمّذت عليه في العلوم العقلية والفقه والأصول العالين ، وهو ألّثّر من استفادت منه علماً وعملاً.
- الشيخ علي اليزدي ، المعروف بالحاج آخوند الزفره اي ، قرأت عليه بعض المقدمات الأدبية وجانباً من أوائل الفقه والأصول وأوليات العلوم العقلية.
- الشيخ محمد رضا أبوالمجد الإصفهاني : حَضَرَتْ بحثه العالي، ومنحها إجازة رواية، سوف نأتي على ذكرها.

- الشيخ محمد كاظم الشيرازي: منحها إجازة اجتهد ورواية في السابع من شهر صفر سنة ١٣٥٢ هـ، نأتي على ذكرها أيضاً إنشاء الله.
- السيّد محمد النجف آبادي: حَضَرَتْ بحثه العالي.
- الشيخ مرتضى المظاهري الإصفهاني: حَضَرَتْ بحثه العالي، ودرست أكثر علومها عليه وعلى السيّد علي النجف آبادي المتقدّم ذكره.

تلامذتها والرايون عنها:

- تلمذ عليها عددٌ غفيرٌ من النساء المؤمنات، خصوصاً في مدينة إصفهان، كما استجاز منها بالرواية عنها عدد من العلماء الأعلام، وأفاضل الحوزة العلمية في النجف الأشرف وقم المقدسة، منهم:
- (١) العلوية الفاضلة افتخار أمين، صاحبة كلب (الأربعين حديثاً)، تلمذت على يديها كثيراً، واختصت بها.
- (٢) السيّدة زينة السادات همايوني، تلمذت عليها ولازمتها قرابة نصف قرن. وهي من أقرب وأخصّ تلميذاتها، وقد منحتها إجازة رواية في السابع من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٥٥ هـ، أدرجت في آخر المقال.
- (٣) الشيخ زهير الحسون: منحته إجازة رواية قبيل وفاتها بفترة قصيرة.
- (٤) السيّد شهاب الدين المرعشي النجفي، منحته إجازة رواية في شهر محرم الحرام سنة ١٣٥٨ هـ.
- (٥) السيّد عباس الكاشاني، منحته إجازة رواية في جمادى الآخرة ١٣٨٣ هـ.
- (٦) الشّيخ عبد الحسين الأميني، منحته إجازة رواية.
- (٧) الشيخ عبدالله السيّتي: منحته إجازة رواية.
- (٨) العلويّة فخر السادات الأبطحي: تلمذت عليها مدّة طويلة من الزمن.
- (٩) السيّد محمد علي الروضاني: منحته إجازة رواية.

١٠) السيّد محمد علي القاضي التبريزي: منحه إجازة رواية.

مؤلفاتها:

كتبت في علوم مختلفة على ما يظهر من العنوين التالية:

- (١) الأربعون الهاشمية، عربي، وهو أول تأليفها، انتهت من تأليفه في التاسع من محرم سنة ١٢٥٥ هـ، وطبع الطبعة الأولى سنة ١٢٥٦ هـ، وطبع بعد ذلك عدّة مرات. وترجمته إلى الفارسية تلميذتها السيّدة همايوني
- (٢) اقتباس وترجمة تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكويه، انتهت منه في التاسع عشر من شهر رجب ١٢٦٨ هـ، وطبع في طهران.
- (٣) جامع الشتات، عربي، وهو عبارة عن أجوبتها عن الأسئلة التي كانت ترد عليها، طبع في إيران.
- (٤) حاشية الأسفار الأربعة، مخطوط.
- (٥) حاشية فرائد الأصول، مخطوط.
- (٦) حاشية المكاسب، مخطوط.
- (٧) مخزن العرفان في تفسير القرآن، يقع في خمسة عشر مجلداً، طبع مراراً.
- (٨) أخلاق وراه سعادات (الأخلاق وطريق السعادة) طُبِع ثلاث مرات في إيران.
- (٩) روش خوشبختي وتوصية به خواهران إيماني (طريق السعادة ووصية إلى الأخوات في الإيمان)، طبع سبع مرّات.
- (١٠) سير وسلوك در روش أولياء وطريق سير سعداء (السير والسلوك في منهج الأولياء وطريق سير السعداء، طبع ثلاث مرات
- (١١) مخزن اللئالي في مناقب مولى الموالى، طبع مرّتين
- (١٢) معاد يا آخرين سير بشر (المعاد، أو آخر مسير البشر)، طبع أربع مرّات

في طهران وتبريز.

(١٣) النفحات الرحمانية في الواردات القلبية، عربي، طبع في إصفهان سنة ١٣٦٩ هـ، مع مقدمة للشيخ عبدالله السبتي

إطراء العلماء عليها:

أطراها ومدحها كل من ترجم لها وذكر سيرتها، ابتداء من أساتذتها ومشايخها، حتى أفاضل علماء عصرنا هذا، نذكر منهم:

- السيد إبراهيم الحسيني الشيرازي الاصفهاني رحمته الله، قال في إجازته لها: «فإن السريّة الجليلة النبيلة، الحسبية النسيبة، العاملة العاملة، الجامعة للمعقول والمنقول، فريدة الدهر، وحنة نساء العصر ... بمن صرفت مدة من عمرها الشريف، وبرهة كافية من دهرها المنيف، في تحصيل العلوم الشرعية، والمعارف الدينية، وتكميل مكارم الأخلاق السنية، وتنقيح القواعد الأصولية والفقهية، حتى فازت بالمراتب العالية من العلم والفضل، وصارت ممن يشار إليها بالبنان - إلى أن قال بعد ذكر امتحانه لها - وبلوغها إلى درجة الاجتهاد، فلها العمل بما استنبطته من الأحكام على النهج المألوف بين الأعلام، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من الرجال والنساء».

- الشيخ محمد رضا النجفي الإصفهاني (أبو المجد) رحمته الله، قال في إجازته لها: «السيدة الشريفة العالية، والدة المكنونة الغالية، ثمرة الشجرة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، وزهرة روضة بني الزهراء، ربة المفاخر والمناقب، وعقيلة آل أبي طالب، المقتنية آثار آبائها وأجدادها، والجامعة بين طريق المكارم وتلاذدها، والآخذة بطرفي المجد من الحسب والنسب، والبالغة منه بأعلى الرتب العالية، الفاضلة الفقيهة الحكيمة العارفة الكاملة، ذات الشرف الباذخ، أم الفضل ست المشايخ - إلى أن قال بعد ذكر كتابها الأربعين الهاشمية - فكم من كنز خفي من

الأسرار أظهرته، ومشكل من الأخبار فسّرتَه، ومعضل أراجت عن الإعضال، وأصابت الصواب إذا اختلفت الأقوال، فلا غرو فأهل البيت أدرى بما فيه، وأعرف بظاهره وخافيه... فكيف بمن أرخت سترها، ولم تبارح خدرها، فيحق أن يفتخر بها ربّات الخدر والحجال على لابسِ العمام من الرجال.

- السيّد شهاب الدين المرعشي النجفي رحمته الله، قال في الإجازة الكبيرة: «العالمة الجليلية المحدثّة، المتكلمة، الفقيهة، الأصولية، والحكيمة».

وقال في كتاب المسلسلات في الإجازات: «هذه المرأة تعدُّ من نوايغ عصرنا، وأغاليط الدهر، ألفتها عالمة متبحرة في العقلية والسمعية...، وأمر هذه الشريفة مما يقضي منه العجب في هذا العصر، فهي فريدة العصور ونادرة الدهور، حجة على نساء العصر، وآية لباري الدهر. والغريب في أمرها أنها مع قيامها بأمر الزوجية وإدارة المنزل وتربية الأطفال، نالت هذه المراتب السامية العالية».

وقال أيضاً في موضع آخر: «الشريفة الفقيهة، الأصولية، الحكيمة، المحدثّة الجليّة، حجة الله على النساء، بل الرجال، نابغة العصر، فخر المخدرات، زين العلويات، درّة صدف الطهارة والأصالة، يتيمة الزمان، العلوية (أمينة)، استجرت عنها - مع أنني كنت مجازاً من تمام مشايخها - استطرافاً؛ حيث إنّها فريدة عصرها في النساء، وكان السلف الصالحون منّا يُميزون ربّات الحجال ويستجيزون عنهنّ، كما هو واضح لمن تتبّع معاجم التراجم».

- الفيلسوف الكبير الشّيخ محمد تقي الجعفرى رحمته الله، قال ما ترجمته: «عند ملاحظة ما لدينا من آثار السيّدة أمين العلمية، يُقطع بأنّها من العلماء البارزين عند الشيعة، وأنّ منهجها لا يختلف عن منهجهم، بل أنّها من نخبة العلماء؛ لحصولها على المقامات الروحية العالية، التي يولد من حظي بها ولادة جديدة في حياتها، مضافاً إلى ما أُعطي نتيجة اكتساب العلم».

- السيّد عباس الكاشاني رحمته الله، قال: «وصفوة المقال: لعلنا لا نغالي لو قلنا: إنّ هذه السيّدة الجليلة النبيلة، والمخدّرة العظيمة الكريمة، هي تريكة بيت الوحي والعصمة والرسالة، فإنّها حسنة من حسنات العصر، وفخرة من مفاخر الدهر، ومعجزة من معجزات الزمن، وجوهرة يتيمة، ودرة وحيدة، يفتخر التاريخ بها . وإنني كنتُ أسمع عن عظمة هذه النابغة الفريدة، فاشتقتُ إلى زيارتها، ولما شاهدتها، وتشرفتُ بالمثل بين يديها، رأيتهَا أعظم وأعظم بكثير عما كنتُ أسمع عن هذه الفذلّة العظيمة، ودارت بيننا محاورات طريفة لطيفة، فاستفدت منها ومن علمها الجم».

- السيّدة زينة النساء همايوني، قالت ما ترجمته: «كانت عالمة عارفة، صاحبة ذوق، متواضعة، حسنة الأخلاق، ذات هيبة ووقار، تلازم التقوى وقلة الكلام وعدم التجمّل في حياتها الخاصة، لها ولاء شديد لأهل البيت عليهم السلام، تكثّر المطالعة والتفكير، أمضت سنين طويلة في بيتها مدرّسة ومُرشدة للنساء، تعظهنّ وتعلمهنّ المبادئ الإسلامية».

وقالت أيضاً: «أكثر نساء إصفهان المشتغلات بالشؤون الدينية والإرشاد المذهبي من تلامذتها المستفيدات من علمها، المهدبات بتهذيبها . انتشرت سمعة علمها وتقواها بين النساء الإيرانيات حتى تحمّل كثيرٌ منهنّ المصاعب للوصول إليها، والحضور لديها؛ لأخذ العلم واكتساب المعرفة، بل زارها كثيرٌ من النساء من مختلف البلدان البعيدة والقريبة لحلّ مشاكلهنّ الدينية والعقائدية^(١) .

وفاتها ومدفنها:

توفيت رحمته الله عن عمر قارب السبعة والتسعين عاماً، في ليلة الإثنين الليلة الأولى من شهر رمضان المبارك سنة ١٤٠٣ هـ، وشيّعت تشيعاً مهيباً، حضره العلماء والفضلاء ومختلف الطبقات المؤمنة، ودفنت في مقبرة أسرتها في تحت

فولاذ، وبُني على قبرها قبة فخمة ، أصبحت مزاراً يقصده أهل إصفهان وغيرها. ورثاها جمع كبير من شعراء إيدان بقصائد ومقطوعات شعرية، وأبناها الخطباء، وذكرتها الصحف الإيرانية الصادرة آنذاك.

نموذج من كلامها:

وَمَا يُظْهِرُ بِلَاغَتِهَا وَفَصَاحَتِهَا وَتَسْلُطِهَا عَلَى لُغَةِ الضَّادِ مِنْ نَاحِيَةٍ ، وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ هَذِهِ الْعُلُويَّةُ مِنَ الدَّرَجَاتِ الرَّفِّ يَعَةِ الْعَالِيَةِ فِي الْكِمَالَاتِ النَّفْسِيَةِ، وَمَا خَصَّصَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ كَرَامَاتٍ عَدِيدَةٍ، هُوَ مُقَدِّمَةُ كِتَابِهَا (النفحات الرحمانية في الواردات القلبية)؛ حيث جاء فيه:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الحمد لله الذي أضاء قلوب أوليائه بنوره، فانكشف لهم به أسرار الوجود ، ورشح عليهم من بحر المعارف والعلوم ، وسقاهم بكأس المحبة، فانشرح به صدورهم، فخرجوا بها منحهم من إفاضاته من مضيق عالم الطبيعة وظلمات علائق القيود إلى عالم السعة والنور والسرور . والصلاة والسلام على نبيه وصفيه ومستودع سرّه ، أول الموجودات ومصباح الهداة ، وعلى آله وأهل بيته معادن الإحسان والجود، ولا سيما ابن عمّه ووصيه أمير المؤمنين عليه السلام، الذي جعله الله تعالى بمنزلة نفس النبي صلّى الله عليه وآله، وجعل ولايته ومحبته ولايته ومحبته . وبعد، فلما ورد في الحديث «إنّ الله في أيام دهركم نفحات ألا فترصدوا لها» ، ووجدتُ في نفسي وروعي في بعض الأيام والساعات إشراقات غيبية ليست مسبوقة بأمور كسبية فكرية، تفتنتُ أنّها هي النفحات التي أشير إليها في الحديث، وهي من رحمة ربي ، فأحببت تدوين بعضها الذي بقي في خاطري كي لا أنساها، ويكون تذكرة لي عسى أن أجدّد عندما أتذكرها شكراً.

لا يقال: لا شكّ في أنّ تزكية النفس قبيحة، وهذه المندرجات تتضمن ذلك،

أي: ذكر هذه المطالب - التي ستأتي إن شاء الله تعالى - وتسويدها لا يخلو من تزكية النفس.

لأنه يقال: أولاً: لم كان كل كمال وبهاء إنما يكون في الحق يقية الله تعالى وحده، والممكن في نفسه ليس وبه أيس، أي: الممكن من حيث الإمكان ليس إلا قوة صرفة وعدمًا محضًا، وهو في نفسه فاقد لكل كمال، وكل ما يترأى منه من الكمال والبهاء من تجليات كمال خالقه وبروز أنوار عظمتة (العبد وما في يده كان لمولاه)، ففي إظهار شيء من الكمالات إظهار كمال وجود الحق، وسعة رحمته، وعموم قدرته. وثانيًا: إنما نسلّم ذلك إن لم يتعلّق به غرض عقلائي، وإِنَّمَا الغرض من تسويدها عدّة أمور، كلّ واحد منها كافٍ في تحسينها : أحدها: امتثال قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، فأردتُ أن أحدث بعض ما منحني ربي من السوانح واللوائح والبوارق، التي وردت عليّ من فضل ربي في أيام دهري. وثانيها: إعلان مزيد إحسانه إليّ؛ طلباً للزيادة، لقوه تعالى ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، فإنّ إظهار فضل الله ورحمته نوع من شكره، فكان من النعم التي أنعم بها عليّ معرفته بطريق لا يحتمل خطر التلبس؛ لأنّه سبحانه عرفني نفسه بالوجدان، فاستغنيت عن إقامة البرهان. وثالثها: لما رأيتُ أنّ عموم الناس - إلاّ من شدّ وندر - غفلوا عن تحصيل معرفة الله تعالى والسلوك في طريق مرضاته، ورقدوا في مراقد الجهالة، معتذرين بأنّه لا يمكن لنا معرفة الله تعالى زائداً على القدر الذي أخذناه من الآباء والأمهات والعلماء. وإن سئل أحدهم: لم لا تجهد في تحصيل معرفة الله تعالى؟ يعتذر بأنّ الله تعالى لم يكلّفنا زائداً على هذا القدر الذي آمنّا به، فإنّنا نعلم أنّ لهذا العالم إلهاً واحداً أحداً عالماً قادراً حياً مريداً مدركاً، وهذا القدر من المعارف يكفينّا ولا يلزمنا الغور فيها، بل الغور فيها منه يبيّن عنه. فأردتُ إعلان عموم فضله لكلّ أحد، كي يعلموا أنّ فيضه مبذول لخلقه، ورحمته قريب من المحسنين ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ

﴿لَا يَأْتِيَنَّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]. ورابعها: تنشيط السامعين وترغيبهم في طلب المآرب ، فلما رأيت كثيراً من الناس كذلك ، وعلمت من حالهم أنهم لا يعرفون من العلوم والمعارف إلا اصطلاحات، ومن العبادات والطاعات إلا هيئات وعادات، ورأيتهم قد امتلأت قلوبهم من حب الدنيا وزينتها، وغفلوا عن الحق وطريق معرفته ، أحببت أن أكتب بعض الحالات والإشراقات اللتين اشرفنا أحياناً، أي في بعض الأوقات على قلبي الكدر الظلماني، كي ينظر ناظر فيها فلعله يتنبه أن عرفان الحق ممكن لكل أحد بقدر وسعه وسعة صدره ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩].

نماذج من الإجازات التي حصلت عليها:

إجازة الشيخ محمد كاظم الشيرازي مع تذييل مؤسس حوزة قم:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه. وبعد، فإن شرف العلم لا يخفى، وفضله لا يحصى؛ ولذا اشتاقت إلى تحصيله نفوس، ومن صرفت مدة مديدة من عمرها، وبرهة كثيرة من دهرها في طلبه، السيّدة الجليلة النبيلة، الحسيبة العالمة الفاضلة، غرة ناصية نساء عصرها، وأعجوبة دهرها، الحاجية خانم دامت تأيدياتها، بنت المرحوم المغفور الحاج سيّد محمد علي أمين التجار الأصبهاني طاب ثراه، ولقد استجازت مرّي وأرتنا بعض مصنفها في المسائل الامتحانية من الفقهية والأصولية، ومن الشروح على بعض الأخبار، وبعد ما ثبت بشها دة بعض الأعلام الثقات أنه منها ، كشف عن مراتب فضله وطول يدها في المعقول والمنقول ، وبلوغها مرتبة من مراتب الاجتهاد، فلها العمل بما استنبطتها من الأحكام ع لى الطريقة المألوفة بين الأعلام، ولتحمد الله على هذه النعمة الجليلة والمرتبة العلية، وعليه بالاجتهاد

وسلوك طريق الاحتياط ، وقد أجزتُ لها أن تر وي عني ما صحّت لي روايته بطريقي المتّصلة إلى الأئمة المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين ، والسّلام عليها وعلى كافة إخواني وأخواتي من المؤمن ين والمؤمنات ورحمة الله وبركاته . وقد حرّرت هذه الوجيزة في القبة المباركة العلويّة على مشرفها الصلاة والسّلام والتحيّة في السابع من صفر سنة ألف وثلاثمائة وأربع وخمسين من الهجرة النبويّة ﷺ . الأحقر محمّد كاظم شيرازي.

صحّ ما رّفقه دام تأييده ، والمرجو منها أن لا تنساني من الدعوات الصالحة في مظانّ الإجابات ، كما أنّي لا أنساها منها.

كتبه الأحقر عبدالكريم الحائري.

إجازة السيّد ابراهيم الاصطهباناتي للعلويّة الإصفهانيّة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلوات وأكمل التحيات على أشرف الأنبياء والمرسلين ، وأكمل السفراء والمبلغين محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ، الكهف الحصين وغيث المضطر المسكين ، ولعنة الله على أعدائهم أبد الأبدين ودهر الداهرين . وبعد ، فإنّ السيّدة الجليلة النبيلة الحسينية النسبية ، العاملة العاملة ، الجامعة للمعقول والمنقول ، فريضة الدهر ، وحجة نساء العصر ، الحاجة خانم دامت تأييدها ، بنت المرحوم المبرور الحاج السيّد محمّد علي أمين التجار الأصهباني طاب ثابته ، ممّن صرفت مدّة وافية من عمرها الشريف ، وبرهة كافية من دهرها المنيف ، في تحصيل العلوم الشرعيّة ، والمعارف الدينيّة ، وتكميل مكارم الأخلاق السنيّة ، وتنقيح القواعد الأصوليّة والفقهيّة ، حتى فازت بالمراتب العالية من العلم والفضل العيان ، وصارت ممّن يشار إليها بالبنان ، وقد استجازت من الأحقر ، فاخبرتها في مسائل أصوليّة وفقهيّة ، فأرسلت إليّ بأجوبتها ، وهي - على ما صحّ وثبت عندي بشهادة بعض الثقات الأجلاء من

أُتْمَا مِنْهَا - كَاشِفَةً عَنْ طَوِيلِ بَاعِهَا، وَوَفُورِ أَطْلَاعِهَا، وَوَاجِدَتِهَا لِقَوَّةَ الْاسْتِنْبَاطِ ،
وَبَلُوغِهَا إِلَى دَرَجَةٍ مِنَ الْاجْتِهَادِ، فَلَهَا الْعَمَلُ بِمَا اسْتَنْبَطَتْهُ مِنَ الْأَحْكَامِ عَلَى
النَّهْجِ الْمَأْلُوفِ بَيْنَ الْأَعْلَامِ، وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ،
وَلَنَعْمَ مَا قَالَ:

فَلَوْ كُنَّ النِّسَاءُ كَمِثْلِ هَذِهِ لَفَضَّلْتُ النِّسَاءَ عَلَى الرِّجَالِ

فَلَا التَّأْنِيثَ لِاسْمِ الشَّمْسِ عَارٌّ وَلَا التَّذْكِيرَ فَخْرٌ لِلْهَلَالِ

فَلْتَحْمَدِ اللَّهُ عَلَى مَا أَعْطَاهَا مِنَ الْفَضْلِ وَالْإِنْعَامِ، وَأَوْلَاهَا مِنَ النِّعَمِ الْجِسَامَ،
وَقَدْ أَجَزْتُ لَهَا أَنْ تَرْوِيَ عَنِّي كُلَّ مَا صَحَّحْتُ لِي رَوَايَتَهُ وَجَازَتْ لِي إِجَازَتَهُ
بِطَرَقِي الْمُنْتَهِيَةِ إِلَى الْمَشَايِخِ الْفَخَامِ، وَأَرْبَابِ الْجَوَامِعِ الْعِظَامِ ، أَعْلَى اللَّهِ تَعَالَى
مَقَامَهُمْ فِي دَارِ السَّلَامِ ، سَيِّمًا الْمُوَدَّعَةَ فِي الْأَرْبَعَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الَّتِي عَ لِيهَا الْمَدَارُ فِي
الْأَعْصَارِ وَالْأَمْصَارِ، وَالْمُتَأَخِّرَةِ الْمَشْهُورَةِ غَايَةَ الْإِشْتِهَارِ ، وَأَوْصِيهَا بِأَنْ لَا تَدْعَ
جَانِبَ الْإِحْتِيَاطِ فِي مَوَارِدِ الشَّبْهَاتِ فَإِنَّهُ الْوَاقِي عَلَى الصِّرَاطِ، وَأَرْجُو أَنْ لَا
تَنْسَانِي مِنَ صَالِحِ الدُّعَاءِ.

الْأَحْقَرُ إِبْرَاهِيمُ الْحُسَيْنِيُّ الشِّيرَازِيُّ الْإِصْطَهْبَانَاتِي ، فِي شَهْرِ صَفَرِ الْخَيْرِ سَنَةِ
١٣٥٤ .

إِجَازَةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ رِضَا النَّجْفِيِّ الْإِصْفَهَانِيِّ لِلْعُلُومِ الْإِصْفَهَانِيَّةِ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أُمَّا الرُّوضُ إِذَا طَابَ شَمِيمُهُ، وَتَدَبَّجَ أَدِيمُهُ ، وَصَحَّ هَوَاؤُهُ فَاعْتَلَّ نَسِيمُهُ،
تَسَلَّسَلَتْ فِي خِلَالِ جَدَاوِلِ ، وَحَدَّثَتْ بِحَدِيثِ قُدْرَةِ الْقَدِيمِ تَعَالَى عُنَادِلُهُ ،
بِأَذْكَى وَأَزْكَى وَأَحْسَنَ وَأَبْهَى مِنْ حَمْدِ اللَّهِ، الَّذِي كَتَبَ عَلَى صَفْحَاتِ الْإِمَّاكَانِ
حَدِيثَ وَجُوبِ وَجُودِهِ ، وَرَوَّتْ الْبَحَارُ بِلِسَانِ أُمُوجِهَا أَخْبَارَ كَرَمِهِ وَجُودِهِ ،
وَنَحْمَدُهُ وَنُثْنِي عَلَيْهِ ، وَلَا نَطِيقُ أَدَاءَ وَاجِبِ حَمْدِهِ وَثَنَائِهِ . وَنَشْكُرُهُ عَلَى مُتَوَاتَرِ
نِعْمَائِهِ وَمُسْتَفِيزِ آلَائِهِ ، وَنُصَلِّي وَنُسَلِّمُ عَلَى جَمِيعِ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَمُبَلَّغِي وَحْيِهِ

وأنبأته، لا سيّما على واسطة عقدهم المفصل والآخر في الرسالة، والمخلوق في الطراز الأوّل أبي القاسم محمّد ، وآله الذين رووا عنه آثار الشرف والسداد مسلسلاً بالأباء والأجداد ، الذين مرفوع الطاعات موقوف على ولايتهم ، ومقبول العبادات منوط بمعرفتهم ، ورحمة الله ورضوانه على أسلافنا الماضين ومشايخنا الصالحين، الذين اقتفوا آثارهم وأدوا إلينا علومهم وآثارهم. وبعد، فإنّ السيّدة الشريفة العالية، والدرة المكنونة الغالية ، ثمرة الشجرة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وزهرة روضة بني الزهراء، ربّة المفاخر والمناقب، وعقيلة آل أبي طالب، المقتفية آثار آبائها وأجدادها ، والجامعة بين طريف المكارم وتلاذدها، والآخذة بطرفي المجد من الحسب والنسب ، والبالغة منه بأعلى الرتب العالية، الفاضلة الفقيهة الحكيمة العارفة الكاملة، ذات الشرف الباذخ، أمّ الفضل، ست المشايخ، كريمة الواصل إلى رحمة الرحمن ، والمتبوع في جوار جدّه غرف الجنان، قدس الله روحه، وجعل من الرحيق المختوم غيوقه، وصبوحه، أهدت إليّ كتابها الكريم الذي سمّته بالأربعين الهاشمية، ولو كان أمر التسمية إليّ لسمّيته الفاطميّة ، فوجدتُه عقداً منظماً من غوالي الفرائد ، وسرحتُ طرفي في سرح تجرّى منه ثمار الفوائد، وهو مصنّف يشهد لكل منصف أنّه حاوٍ لأصناف العلوم، ومجدّد من الآثار المعاهد والرسوم.

تُزَيْنُ مَعَانِيَهُ أَفَاطُهُ
وَأَلْفَاطُهُ زَايِنَاتِ المعاني

فكم كنز خفيّ من الأسرار أظهرته، ومشكل من الأخبار فسّرتّه، ومعضل أزاحت عنه الإعضال، وأصابت الصواب إذا اختلفت الأقوال ، فلا غرو فأهل البيت أدري بما فيه، وأعرف بظاهره وخافيه، توأم الكتاب، إنّها أمّ الكتاب الذي لو صدر من رحلة يخترق الآفاق ، ويجوب البلاد من الشام والعراق ، ويختلف إلى مدارس العلم ومجسّات العلماء لحقّ له التقريض والإطراء ، فكيف بمن أرخت سترها ولم تبارح خدرها، فيحقّ أن يفتخر بها ربّات الخدر والحجال على

لابسي العمام من الرجال.

وبعد أن ذكر الأسانيد قال : وأجزتُ لها أن تروي عني بهذه الطرق جميع كتب أصحابنا ورواياتهم، ممّا صحت لي روايتها بهذه الطرق وبسائر طريقي التي لم أذكرها، وأكثرها مذكور في خاتمة مستدرك الوسائل لشيخ العلامة النوري.

الإجازات التي منحتها:

إجازة منحتها العلوية الإصفهانية للسيد المرعشي النجفي رحمته الله :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه الناهجين نهجه.

وبعد، فإنّ جناب السيد العالم العلامة والفاضل المؤيد الهمام، عمدة العلماء العالمين، السيد السند، السعيد شهاب الدين الحسيني الحسيني الغروي، النسابة، المكنى بأبي المعالي، والمشتهر بأقا نجفي دامت إفاضاته، قد استجاز من الحقية، فاستخرتُ الله تعالى في إجازته، وأجزت له أن يروي عني جميع ما صحت لي روايته من كتب التفسير والأدعية والحديث والفقه، وغير ذلك من مصنّفات أصحابنا، وما رَووه عن غيرنا ، بجميع طريقي المعلومة المضبوطة في محالّها عن مشايخي الكرام ، منها ما أخبرني به إجازة حجة الا سلام الشيخ محمد الرضا النجفي الإصفهاني دامت بركاته، عن السيد حسن الصدر العاملي ، عن الشيخ العالم الحاج مولى علي ابن المرحوم ميرزا خليل، عن الشيخ عبدالعلي الرشتي ، عن كاشف الغطاء والسيد علي صاحب الرياض ، كلاهما عن المولى محمد باقر البهبهاني، عن والده الماجد محمد أكمل ، عن العلامة السيرواني والمولى جمال الدين الخونساري والشيخ جعفر القاضي والمولى محمد باقر المجلسي ، جميعاً عن المولى محمد تقي المجلسي ، عن الشيخ بهاء الدين العاملي قدس الله تعالى

أسرارهم، بطرقه المسطورة في أول كتاب أربعينية.

وأوصيه دامت إفاضاته بما أوصى به جدي أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آله الطاهرين إلى ابنه الحسن عليه السلام فيما كتب إليه عند انصرافه من صفين وهو قوله عليه السلام:

«أوصيك بتقوى الله أي بُني ولزوم أمره وعمارة قلبك بذكره والاعتصام بحبله وأي سبب أوثق من سبب بينك وبين الله إن أنت أخذت به أخي قلبك بالموعظة وأمنته بالزهادة وقوه باليقين ونوره بالحكمة ودلله بذكر الموت وقرره بالفناء وبصره فجائع الدنيا وحذره صولة الدهر وفحش تقلب الليالي والآيام واعرض عليه أخبار الماضين وذكره بما أصاب من كان قبلك من الأولين وسري في ديارهم وآثارهم فانظر فيما فعلوا وعمّا انتقلوا وأين حلّوا ونزلوا فإنك تجدهم قد انتقلوا عن الأحبة وحلّوا دار الغربة وكأنك عن قليل قد صرت كأحدهم فأصلح مثواك ولا تبع آخرتك بدنياك»^(٢).

وأوصيه أن يكثر التدبّر فيما تضمّنته هذه الوصية المباركة، والتفكّر فيما أورده في النهج من كلامه عليه السلام بعد قوله ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾. فما من أحد جع له نصب عينيه إلا وقد صارت الدنيا بجميع مافيها عنده كجناح بعوضة. وأسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعاً لذلك، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين بالنبي وآله الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين، والسلام عليه وعلى جميع إخواننا المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

حررته في غرة شهر محرم الحرام سنة ١٣٥٨، وأنا الحقيرة الفقيرة إلى رحمة ربها الغني العلوية الأمينية بنت الحاج محمد علي الملقب بأمين التجار الإصفهاني.

إجازة العلوية الإصفهانية للسيد عباس الكاشاني رحمته الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه
الناهجين نهجه.

وبعد، فإنّ جناب السيّد العالم، والفاضل المؤيّد الهمام، عمدة العلماء، السيّد
السند، السيّد عباس الحسيني الكاشاني، نجل المرحوم المقدّس العلامة المجاهد
الحاج السيّد علي أكبر الحسيني الكاشاني (دامت إفاضاته) قد استجاز من
الحقيرة، فاستخرتُ الله تعالى في إجازته، وأجزتُ له أن يروي عني جميع ما
صحت لي روايته من كتب التفسير والأدعية والحديث والفقه، وغير ذلك من
مصنّفات أصحابنا، وما روه عن غيرنا، بجميع طريقي المعلومة المضبوطة في
محلّها عن مشايخي الكرام. منها ما أخبرني به إجازة حجة الإسلام المرحوم
الشيخ محمد رضا النجفي الإصفهاني قدس سرّه، عن السيّد حسن الصدر
العامي، عن الشيخ العالم الحاج مولی علي ابن المرحوم ميرزا خلي ل، عن الشيخ
عبدالعلى الرشتي، عن كاشف الغطاء والسيّد علي صاحب الرياض، كلاهما عن
المولى محمد باقر البهبهاني، عن والده محمد أكمل، عن العلامة الشيرواني والمولى
جمال الدين الخونساري والشيخ جعفر القاضي والمولى محمد باقر المجلسي، جميعاً
عن المولى محمد تقي المجلسي، عن الشيخ بهاء الدين العاملي قدس الله أسرارهم،
بطرقه المسطورة في أوّل كتاب أربعينه.

وأوصيه دامت إفاضاته بما أوصى به جدّي أمير المؤمنين صلوات الله عليه
وعلى آله الطاهرين إلى ابنه الحسن (عليه السلام)، فيما كتب إليه عند انصرافه من صفين،
وهو قوله (عليه السلام):

«أوصيك بتقوى الله أي بُني ولزوم أمره وعِمارة قلبك بذكره والاعتصام
بحبله وأي سبب أوثق من سبب بينك وبين الله إن أنت أخذت به أخي قلبك
بالموعظة وأمتّه بالزّهادة وقوّه باليقين ونوّره بالحكمة ودلّله بذكر الموت وقرّره
بالفناء وبصره فجائع الدنيا وحذّره صولة الدهر وفحش تقلّب الليالي والآيام

وَاعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ وَذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَسِرِّي دِيَارِهِمْ وَأَثَارِهِمْ فَاَنْظُرْ فِيهَا فَعَلُوا وَعَمَّا انْتَقَلُوا وَأَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدْ انْتَقَلُوا عَنِ الْأَحَبَّةِ وَحَلُّوا دَارَ الْغُرْبَةِ وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ.

وأوصيه أن يكثر التدبر فيما تضمنته هذه الوصية المباركة، والتفكر فيما أورده في النهج من كلامه عليه السلام بعد قوله ﴿أَلْهَنَكُمْ الْكَأَثَرُ﴾. فما من أحد جعله نصب عينيه إلا وقد صارت الدنيا بجميع مافيها عنده كجناح بعوضة . وأسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعاً لذلك ، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين بالنبي وآله الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين، والسلام عليه وعلى جميع إخواننا المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

حررته في غرة شهر جمادى الآخرة ١٣٨١ هـ، وأنا الحقيرة الفقيرة إلى رحمة ربّي الغني، العلوية بنت حاج سيّد محمد علي الحسيني الملقب بأمين التجار الإصفهاني.

إجازة العلوية الإصفهانية للسيدة همايوني:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وعلى آله وصحبه الناهجين نهجه.

وبعد، فإن السيدة الجليلة العالمة الفاضلة، زين العبادات همايوني بنت مرحوم سيد رحيم، قد استجازت من الحقيرة، فاستخرت الله في إجازتها، وأجزت لها أن تروي عني جميع ما صحت لي روايته من كتب التفسير والأدعية والحديث، والفقه، وغير ذلك من مصنفات أصحابنا، وما روه عن غيرنا ، بجميع طريقي المعلومة المضبوطة في محلّها عن مشايخي الكرام . منها: ما أخبرني به إجازة المرحوم حجة الإسلام الشيخ محمد رضا النجفي الإصفهاني، عن

السيد العاملي وعن غيره م .

ومنها: حجة الإسلام المرحوم السيد إبراهيم الحسيني النجفي الإصطهباني.

ومنها: حجة الاسلام المرحوم السيد محمد كاظم يزدي، وغيرهم من

المشايخ الكرام.

والمرجو منها أن لا تنساني من الدعوات في مظان الإجابات.

وقد حررت هذه الوجيزة في السابع من شهر رمضان المبارك في سنة (هزار

وسيصد وينجاه وينج شمسي)^(٣) من هجرة النبي والصلاة والسلام عليه وعلى

آله المعصومين الكرام.

وأنا الفقيرة الحفيرة بنت سيد محمد علي الملقب بأمين التجار الإصفهاني،

الأمّة الجانية على نفسها، الموسومة بنصرت أمين، المشهورة ب(يك بانوي إيراني

إصفهاني)^(٤).

* * *

الهوامش:

(١) راجع المصادر التالية: المرعشي النجفي، الإجازة الكبيرة: ٢٤٥. ويدهندي، ناصر باقري، بانو

مجتهد إيراني: ٨٥ إلى ١٠٠. والطهراني آقا بزرگ، طبقات أعلام الشيعة ١: ١٨٣. والمحلاتي،

ذبيح الله، رباحين الشريعة ٣: ٤٣١، والمسلسلات في الإجازة ٢: ٤٥١ وما بعدها.

(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة، تحقيق: عزيز الله عطاردي، نشر: مؤسسة نهج البلاغة، الطبعة

الأولى ١٤١٤ هـ، إيران.

(٣) أي ١٣٥٥ هـ. ش.

(٤) أي: سيّدة إيرانية إصفهانية.

أطفالنا في الغرب

بين بذرة الخير وأشواك البيئة

□ فاطمة إبراهيم الفضلي (*)

يرحل إلى بلادٍ يأمل أن يحقق فيها أحلامه - بعيداً عن المن غصات والمشاكل التي واجهته في بلاده - ساعياً إلى أن يكون في مستوى أفضل، وأن يضمن حياةً كريمةً لأسرته، ظناً منه بأن هذا هو الأفضل لهم، بعيداً عن شبح الكبت والحرمان الذي عانى منه لسنوات في بلده الأم، ولا يريد لأطفاله أن يتجرّعوه ويعيشوه. أو قد يكون متهماً فرضت عليه الغربة لأسباب سياسية، واضطّر إلى أن يقبل بها على مضض، أو...

وبغض النظر عن تلك الأسباب، يواجه الإنسان المسلم العديد من المشاكل النفسية والاجتماعية أثناء محاولته التأقلم مع البيئة الجديدة التي تختلف عن بيئته القديمة بكثير من الأمور، ومعاناته في سعيه للموازنة بين ما يؤمن به وما يتعلّمه في هذه البيئة من ثقافات وأدبيات. وأهم المشاكل التي تواجهها هي مشكلة تربية أبنائه في مجتمع ليس

(*) باحثة إسلامية / لسانس في المعارف الإسلامية من حوزة الإمام الخميني رحمته الله التابعة لجامعة المصطفى عليه السلام العالمية في سوريا.

بمجتمعه، والذي فيه من العادات والتقاليد الكثير المختلف عما تربى عليه، وتكون هنا الأزمة والتحدي، كيف يحافظ على أصالة معتقداته في نفوس أطفاله ولا يخسرهم؟ وكيف يتماشى مع المجتمع دون أن يتأثروا فيه؟ مشكلة يعاني منها الكثير من المغتربين، وتؤرق بالهم . وقد نجح البعض في تربية أطفاله تربية تجمع ما بين الدين وما يسمى في الغرب حرية، ولكن البعض الآخر فشل، وخسر أولاده ونفسه بسبب إهمال وتقصير غير مقصود، وعدم انتباه لأهمية الاهتمام بالأطفال روحياً وعقائدياً في تلك البلاد قبل الاهتمام بمأكلهم وملبسهم.

مشاكل الأطفال في الغرب:

كثيراً ما نسمع عن المشاكل التي تحدث للآباء والأطفال الأبرياء على حدّ سواء، خصوصاً عندما يصل أبنائهم إلى سنّ دخول المدرسة، ففي هذه المرحلة تبدأ الصعوبات عندما تظهر التساؤلات من قبل الأولاد عن الاختلافات التي بينهم وبين الغربيين خاصة في الأمور العقائدية.

لم نحن هكذا؟!

ولماذا لا أستطيع أن أفعل هذا؟!

ولماذا لا أستطيع أن أكل من أكلهم؟!

والأصعب أن أوّل ما يتعلمه الطفل في المدرسة - وخصوصاً الأمريكية - هو رقم (٩١١) رقم الطوارئ، ويقال للطفل: (إذا حدث لك أيّ مشكلة مع أبيك أو أمك ، وأسأأ إليك اتصل على هذا الرقم، وسيكون كلّ الحق لك ، ولا تدعهم يخطئان بحقّك حتّى ولو بكلمة « . وأما بالنسبة للفتاة فإنّها تلاحق بالأسئلة عن الحجاب إذا كانت مقتنعة به أم لا؟ وهل أجبرت على ارتدائه؟ وحدث الكثير من القصص التي يتألّم لها القلب، حين صرّحت بعض الفتيات

بعدم تقبلهنّ للحجاب ممّا أدّى إلى سجن الأب، ورفع وصايته عن الأطفال بحجة استبداده وضع طه على الطفل، والأمر الأخف وطأة هو أنّ بعض الفتيات اللواتي لا يقتنعن بالحجاب - بسبب أسلوب الأهل بفرضه عليهنّ دون نقاش وإقناع - ينزعن الحجاب في المدارس دون علم الأهل ولا يعلم أحدٌ بهذا، وهكذا تستطيع أن تتصالح مع نفسها والمحيط الذي حولها بأنّها ستكون كما الأخريات، ومن جهةٍ أخرى فهي ترضي أهلها عندما تلبس الحجاب أمامهم فترتاح لهذا الخيار، ويكتشف الأهل بعد مدّة أنّ ابنتهم ممثلة ماهرة، تتظاهر لهم بمظهر الملتزمة والحريصة على العادات والتقاليد في حضورهم، وفي البيت، وخارج المنزل تتصرّف كما تحب وبما يتناسب مع ثقافة البلد الذي تعيش فيه والحضارة الغربية التي أعجبت بها.

وهناك مشكلة صعوبة التكيف مع الجو العام في المدرسة بالنسبة للأطفال الذين يأتون في سنّ الدراسة، ويفاجأون بالعادات والثقافة المختلفة عن المحيط الذي كانوا فيه، ممّا يسبب لهم صدمة، فيميل بعض الأطفال إلى الانعزالية، والسيّئ يعمّقها ويقويها توجيهات الأهل بعدم الاختلاط مع الأطفال الآخرين مما يؤدي إلى مشاكل نفسية كثيرة.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنّ التعليم في المدارس الغربية، ورغم كفاءة التعليم فيها مقارنة مع التعليم في الدول الأقل تطوراً في هذا المجال إلا أنّ الطالب يبقى بعيداً عن أيّة جذور إسلامية تنمّي في فكره عقيدة الإسلام، فكُلّ ما يدرس هو مرتبط بتاريخ الغرب وثقافة الغرب، وبطولات الغرب المرتبطة باستعمار طويل لبلدان العالم الثالث، ممّا يخلق فجوة كبيرة بين ما يتلقاه الطالب من علم، وبين ما تفرضه الأسرة العربية والإسلامية من تركيز على المبادئ والقيم والتعاليم الإسلامية، وهو أمر قلّمَا ينتبه له الأهل وذوو الاختصاص. وقد سئل أحد الآباء عن التربية في بلاد الغرب كيف تكون ورأيه فيها؟

فقال: «هي تحدّ، وأحياناً ظلمٌ للطفل؛ حيث إنّنا نجبره على أن يكون كما نريد، متناسين متطلباً حقواختلاطه بالآخرين، الَّذي يولّد لديه الإحساس بالاختلاف والتفوق، وأحياناً الانخراط معهم متجاهلاً تعاليمنا كي يتخلّص من شعور الاختلاف هذا، ونبذ المجتمع له، ولا تدري كيف تكسبه لك دون أن تحسره، ودون أن يخسر أصدقاءه من المجتمع الَّذي يعيش فيه»، وهذا هو بالفعل الأمر الَّذي يعاني منه معظم الآباء والأطفال على حدّ سواء.

أهمية القدوة في حياة الطفل المغترب:

قد يظنّ البعض أنّه بمجرد أن يسمي المولود اسماً إسلامياً، وأن يرسله إلى مدرسة إسلامية، أو إلى دورات وحلقات تحفيظ القرآن نهاية الأسبوع، وفي الصيف، يكون قد أدّى دوره في تربية الطفل، متناسياً دور البيت وأهمية وجود القدوة في حياة الطفل، ممّا يعزّز لديه قوّة الشخصية والاقتناع بمعتقدده، وقد أكّدت جميع الأنظمة التربوية الدينية وغيرها على أهمية وجود القدوة؛ لما للقدوة الصالحة من دور مهم في مجال التربية والتعليم، فتقديم القدوة الصالحة يدعم السلوك الحسن لدى الطفل، ويُعتبر من أفضل وسائل التربية وأقربها إلى النجاح، فكلّ وسيلة تطلّ حبراً على ورق ما لم يتمّ تطبيقها أمام الطفل؛ لأنّ الطفل في مرحلة النشأة لديه عدّة سمات يستطيع من خلالها استقبال كلّ سلوك إيجابي والعمل به، فالأطفال في صغرهم كالصلصال سهل التكوين والتشكيل، بعكس كبار السن الَّذين تؤثر به الأسباب الخارجية بشدّة ممّا يصعب عليهم التغيّر، وهنا يكمن دور الأسرة في توفير الجو المناسب لتبادل الاحترام بين أفرادها خاصّة للوالدين، وهو أهم مقومات الاستقرار والثبات، في حياة الطفل، وكلّما ساد الاحترام بين أفراد الأسرة وزاد فيها الثبات والاستقرار كلّما انعكس ذلك بشكلٍ إيجابي على تربية الأطفال، ونشأتهم على الاقتداء بالسلوك

السوي والخلق القويم.

وفي بلاد الغرب تزداد الأهمية لوجود القدوة في البيت؛ لأنّ الطفل لا يكون له صلّى بدينه وعقيدته إلّا من خلال أهله، ولا يعرف الحياة الإيمانية إلّا عن طريقهم؛ ولهذا وجب على الآباء أن يكونوا أفضل قدوة لأبنائهم هناك.

من واقع المغتربين:

عندما سألنا بعض الأمهات المغتربات عن تجاربهنّ في تربية أبنائهنّ الذين ولدوا هناك، أو جاؤوا من مجتمعات أخرى، وعاشوا في تلك الأجواء، وكيف يجدن أمر التربية هناك؟

كلهنّ أكّدن أنّ التربية في بلاد الغرب أمرٌ صعبٌ جداً، ويحتاج إلى حرص ورقابة شديدة من الوالدين، والتيقظ دوماً وكسب الطفل إلى أهله، وأنّ أقلّ غفوة تؤدّي إلى خسارتهم الطفل وإن كانت عن غير قصد. وأجمل ما قالت (أمّ بتول) - وهي أمّ لفتاة تبلغ من العمر ١٢ عاماً ولدت في بلاد الغرب - «أنا أعامل ابنتي كأنّها صديقتي، وأثق بها، ومنذ الصغر قمتُ بتحفيظها سوراً من القرآن الكريم، وأحاديث النبي ﷺ والأئمّة المعصومين عليه السلام حتى بلغت، وصارت تميّز الأمور، ولوحدها صارت تعرف أنّ اختلافنا عن الآخر هو شيء جيّد، وفيه رضا الله».

فالتربية التي تقوم على منهج الصداقة بين الطفل ووالديه هي تربية صحيحة، يكون الطفل فيها واثقاً بأهله، ويبوح لهم بكلّ ما يجول بقلبه، ويطرح عليهم الأسئلة التي تخطر بباله، ويجد عندهم الإجابة التي يريدونه أن يفهمها ويدركها، لا أن يذهب إلى غيرهم ويقولون له ما يخالف معتقداته، فيصاب بالحيرة والتخبّط، ولحبّه ذاك الشخص يختار طريقه ويخسره أهله، وهو أمر أكّد عليه الإمام الصادق عليه السلام وشرح العلة من ذلك حين قال:

«بَادِرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالْحَدِيثِ قَلْبًا أَنْ يَسْتَقْكُمُ إِلَيْهِمُ الْمَرْجَةُ»^(١).

أما (أمّ رشا)، وهي أمّ خمسة أطفال فترى أنّ البيت هو الأساس، وأنّ ثلاثة أرباع التربية تكون في البيت والربع الآخر في المدرسة، على عكس مجتماعتنا التي يكون فيها الربع للبيت والثلاثة أرباع للمجتمع.

وهو أمرٌ صحيح؛ حيث إنّ الطفل في الغرب يقضي معظم وقته في المدرسة، ولا يرى أهله إلا في آخر النهار وأيام العطل، وإذا لم يحتوه والداه فإنّه يضيع بما يتعلمه في المدرسة، والذي يكون مخالفاً لمعتقداته، فتحاول الأسرة قدر إمكانها أن تكون قدوة لهم، وتخلق الأجواء الدينية في البيت حتى تربطهم بها وتغرسها في نفوسهم، وأنّ تعاملهم بحبّ، وتحاورهم، وتجيّب على أسئلتهم التي تزداد أكثر كلّما كبّروا، وزاد إدراكهم للمجتمع المختلف عمّا يرونه في البيت، مع المتابعة الدائمة لهم بمساعدة الأب.

وقد أثبتت الدراسات أنّ رؤية الابن لوالديه أثّرت في العبادات والفرائض له بالغ الأثر عليه، ومسارة الوالدين إلى تطبيق ما يقولانه للأبناء يؤثّر كثيراً في صلاحهم، وكذلك التربية بالتعليم عن طريق تعليم الأطفال ما ينفعهم في دينهم ودنياهم من علوم شرعية ودينية تعود عليهم بالنفع الكثير والخير الوفير.

أهمّ جوانب التربية في حياة الطفل:

للطفل العربي والمسلم الذي يعيش في الغرب وضعٌ خاصٌّ من ناحية التربية التي يجب أن تكون مكثفة ومعمقة ومركزة على عدّة جوانب للحياة والظروف التي يحياها هناك، وقد رأى العلماء الأفاضل أنّ هناك جوانب عدّة في الحياة يجب أن يقوم الوالدان على ترسيخها في نفس الطفل، والانتباه إليها في عملية التربية، وهي:

١. الجانب الإيماني: وفيه يغرس في قلب وعقل الطفل العقيدة الصحيحة

التي تركز على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر و...، كما يبين للطفل الفرائض والعبادات وأحكامها من طهارة وصلاة وصيام وزكاة وخمس وحج، ويوضح له أن العلاقة مع الله لا تنفصل عن العلاقة مع النفس والمجتمع، وأن الدين الصحيح هو: الدين المعاملة.

٢. الجانب الأخلاقي : وهو الشق الآخر للإيمان؛ لأن تحقق مكارم الأخلاق في شخصية الطفل هو الواجب العملي الذي نسعى إليه تأسيًا برسول الله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، والوالدان هما من يرسيان قواعد هذا الجانب من خلال العمل على خطين متوازيين : الأول: التمكين للفضائل والقيم في نفس الطفل، مثل الصدق والوفاء وحفظ اللسان والشجاعة والرحمة والعفة والتواضع والإخلاص والإتقان والنظافة والنظام. والثاني: التنفير من الرذائل وما يستتبعها من سلوكيات لا يقرها الإسلام، ولا يتهاون فيها.

٣. الجانب الجنسي: عندما تعي الأم أن الغريزة الجنسية فطرة مشروعة عند الإنسان، زوّده الله بها لحفظ النوع البشري، والتكاثر إلى أن يرث الأرض وما عليها، عندما تعرف الأم ذلك وتتعرّف على مقاصد التربية الإسلامية فيها في الجانب الجنسي من ضبط وتنظيم لا كبت أو غموض، عندها فقط ستتدرج مع طفلها بمبادئ التربية الجنسية في مراحل نموّه المتعاقبة، مثل : آداب النوم، وحدود اللباس، والعورات، وآداب الاستئذان، والحمام، وغضّ البصر ، والبعد عن المثيرات، وأحكام الطهارة، وأحكام البلوغ، والصوم، وتفريغ الطاقات الجسدية والعقلية بالرياضة والأنشطة المتعددة، والتعقّف . وهذه المبادئ الوقائية تخصّنه وتهذّبه حتى يصل إلى الإطار المشروع (الزواج)، كما تحرص الأم

على تعريف أبنائها - خاصة البنات - بخصائص مرحلة المراهقة، وأحكام البلوغ والاحتلام، وتركيبية الجهاز التناسلي والأمراض الذي تصيبه، وتوضح أضرار الممارسات الجنسية غير الطبيعية (مثل الاستمناء)، مع الانتباه إلى كيفية نوم أولادها، ويفضل ألا يخلدوا إلى السرير إلا وهم جاهزون للنوم تماماً قدر المستطاع.

٤. الجانب الاجتماعي: تهتم التربية الإسلامية بتنشئة الفرد المسلم تنشئةً سويةً متوازنة، يدرك من خلالها أن له حقوقاً، وعليه واجبات أيضاً، في الدائرة الأسرية والدائرة المجتمعية، وترتيب تلك الحقوق والواجبات وتعميقها في ذهن الطفل من أولويات التربية التي تباشرها الأم، فإن عليها توضيح حق : الأم والأب والأخوة والأقارب والأرحام والجيران والأصدقاء والزملاء والكبير والصغير والضعيف والمعلم والمريض والعالم والخدم والمغاير في الدين والرأي وحق الكائنات . كل هذه الحقوق ترتب بشكل سلس، وترتبط بالجزاء المرتقب ع ند الله، إحساناً أو تقصيراً، ومن ثم فتتمية المهارات الاجتماعية، من التواصل والانفتاح والتعاون حتى تصل بالطفل إلى فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من أهم ما يجب أن تنتبه له الأم كي يشب طفلها على السواء النفسي المطلوب، إضافة إلى غرسها في أولا دها أهمية متابعة أخبار المسلمين، والاهتمام بقضاياهم، ومتابعة الأحداث الجارية ومناقشتها، أو تكوين رأي حولها.

خاتمة القول:

دائماً ما يشبه لنا الحكماء تربية الإنسان تماماً كزراع الشجرة والاعتناء بها، فإذا أردت شجرة متينة وافرة العطاء فعليك اختيار التربة ال صالحة لها، والاهتمام

بسقيها وعدم إهمالها.

وكذلك أطفالنا هم كهذه الأشجار، وكلّنا يطمح ويسعى إلى أن يكون ابنه شجرة قوية ومعتاة، تفيد الغير وتستفيد، ولكن كم منّا يعرف كيفية الاهتمام بالشجرة، والطرق الأفضل لحمايتها وتقويمها؟ وكم منّا يعرف أهمية التربة، هل هي صالحة للزراعة أم لا؟ وكم منّا فكّر بالأعشاب الضارة التي تنمو حولها؟ ومن منّا يعرف مقدار ماء السقي بحيث لا يكون فيه إفراط ولا تفريط؟ كثيرة هي الأمور التي يجب على الآباء معرفتها وإدراك أهميتها بالنسبة للتربية، ولكن الأهم هو الأساس والمنشأ، وهو التربة التي تغرس فيها هذه الشجرة، التي يراد لها أن تكون أفضل ما يقوم به المرء، فينظر إلى التربة، فإذا كانت صلبة فإنّ الأمر يحتاج منه جهد أكبر وحرص أكبر . أمّا إذا كانت سهلة الغرس وليّنة، فإنّ الأمر يتطلّب جهداً أقلّ واهتماماً أبسط، وهذا هو الأمر نفسه الذي يختلف بالنسبة لتربية الأبناء في الغرب عن تربية الأبناء في الوطن بين الأهل والمفاهيم الصحيحة . فالتربة في الغربة خصبة بكلّ ما هو فاسد يغري الإنسان للتمرد والتحرّر والانطلاق، ولذلك يجب الاهتمام بالزراع في هذه التربة أكثر، والاعتناء به أفضل، ومن أهمّ الأمور التي يجب على الآباء المغتربين الاهتمام بها في تربية أبنائهم هي تأصيل التربية الإسلامية الصحيحة والأخلاق الحميدة، وأن يكونوا نموذجاً لهم في ذلك.

ففي العوائل التي يكون فيها الأهل متماسكين وواعين لا نجد أيّ انحراف لأطفالهم، أو خطأ يصدر منهم، وإن كان فإنّه بسيط لا ي ذكر أمام ما نراه من الغير.

ويجب أن يزرع حبّ الدين والفخر فيه، وتوضيح معانيه وأحقيقته أمام الأديان الأخرى التي تكون في ذلك المجتمع، حتى يعرف الطفل مقدار النعمة التي غيّاها الآخرون.

وأهم شيء هو التمسك بهويته الإسلامية، وبلغته الأصيلة التي تكون له
حصناً وشكلاً له مناعة من الأفكار والمعتقدات الأخرى...
الطفل بذرة صالحة، فهنيئاً لمن عرف كيف يربها ويبقيها على صلاحها
ويزيدها قوة ونوراً...

* * *

الهوامش:

- (١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي ٤: ٤٧، كتاب العقيدة، باب: تأديب الولد، الحديث: (٥)،
تصحيح وتعليق على أكبر غفاري، الطبعة الثالثة ١٣٦٧ ش، دار الكتب الإسلامية، طهران.

فكر الإمام الخميني رحمته الله وأثره على الانتفاضة الفلسطينية

□ إعداد: التحرير

تقديم

نُعَدُّ الامبراطورية العثمانية آخر الامبراطوريات أو الممالك أو ما يُسمَّى بـ «الخلافت الإسلامية»، حيث كانت تفرض سيطرتها على مناطق واسعة من العالم، ابتداءً من الأراضي التركية، إلى مساحات واسعة من البلقان في القارة الأوروبية، إلى الشطر العربي من منطقتنا التي باتت تُسمَّى حالياً - ولأهداف ومآرب معروفة - باسم «الشرق الأوسط»، وصولاً إلى المناطق الشمالية في القارة الأفريقية السمراء، ومروراً بأرض فلسطين.

استمرت سيطرة الخلافة العثمانية على العالم الإسلامي لنحو خمسة قرون، ابتداءً من العام ١٢٩٩ م وصولاً إلى العام ١٩١٨ م، حيث شكّل ظهور الدولة العثمانية انتقالاً للملك، أو - بالتسمية السياسية الدارجة آنذاك - لـ (الخلافة) من العرب إلى العثمانيين الأتراك.

أدّى التنافس الاستعماري بين كل من روسيا وإنجلترا وفرنسا - يُضاف إليه الدور الاستراتيجي الكبير الذي لعبه العثمانيون - إلى أن تتحوّل الأراضي والبلدان الخاضعة تحت سيطرة هذه الامبراطورية لتصير محلاً لأطماع ومآرب القوى الأوروبية والغربية.

غير أنّ توافد الأفكار القومية (المعلّبة والمعدّة سلفاً) إلى داخل الدولة العثمانية، وانقياد العرب الفاضح لإيجاعات وأوامر القوى الأوروبية، من جهة، وحالة الضعف والاهتراء الداخلي التي كانت تعيشها الدولة العثمانية، وظهور الأتراك الشباب، من جهة أخرى، شكّلت أرضية مناسبة لانحلال وسقوط ما كان يُعرف بـ (الخلافة الإسلامية)، بعد أن كانت تلك الدولة اشتهرت - إبان الحرب العالمية الأولى - بلقب (رجل أوروبا المريض).

وقبل انتهاء الحرب العالمية الأولى، عمدت كل من فرنسا وإنجلترا - بصفتها آنذاك الامبراطوريتين الممثلتين لخطّ الاستعمار الغربي القديم - إلى اقتسام أراضي الدولة العثمانية فيما بينهما، عملاً باتفاقية عُرفت بلسم (اتفاقية سايكس - بيكو). تلك الاتفاقية المشؤومة التي جعلت كلاً من العراق والأردن والحجاز وفلسطين تحت سيطرة الانتداب الإنجليزي ، وكلاً من لبنان وسوريا تحت الانتداب الفرنسي.

وهكذا كان، فما أن ارتاح العرب من أغلال الاستبداد العثماني الذي جثم قروناً طويلة على صدورهم تحت اسم الإسلام والخلافة الإسلامية ، حتى خيّم فوق رؤوسهم مجدداً غيوم الاستعمار الغربي المدهمة السوداء ، لتُحكم قبضتها عليهم، وتتحكّم بمصائرهم ومصائر أبنائهم عقوداً أخرى من الزمن. وخلال هذه المدة، بذلت الدول المستعمرة جهودها كاملة في تحكيم سيطرتها ونفوذها على المنطقة.

نالت فلسطين من هذه الأحداث والمؤامرات والخطط حصّتها، بل كان لها

نصيب الأسد فيما يجري ويُحاك؛ بدأ ذلك منذ العام ١٨٩٧ م في مدينة بازل السويسريّة، عندما قرّرت تنظيمات الصهيونيّة العالميّة، بالتعاون والتنسيق مع السلطة الإنجليزيّة، أن تعمل على تكريس استيلاء اليهود وس يطرتهم على الأراضي الفلسطينيّة.

وعملًا بهذا الاتفاق، شرع اليهود بالهجرة إلى فلسطين من شتّى أنحاء العالم وأصقاعه، أملًا بإحداث تغيير سكانيّ وديموغرافيّ في فلسطين لصالح اليهود، يكون فاتحة عهدٍ لسيطرتهم أمدًا طويلًا عليها.

وقد تسارعت وتيرة هذه المساعي والممارسات المدروسة على مدى عقدين من الزمن (١٩٢٠ - ١٩٤٠ م)، لتتوّج في العام ١٩٤٨ م بنكبة إعلان دولة "إسرائيل" لتكون غدّة سرطانيّة مميتة تُزرع في جسد العالم الإسلاميّ.

مقاومة الشعب الفلسطينيّ في فترة ما قبل الانتفاضة

بدأت مقاومة الشعب الفلسطينيّ قبل تشكّل دولة الكيان الصهيونيّ عام ١٩٤٨ م، وقد حملت هذه المقاومة - منذ نشأتها - صبغةً إسلاميّة، حيث قامت بقيادة عددٍ من كبار علماء الدين، من أمثال (الحاج محمد أمين الحسينيّ) - مفتي القدس، ورئيس المجلس الإسلاميّ الشرعيّ بفلسطين، كما كانت له أيضًا مهمّة الإشراف على المحاكم الشرعيّة والأوقاف - و (الشيخ عزّ الدين القسام) و (عبد القادر الحسينيّ).

وبعد قيام الكيان الصهيونيّ الغاصب في فلسطين، وتهجير أهلها من دورهم وقراهم، انخرط الزعماء والرؤساء والملوك العرب - تحت تأثير الرأي العامّ الإسلاميّ - في تنظيم حروب وهجماتٍ ضدّ الصهاينة.

وحيث لم يكن للفلسطينيّين جهة منظّمة ينتمون إليها، وحيث كانت أسمع الفلسطينيين اعتادت أن تسمع بمقولة أنّ فلسطين هي قلب العروبة النابض،

وهي قلب العالم الإسلامي، فقد كان من الطبيعي أن تتطلع أعينهم في تلك المرحلة الحرجة نحو (أشقائهم) في البلدان العربيّة (المسلمة) ليعيدوا فلسطين إليهم من أيدي غاصبيها.

ثمّ في أوائل الستّينات، توجّه الفلسطينيون نحو تأسيس عددٍ كبير من المنظّمات والمؤسّسات السياسيّة والعسكريّة والاجتماعيّة، كان أهمّها : منظّمة التحرير الفلسطينيّة، التي تشكّلت عام ١٩٤٦م، وضمتّ ثمانية من المجموعات الجهاديّة المسلّحة، وعدداً كبيراً من المؤسّسات المدنيّة العامّة، توزّعت اهتماماتها على الأمور التعليميّة، والثقافيّة، والماليّة، والاجتماعيّة، والطبيّة، وغيرها..

وقد شهدت الفترة الفاصلة بين عامي ١٩٧٦م (هزيمة الدول العربيّة) و ١٩٨٢م (الاجتياح الإسرائيليّ للبنان) تغييرات كثيرة طالت المنظّمات والمجموعات الفلسطينيّة المسلّحة، فكان أن تأسّست مجموعات جديدة، وتلاشت مجموعات أخرى، ودُمجت بعض المجموعات في بعض، وتشعّبت مجموعات إلى عدّة أجنحة أو شعب.

كانت هذه المنظّمات خاضعة - بشكلٍ رئيسيّ - لتأثيرات عددٍ من التيارات غير الإسلاميّة، كالقوميّة العربيّة، والاشتراكيّة، والماركسيّة، كما كانت كلّ واحدةٍ منها مدعومةً ومحتضنةً من قبل إحدى الدول العربيّة، ما جعلها محكومةً بالكامل للسياسات الإقليميّة لتلك الدول، وهذا ما أثار - بالتالي - على مسار المقاومة والمواجهة بأكمله، وأدّى - في بعض الأحيان - إلى انحرافه عن وجهته الأصليّة، تأثراً بسياسات تلك الدول الداعمة على الساحتين : الإقليميّة والدوليّة.

وقد أسهم ذلك - كما لا يزال كذلك - في وصول الشعب الفلسطينيّ إلى قمة اليأس والإحباط من الاعتماد على الخارج ، وبالأخصّص: على الدول العربيّة المتخاذلة، أو مراكز القرار العالميّة، والمنظّمات الدوليّة.

المنظمات الفلسطينية في مرحلة ما قبل الانتفاضة

إلى جانب الحروب التي خاضتها الدول العربية مع كيان الاحتلال الصهيوني، فقد حدث تغيير هام في المنظمات الفلسطينية، حيث بدأت هذه المنظمات تنحو شيئاً فشيئاً نحو أن تأخذ عنوان (فصائل المقاومة الفلسطينية). تحولت هذه التشكيلات والفصائل الجديدة إلى عدد كبير من الأحزاب والتنظيمات والمجموعات التي رفعت شعار المقاومة لواءاً لها.

نوجز - فيما يلي - أهم هذه التنظيمات والفصائل:

١- حركة فتح : أعضاؤها المؤسسون : ياسر عرفات، صلاح خلف، خليل إبراهيم الوزير المعروف بـ (أبو جهاد). كان هذا التنظيم - ولا يزال - مدعوماً من غالبية الدول العربية، ولا سيما تلك التي توصف (تصفها أمريكا وأعوانها) بـ (الاعتدال)، كالعربية السعودية، أو بـ (التطرف)، كليبيا وسوريا.

٢- منظمة الصاعقة : أنشأها السوريون، ومن أبرز قادتها : زهير محسن، وعصام القاضي.

٣- الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين: حملت هذه الجبهة في بداياتها أفكار الماركسيين وعقائدهم. أعضاؤها المؤسسون هم : نايف حواتمة، عمر أديب الشهير بـ (أبو ياسر).

٤- الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين : قامت هذه الجبهة على تبني المبادئ الماركسيّة، وفي الوقت الذي كانت تلقى فيه دعماً من ليبيا، فهي لم تكن على علاقة جيدة مع سوريا. أبرز زعمائها: جورج حبش، ومحمد تيسير قبا.

٥- الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة : وهو تنظيم فلسطيني أسسه أحمد جبريل سنة ١٩٦٨ بعد انفصاله عن الجبهة الشعبية (بزعامة جورج حبش)، ويُعدّ أحد التنظيمات الموالية لسوريا.

٦- جبهة التحرير الفلسطينية : تأسست هذه الجبهة بعد انشقاق حصل في

الجبهة الشعبية (بقيادة أحمد جبريل)، وذلك بقيادة كل من : طلعت يعقوب، ومحمد عباس المعروف بـ (أبو العباس).

بالإضافة إلى المجموعات والتنظيمات المذكورة أعلاه، برز هنالك منظمات كثيرة أخرى ذات فعالية ونشاط كبيرين في فلسطين، منها - على سبيل المثال - جبهة التحرير العربية، الموالية للعراق.

وإذا ما أردنا أن نقيم المواجهات التي قام بها الفلسطينيون في مرحلة ما قبل الانتفاضة، آخذين بعين الاعتبار التاريخ الطويل والممتد لنضالات الشعب الفلسطيني منذ تأسيس الكيان الصهيوني، لوجدنا أن المجموعات والتنظيمات والفصائل التي تشكلت في مرحلة ما قبل الانتفاضة لم تستطع أن تحقق نتائج إيجابية ملموسة؛ إذ هي لم تفشل فحسب في إقامة دولة فلسطينية موحدة ومستقلة، بل زادت على ذلك بأن اعترفت رسمياً بوجود الكيان الصهيوني على أرض فلسطين، وألغت مبدأ (العزم على إزالة إسرائيل من الوجود) من النظام الأساسي لمنظمة التحرير الفلسطينية، بل وصل الأمر ببعض هذه التنظيمات إلى حد اعتبار الكفاح المسلح فعلاً غير مشروع!!

أسباب الفشل

نشير هنا إلى جملة من الأسباب الرئيسية لفشل المساعي والجهود التي بذلتها المنظمات الفلسطينية في تلك المرحلة:

أ) الخلافات الأيديولوجية، فقد تبنت هذه الجماعات والتنظيمات أفكاراً وأيديولوجيات مختلفة، لا تشترك فيما بينها إلا في العلمانية والدعوة إلى إقصاء الدين عن الساحة، كالماركسية والاشتراكية والقومية وغيرها، الأمر الذي أدى إلى بروز فوارق كبيرة واختلافات شاسعة فيما بينه على مستوى الموقف من القضية الفلسطينية، فضلاً عن السياسات والأسلوب والممارسة والأداء

(ب) الخلافات في كيفة المواجهة والتصدي : أدت الخلافات الفكرية والعقائدية التي نشبت بين هذه التنظيمات إلى بروز خلافات فيما بينها في أسلوب ونهج المواجهة أيضاً، فبينما اعتمدت بعض المجموعات طريقة المواجهة المباشرة مع العدو الصهيوني داخل الأراضي المحتلة عبر القيام بشن الهجمات المسلحة والعمليات القتالية، ذهبت مجموعات أخرى إلى أن المواجهة يجب أن تمتد لتطال المنظمات والجماعات والشخصيات الصهيونية في مختلف دول العالم، وتحول بعضهم - عملياً - إلى أعمال من قبيل : اختطاف الطائرات ، والقيام بعمليات تفجير وتفخيخ، فيما عمل آخرون على التحريض وإشعال فتيل الثورة.

الأمر المهم الذي تجدر الإشارة إليه هنا : أن عدم التنسيق بين هذه المجموعات في أسلوب المواجهة، دفع بها - في الكثير من الحالات - إلى الصراع والتناحر فيما بينها بدلاً من التركيز على مواجهة الصهيونية.

(ج) انعدام القيادة الموحدة.

(د) ارتباط المجموعات المسلحة بالدول العربية : سعى الفلسطينيون إلى التخلص من الضغوطات التي كانت تمارس عليهم من قبل الإنجليز والعصابات اليهودية المسلحة، فطرقوا - في البداية - أبواب ملوك وأمراء وزعماء العرب، وناشدوهم التدخل لتخليصهم من هذا الوضع، في الوقت الذي كان فيه هؤلاء أنفسهم يمارسون دور العملاء، بل الأدوات والأذنان، ل لإنجليز وللمشاريع الغربية في المنطقة.

ثم بعد تهجير الشعب الفلسطيني على نطاق واسع ، كانت تنبثق بين اللاجئين الفلسطينيين في كل دولة من الدول التي هُجروا إليها مجموعة تدعي القتال والمواجهة، لكنها كانت تقع تحت تأثير سياسات الدولة التي هي فيها، لدرجة أن تصير هي المدافع الرئيسي عن سياسات تلك الدولة وقراءاتها

ومواقفها تلج القضية الفلسطينية.

ومن جانبها، فإنّ هذه الدول التي كانت لها وجهات نظر متعارضة بشأن فلسطين، أخذت تنحاز لصالح بعض الفئات والمجموعات المقاتلة ضدّ بعض، حتى أنّها كانت - أحياناً - تقوم بممارسات عنيفة ضدّ بعضهم، كما حدث ذلك يوم الجمعة الأسود في الأردن.

هـ) تقطّع المواجهات وعدم استمراريتها: اتّسمت المواجهات التي خاضتها الفصائل الفلسطينية في مرحلة ما قبل الانتفاضة بالتقطّع والاستمرارية، الأمر الذي منع وصولها إلى نتائج جدّية ملموسة.

هذه المشكلات والعوائق، وهذه الفوضى العارمة التي تفشّت، والتي عانت منها حركة الكفاح المسلّح الفلسطينيّ، مضافاً إلى عدم القدرة على تظهير قضية فلسطين كقضية وطنية جامعة في مرحلة ما قبل الانتفاضة، كلّ ذلك، حال دون أن يسير كفاح الشعب الفلسطينيّ في اتجاه تشكيل وطنٍ واحدٍ، موحدٍ، ومستقلّ.

وقد أدّى تثبيت دعائم دولة إسرائيل في تلك الفترة، وسير الدول العربيّة في اتجاه التسوية معها، أدّى إلى وقوع الشعب الفلسطينيّ تدريجاً في يأسٍ وإحباطٍ شديدين من مثل هذا النوع من المواجهات.

هذا من جهة.

ومن جهةٍ أخرى، فقد كان لانبلاج نور الثورة الإسلاميّة الإيرانيّة، وإحياء الفكر الدينيّ، وانتشار الوعي بأنّ للدين - الإسلاميّ - القدرة الكاملة على معالجة المسائل الاجتماعيّة والسياسيّة معالجةً واقعيّة وعصريّة، كان لهذا كلّ دور كبير في تحويل مسار كفاح الشعب الفلسطينيّ نحو مساره الأصليّ ووجهته الصحيحة، بحيث امتزج هذا الكفاح بالمعتقدات والأفكار الإسلاميّة، ليصل بذلك الشعب الفلسطينيّ إلى الحقيقة الناصعة التي مفادها: أنّ الإسلام كان

وسيبقى هو الطريق الوحيد لتحرير أرض فلسطين من نير الاحتلال الصهيوني. ومن أجل فهم أفضل لكيفية تغير طبيعة النضال الفلسطيني، نستعرض فيما يلي عدداً من العوامل والمعطيات التي أدت إلى ولادة الانتفاضة الفلسطينية بصفاتها وليدة ما يُسمى بـ (الأصولية الإسلامية) في فلسطين.

عوامل وخلفيات ظهور الانتفاضة

١ - انتصار الثورة الإسلامية الإيرانية:

شكّلت هزيمة العرب القاسية أمام إسرائيل وحلفائها في حرب عام ١٩٤٧م فشلاً حقيقياً وذريعاً لتيارات القومية العربية، حيث زرعت تلك الهزيمة النكراء صدمة كبيرة وخيبة أمل قويّة في قلوب أبناء الشعب الفلسطيني الذين ارتبطوا لسنوات بأفكار علمانية من هذا القبيل، ما شكّل عاملاً من الداخل لظهور الانتفاضة. وجاءت الثورة الإسلامية - من ناحية أخرى - لتبشّر بفتح مجالات جديدة للكفاح والمواجهة.

في تلك الحقبة المفصلية من تاريخ الأمة العربية والإسلامية، ظهر الدين الإسلامي بوصفه أيديولوجيا فعّالة ومؤثرة على الساحة الدولية، سياسياً واجتماعياً وفكرياً، متجسداً بشكل تطبيقي عملي في نظام جمهوريّة إيران الإسلامية، ذلك النظام الذي أخذ على عاتقه وتبنّى بالكامل مهمّة الدفاع عن القضية الفلسطينية، مشكّلاً بذلك الشرارة الأولى التي أعلنت بداية النهاية لكلّ هذا اليأس والقنوط الذي كان يشعر به شعب فلسطين المظلوم والمضطهد؛ حيث إنّه مباشرة بعد انتصار الثورة الإسلامية، تمّ تحريك وتفعيل قطاع غزة ليكون المركز الأول للجهاد (بلونه الإسلامي) في فلسطين.

وكان لذلك الحضور الكبير على الساحة للإمام الخميني (عليه السلام) أثره البالغ على النخب والمثقفين الفلسطينيين، وشعر الجميع بوجود الدافع القويّ لديهم

للتفتيش عن سبل تطبيق تعاليم وأفكار الإمام الخميني عليه السلام بشكل عملي في فلسطين.

وهكذا، عادت القضية الفلسطينية إلى قلب حركة النهضة الإسلامية المعاصرة، بعد أن كان الإسلام في الخمسينات والستينات والسبعينات قد خرج وابتعد تماماً عن المشهد الفلسطيني، لتنتقل القضية الفلسطينية حاملةً معها هذا الوصيد الجديد لمواجهة ظاهرة دولة إسرائيل.

ومنذ ذلك الحين، سادت مبادئ الجهاد والشهادة والتضحية، التي كانت هي الشعارات والقيم التي رفعتها وحملتها الثورة الإسلامية الإيرانية، وتحولت هذه المبادئ إلى مبادئ أساسية لحركة الكفاح والمواجهة في فلسطين.

وهذا ما أشار إليه الناطق باسم حركة الجهاد الإسلامي الفلسطينية في لقاء جمعه بالإمام الخميني عليه السلام في ديسمبر ١٩٨٨، عندما قال: «إنّ شعبنا اليوم قد انخرط في مواجهة العدو باسم الإسلام وتحت رايته، وإنّ انتفاضتنا الإسلامية المباركة التي نراها اليوم وترونها في وطن الحبيب فلسطين ما هي إلا انعكاس لنور ثورتكم الإسلامية المظفرة، هذه الثورة التي كان لها الأثر الكبير في إيجاد أكبر وأهمّ التحوّلات في عصرنا الراهن».

وبعد تأكيده البالغ على المفاهيم والشعارات الأساسية التي رفعتها الثورة الإسلامية أضاف: «إنّ ثورتكم الميمونة علّمت شعبنا البطل، وأمّتنا الإسلامية الكبيرة، أنّ الجهاد والقتال والمقاومة هو طريقها وخيارها الوحيد، على خطى نبي الإسلام العظيم صلى الله عليه وآله والعظماء المؤمنين الذين كانوا معه في صدر الإسلام، والذين تابعوا هذا الطريق من بعده صلى الله عليه وآله. وإنّ شعبنا الفلسطيني ليعي جيداً أنّ طريق الجهاد والكفاح المسلّح هو طريق طويل وشاقّ، ومع ذلك، فإنّ لدى شعبنا إصراراً على أن يرفع الشعارات نفسها التي كنتم أنتم من المنادين بها، وهي شعارات: (لا إله إلا الله)، (الله أكبر) و(النصر للإسلام)».

من جانبه، قال الشيخ أسعد التميمي - أحد القياديين الفلسطينيين - متحدثاً عن البصمات والآثار المعنوية التي تركتها الثورة الإسلامية في العالم الإسلامي، وبالأخص في فلسطين: «قبل قيام الثورة الإسلامية الإيرانية، كان الإسلام غائباً تماماً عن ساحة المعركة والمواجهة، بل حتى على مستوى المصطلحات، فبدل كلمة (الجهاد) كانت تُستعمل ألفاظ ومفردات أخرى، من قبيل: (النضال) و(الكفاح) ... لقد استطاعت الثورة الإسلامية أن تكرر عملياً في أرض فلسطين الحقيقة التي جاء بها الإسلام من نشأته الأولى، وهي حقيقة أن الإسلام والجهاد هو سبيل الخلاص الوحيد لهذه الأمة».

كما رأى الشيخ عبد العزيز عودة - رجل الدين الفلسطيني المعروف، والذي يُوصف بأنه المرشد الروحي والفكري لحركة الجهاد الإسلامي - أن «ثورة الإمام الخميني هي أهم وأكثر المساعي جدية في اتجاه تحقيق الصحوة الإسلامية وتوحيد كلمة الشعوب الإسلامية ... وأن إيوان المسلمة هي الدولة الوحيدة التي تأسست وتمركزت وتمحورت حول قضية فلسطين».

٢ - حركة إحياء الدين وصحوة العالم الإسلامي (الأصولية الإسلامية):
مع انتصار الثورة الإسلامية الإيرانية عام ١٩٧٩م، عاد الدين ليدخل مجدداً إلى مختلف الساحات، وليكون له دور فاعل وكبير في المجالات السياسية والاجتماعية. وقام في العالم الإسلامي بالأخص شرائع واسعة من المسلمين حملوا هويتهم الدينية ودخلوا بها معترك المواجهة والتصدي، واستطاعوا - شيئاً فشيئاً - أن يحدثوا العديد من التحولات السياسية والاجتماعية في المنطقة، حتى تشكل منهم تيار كبير وممتدبات يُعرف اليوم باسم «الأصولية الإسلامية»، (وإن كان هذا الاسم قد يُعطى مداليل سلبية في بعض الأوساط).

أثر هذا التيار في الكثير من المفكرين والعلماء الإسلاميين، واستطاع أن يغير وجه ووجهة القتال والمواجهة، وبالأخص في الأوساط الفلسطينية، حيث

انتشرت المظاهر الإسلامية، كالحجاب، والحضور في المساجد، وتحولت المساجد إلى مراكز للنشاط والمواجهة، وعادت الجامعات الفلسطينية أيضاً لتكون منطلقاً لبروز العديد من التشكيلات الإسلامية، قاطعةً شوطاً كبيراً في مجال النشاطات الاجتماعية، متقدمةً بذلك على سائر الأفكار والمدارس والتيارات غير الإسلامية . وكان أن بلغت الحركة الإسلامية ذروة نشاطها في جامعات: النجاح، بيرزيت، غزة، بيت المقدس، والخليل.

٣- وصول المنظمات والجامعات الفلسطينية إلى طريق مسدود

أكثر من خمسين عاماً مرّت على احتلال فلسطين من قبل الصهاينة . وخلال هذه الفترة المديدة، برزت العديد من المجموعات والفصائل الفلسطينية التي رفعت شعار قتال إسرائيل ومواجهة الصهيونية وتحرير فلسطين.

ولكن، وبالرغم من الضجة الكبيرة وحملات الدعاية الواسعة النطاق التي كان يُروّج لها لهذه الفصائل، أحياناً من قبل الفصائل أنفسها، وأحياناً أخرى من قبل العدو، إلا أنها لم تتمكّن من القيام بما هو مطلوب منها في مجال الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني المظلوم . كما لم يتمكّن أحد من المجموعات والأحزاب الفلسطينية أن يؤسّس لمواجهة شاملة واسعة النطاق ضدّ الصهيونية. وهكذا اقتصرّت المواجهات التي خاضتها هذه المجموعات على حدّ المواجهة الإعلامية والتموضع السياسيّ خارج حدود الأراضي الفلسطينية، وأمّا في الداخل، فاقصر الأمر على بضع عمليّات الإيذاء المحدودة والموضعية التي لم يكن لها أدنى تأثير على مسار ومصير القضية الفلسطينية على المدى الطويل.

وبذلك تحوّل الشعب الفلسطينيّ المظلوم، من جانبٍ، إلى شاهد عيانٍ على فشل وعدم نجاح المواجهات التي قادتها المنظّمات الفلسطينية المستقرّة خارج أراضي فلسطين، وعدم تأثيرها على مسيرة تحرير الأراضي الفلسطينية المحتلة،

ومن جانبٍ آخر، إلى شاهد على تثبيت الصهاينة لمواقعهم ودعائم دولتهم، وتوسيع نطاق المستوطنات الصهيونية على مستوى كبير، وترسيخ أقدام كيان الاحتلال الصهيوني في تلك الأرض المبارك ما حولها.

هذا اليأس من الخارج - تُضاف إليه الضغوطات التي مارسها الصهاينة من الداخل - شكّل نقطة الانطلاق لحركة الانتفاضة، التي تعني - ببساطة - القيام والانتفاضة من داخل الأراضي المحتلة، بالاعتماد على النفس، و على الفكر الأصيل (الإسلام)، وعلى الإمكانيات المتوفرة والمتاحة (الحجارة).

٢ - خيبة الأمل من تحرّكات الدول الأخرى ومؤسّسات المجتمع الدوليّ: قدّمت المحافل الدوليّة عدداً من الحلول والاقتراحات والبيانات الختامية، لكنّ هذه الحلول والاقتراحات لم تفشل في الحدّ من احتلال الأراضي الفلسطينية فحسب، بل إنّها - أيضاً - شكّلت اعترافاً رسمياً بوجود هذا الكيان الغاصب.

كما أنّ الدول العربيّة (الشقيقة) التي كانت تدّعي الدفاع عن الشعوب والأراضي العربيّة لم تُوفّق أصلاً في إحقاق أو استع ادة شيء من الحقوق الفلسطينية.

وبعد اتّفاقيّة كامب ديفيد وعودة العلاقات العربيّة مع مصر - حيث كانت قد قُطعت على خلفيّة هذه الاتّفاقيّة المشؤومة - حصل لدى الفلسطينيين قناعة راسخة بأنّهم لا ينبغي أن يعوّلوا كثيراً على مساعي وتحرّكات الدول العربيّة. كما أدركوا جيّداً أنّ المنظّمات والمحافل الدوليّة، حيث كانت خاضعةً بالكامل لنفوذ القوى العظمى، ولا سيّما الولايات المتّحدة الأمريكيّة، فهي تلعب دور الحاضن والمحامي الأوّل عن إسرائيل، وأنّ الاقتراحات ومشاريع الحلول التي تصدر عنها لا تصبّ أبداً في صالح القضايا والمطالب الفلسطينية، وأنّ تعليق الآمال على هذه المؤسّسات ما هو إلّا تكرار لأخطاء الماضي.

٥ - انتصار المقاومة في لبنان:

أدّى العدوان الشامل الذي شنته إسرائيل على لبنان في العام ١٩٨٢ م إلى تشكّل المقاومة الإسلاميّة في صفوف أبناء الشعب اللبنانيّ، وكان البارز فيه مقاومة (حزب الله) اللبنانيّ.

وفي البداية، نجحت المقاومة الإسلاميّة - بفضل صمودها واستقامتها وثباتها وبطولة أبنائها في المواجهة الشعبيّة التي قادتها ضدّ الإسرائيليين - في إجبار حلفاء إسرائيل وحمايتهم (الجنود الأمريكيّين والفرنسيّين) على الانسحاب والتراجع والفرار من لبنان، ثمّ تمكّنت - في حربٍ غير متكافئة خاضتها خلال مدّة لا تزيد عن ٢٠ عاماً - من إرغام الصهاينة على الفرار ذعرًا وهلعًا من جنوب لبنان، مبطلّةً بذلك الأسطورة القديمة التي كانت تقول بأنّ (جيش الاحتلال الإسرائيليّ جيش لا يُقهر ولا يمكن هزيمته)!!

هذا النصر الساحق والمبين الذي حقّقه حزب الله على الصهاينة أوصل الشعب الفلسطينيّ المسلم إلى القناعة التامة بأنّ طريقهم إلى الانتصار في حربهم ضدّ المحتلّ الغاصب يتمثّل - أوّلاً : - في جعل القتال والمواجهة يصطبغان بالصبغة الإسلاميّة، وفي رفع الشعارات الإسلاميّة، وفي إعلان الجهاد المقدّس ضدّ المحتلّين . ويتمثّل - ثانيًا : - في خوض المواجهة وإدارتها بالاعتماد على أنفسهم حصراً، ودون اتّكالٍ على البلدان والدول الأخرى.

المنظّمات الفلسطينيّة في مرحلة ما بعد الانتفاضة

لم تكن الانتفاضة في فلسطين سوى حصيلة للظروف والمعطيات الجديدة (النفسيّة، والفكريّة، والسياسيّة، والاجتماعيّة) التي عرفها الفلسطينيون، إن في الداخل الفلسطينيّ، أو على المستوى الدوليّ، ولا سيّما في العالم الإسلاميّ. ومن هنا، جاءت الأفكار والشعارات التي رفعها المقاتلون وطرق المواجهة

التي اعتمدها مختلفاً في زمن الانتفاضة عما كانت عليه فيما قبلها. فكانت النواة الأصلية للأفكار المحفزة على القتال والمواجهة تتشكل من داخل المساجد، وتتمحور وتتوسع حول الفكر الإسلامي، وفي دائرة تعاليم الإسلام وقيمه، كما أن المواجهات مع المحتلين الصهاينة في هذه المرحلة بدأت تأخذ طابع الشعبوية والشمولية.

ولوحظ خلال هذه السنوات تشكل وظهور العديد من المنظمات والمجموعات التي تحركت تحت اسم (الإسلام)، ونادت بتعاليمه ورفعت شعاراته.

يقول السيد هادي خسرو شاهي في وصف هذه المجموعات: «ومنها: جماعة التبليغ والدعوة، التي تتمركز في رام الله، وتأخذ منحى الأنشطة التبليغية والثقافية. غير أن هناك مجموعات أخرى لم تقتصر على المجال التبليغي، ولم تقف عند هذا الحد، بل تخطته إلى الدخول في مجال الأنشطة السياسية، كتنظيم حزب الله الذي وجد بدعم واحتضان من الثورة الإسلامية الإيرانية. وكتنظيم جماعة المسلمين، الذي كان له في البداية حضور محدود في قطاع غزة، ثم على أثر الأحكام التي أصدرتها المحكمة العسكرية بـرام الله ضد عدد من أعضائه بتاريخ ١٠ سبتمبر ١٩٨٤م تحول هذا التنظيم إلى تنظيم علني. وإلى جانب هذه المجموعات كان هناك عدد من الفصائل والمنظمات الإسلامية الأخرى التي لها - بشكل أو بآخر - ارتباط ما بتنظيم الإخوان المسلمين [ممثل التيار الإسلامي السلفي]، أو أنها كانت متأثرة به، نذكر منها على سبيل المثال: تنظيم الأيادي المسلمة، وجماعة شباب المعركة الإسلامية، في قطاع غزة، وحركة الإصلاح الإسلامي، وتنظيم الشباب المسلم».

خصائص الانتفاضة وأبرز امتيازاتها

امتازت الانتفاضة الفلسطينية بخصائص عدّة نشير إلى عددٍ منها فيما يلي:

١ - تحوّل المواجهة نحو الصبغة الإسلامية:

تُعتبر الفترة الممتدّة بدءاً من أواخر السبعينات فترة التحوّلات الكبيرة لدى الشعب الفلسطيني، على صعيدي : الفكر والمواجهة ؛ إذ - من ناحية - عمّت الانتفاضة كافّة الأراضي الفلسطينية، وامتدّت المواجهة المسّ لحة إلى داخل الأراضي المحتلة.

ومن ناحية أخرى، تحوّلت المجموعات والفصائل المنضوية تحت مظّمة التحرير الفلسطينية، والتي كانت قد تشكّلت في أصل وجودها لمواجهة الاحتلال، تحوّلت من العمل المسلّح إلى المفاوضات والعمل السياسيّ لأجل تشكيل دولة فلسطينيّة على الأراضي المحتلة تقوم في ظلّ الاحتلال واليوم، فإنّ الجيل الجديد من الفلسطينيين، بعدما اختبره الشعب الفلسطينيّ في المواجهات التي خاضها في الأراضي المحتلة على مدى الـ ٤٠ عاماً الماضية من الأفكار والتيارات والاتّجاهات المختلفة، كالماركسيّة والاشتراكيّة والقوميّة و...، لم يعد يرى النصر إلّا في العودة إلى أحضان الإسلام وربوعه، وفي التمسّك بتعاليمه، ورفع شعاراته.

وقد أشار إلى ذلك الناطق باسم حركة الجهاد الإسلاميّ الفلسطينيّة في اللقاء الذي جمعه بالإمام الخميني عام ١٩٨٨، حيث صرّح بأنّ : «الشعب الفلسطينيّ استطاع - بعد سنوات طوال - أن ينفّض عنه غبار شعارات القوميّة والإلحاد التي روج لها الاستعمار نفسه، وعاد لنشر لواء الإسلام ورفع شعاراته. وقد وعى شعبنا أنّ طريقه الوحيد هو طريق الجهاد والمقاومة، على خطى رسول الله الأعظم ﷺ ومن معه من رجالات صدر الإسلام.

وقد شاهدنا في السنوات العشر الأخيرة من القرن العشرين نزوع الشعب الفلسطينيّ - والجيل الشابّ منهم بالخصوص - نحو إحياء الشعائر الإسلاميّة،

وكثرة تواجدهم في المساجد، والمشاركة في صلاة الجمعة والجماعة، كما شاهدنا ازدياداً في عدد المجلات والجرائد والنشريات الإسلامية، كشريّات : الثورة الإسلامية، الحقيقة، الطليعة الإسلامية، صوت الجماعة الإسلامية، وغيرها. كما شاهدنا أيضاً اهتماماً متزايداً من قبل النسوة لمراعاة الحجاب الإسلامي، ونفوراً متزايداً من أماكن الفساد والفحشاء ومراكز بيع الخمر . إضافة إلى اعتماد الانتفاضة رفع شعاراتٍ مستوحاة من صميم الإسلام، كشعارات : (لا إله إلا الله)، (الله أكبر) و(النصر للإسلام)».

٢- الدور الكبير للمساجد في عملية المواجهة :

لعلّ من أهمّ السمات التي تميّزت بها الانتفاضة الفلسطينية التي اندلعت في نهايت القرن العشرين، أنّ تنظيم وتنسيق حملات المواجهة مع العدو الصهيونيّ كان يبدأ من المساجد، حيث تجتمع في هذه الأماكن المقدّسة فئات وشرائح مختلفة، وهناك يتمّ إطلاعهم على الأجواء السياسيّة، والاجتماعيّة، والاقتصاديّة، و... ويقف كلّ منهم على واجباته ومسؤوليّاته تجاه مصير أمّته ومستقبل شعبه، فيحرّكهم ويدفعهم هذا الفكر الإسلاميّ الذي يحملونه نحو القتال والمواجهة. إنّ هذا الاندفاع المتزايد من قبل الناس والحركات الإسلاميّة نحو الإسلام أدّى إلى زيادة عدد المساجد في فلسطين المحتلة، حيث بلغ الارتفاع في عدد المساجد في الـ ٣٥ عاماً الأخيرة بمعدّل ٢٠ مسجداً - سنوياً - في الضفّة الغربيّة لوحدها، وارتفع عددها هناك من ٤٠٠ إلى ٧٥٠ مسجداً، وأمّا في قطاع غزّة، فقد بلغ الارتفاع في عدد المساجد خلال العامين الماضيين ثلاثة أضعاف هذا العدد.

هذه المساجد تحوّلت إلى محالّ للتداول والمناقشة في القضايا والشؤون السياسيّة اليوميّة، ومن داخلها تنطلق الاحتجاجات على الجرائم والانتهاكات اليوميّة التي يقوم بها الاحتلال الصهيونيّ، إلى جانب سلسلة من النشاطات

الاجتماعية، وإنشاء مؤسسات لمساعدة الأسر الفقيرة، ورعاية الأطفال، وحضانتهم، وتنظيم الورش التدريبية...

وباعترا جميع مراكز القرار والدراسات والتخطيط السياسي في العالم، فإن الانتفاضة الفلسطينية قد انطلقت من المساجد، بل إن كل بيت في أرض فلسطين قد تحول إلى مسجد، حتى أن المسجد الأقصى الشريف قد أصبح اليوم مركزاً للجهاد ومقاومة الشعب الفلسطيني، وأن نداء (الله أكبر) المتصاعد من مآذنه ومناراته يدب الذعر والهلع في نفوس المحتلين، كما نشاهد ذلك - جلياً - في انتهاكات الصهاينة المستمرة لحرمة ذلك المسجد، ولا سيما في أيام الجمععات، حيث يتوجه المصلون إليه، رجالاً ونساءً، شيباً وشباناً، زرافات ووحداناً، ومن كافة أنحاء الأراضي المحتلة.

بدأت المرحلة الثانية من الانتفاضة في الأشهر الأخيرة من عام ٢٠٠٠، ولا تزال مستمرة حتى وقتنا هذا، وهي تُعرف اليوم باسم (انتفاضة الأقصى)، نظراً لأن انطلاقها إنما كانت من داخل المسجد الأقصى، على أثر ما قام به السفّاح أرييل شارون من انتهاك سافر لحرمة.

وعن دور المساجد في انتفاضة الشعب الفلسطيني، يقول الشيخ محمد حسين، إمام المسجد الأقصى - في مقابلة أجريت معه -: «إن المسجد الأقصى اليوم هو بمثابة مركز لاجتماع المسلمين الفلسطينيين والتقاءهم، كما أنه بات هو الملهم لهم، والباعث على صمودهم، والداعي إلى استقامتهم في مواجهة العدو الغاصب. ولقد سجل المسجد نجاحاً باهراً في لعب هذا الدور، موفراً للشعب الفلسطيني المسلم دعماً كبيراً يخوّله التعامل مع الصعوبات المختلفة التي تواجهه، مثبتاً بذلك أن الإنسان يحى بالعقيدة أكثر من أي شيء آخر، وأن العقيدة الإسلامية هي أكبر داعم ومحتضن للشعب الفلسطيني، حتى إنها لو لم تكن حية في وجدان هذا الشعب العظيم لفقد هذا الشعب هويته إزاء الأحداث

الكبرى التي مرّت عليه ... فللدين والعقيدة هما كلّ شيء بالنسبة إلى شعبنا الفلسطينيّ، وليس هناك من حلّ آخر يكون بديلاً عنه».

٣ - تحوّل المواجهة إلى مواجهةٍ شعبيةٍ شاملة:

بالرغم من نجاح العدو الصهيونيّ - بالإضافة إلى عوامل أخرى - في اختصار المقاومة الفلسطينية في عددٍ من المجموعات والمنظّمات السياسيّة، ليتسنى له أن يجرّ هذه المجموعات والمنظّمات إلى طاولة المفاوضات - مفاوضات التسوية المذلّة -، أو إلى أن يتعاملوا معه، إلّا أنّ الانتفاضة الفلسطينية استطاعت أن تقتلع أنياب هذا الحصار، موسّعة دائرة المقاومة والمواجهة مع الصهاينة لتطال المجتمع ككلّ، بحيث صار المجتمع الفلسطينيّ كلّ، بجميع طبقاته، وشرائحه، وأصنافه، يرى في مقاومة الاحتلال فريضةً وأمرّاً واجباً . وبات كلّ من هو قادر حتى على رفع الصوت بالشعارات، أو حتى على رمي حجر، من الطفل ذي العشر سنوات، إلى الشيخ ذي السبعين عاماً، رجلاً كان أو امرأة، شريكاً فاعلاً وأساسياً في الحركة الإسلامية التي صنعت هذه الانتفاضة. ويمكن الجزم بأنّه لا يوجد عامل كالإسلام وإسلاميّة المواجهة كان قادراً على تحريك هذا الحشد الجماهيريّ الكبير ودفعه نحو مثل هذه الانتفاضة الجبّارة.

٤ - استمراريّة المواجهات وعدم توقّفها وانقطاعها:

أشرنا إلى أنّ المواجهات التي كانت تخوضها الفصائل الفلسطينية في مرحلة ما قبل الانتفاضة كانت - في الأعمّ الأغلب - تأخذ منحىً متقطّعاً يتمثّل في الاقتتال على توجيه ضرباتٍ عسكريّة موضعيّة إلى جنود أو آليات العدو الصهيونيّ.

وأما الانتفاضة، فقد تميّزت بأنّها حركة مستمرّة، متدفّقة، سيّالة، دائمة، غير منقطعة، وبهذا استطاعت أن تستنزف العدو، وأن تكبّده خسائر فادحة على

مختلف الأصعدة، السياسية والاقتصادية والعسكرية و .. كما استطاعت - من خلال حشد وتعبئة القوى الفلسطينية ، ومن خلال رص الصفوف، وتوحيد الجبهات - أن تكسب إلى صفها بعضاً من أشكال الدعم الدولي، وذلك خلال مدة زمنية مقبولة.

٥ - الاعتماد على الموارد المحلية بدلاً من الاعتماد على الدول الأجنبية:

لاحظنا خلال حديثنا عن التنظيمات الفلسطينية في مرحلة ما قبل الانتفاضة، أن أكثر الفصائل الفلسطينية كانت آنذاك تدور في فلك الدول العربية التي اتخذتها مقراً لها، بحيث كانت خاضعة لمشاريع تلك الدولة وتوجهاتها وانتماءاتها الفكرية وقراءتها السياسية وعلاقاتها الدولية وصلاتها الخارجية، وللتيارات الفكرية، الشرقية أو الغربية، و بطبيعة الحال، للسياسات التي كانت نافذة فيها.

وهذا على العكس تماماً من الانتفاضة المباركة، التي اعتمدت في قيامها على الإمكانيات الداخلية والمحلية المتاحة، والتي لم تكن لتتوفر لها لولا ذلك الاحتضان والالتفاف الجماهيري من قبل سكان المدن والقرى الفلسطينية، ما جعل القرارات والخطوات الصادرة عنها مستندة فقط إلى احتياجات الداخل الفلسطيني وتطلعاته، واعتماداً على ما تشخصه - هي فقط - من آليات وأساليب العمل المناسبة لها.

القاعدة الاجتماعية للانتفاضة:

لا تقف (الأصولية الإسلامية) التي تستلهم حركتها من أحكام الإسلام وتعاليمه عند طبقة خاصة أو صنف معين من الناس، بل هي حركة متنوعة عامة تتسع لتشمل كافة أطراف المجتمع وطبقاته وشرائحه . وقد شارك كافة أطراف الشعب الفلسطيني في هذه الانتفاضة المباركة، رجالاً ونساءً، صبيةً

وشيوخاً، سكّان المدن وسكّان القرى والأرياف، تلامذة وعمّالاً، بل شارك فيها أيضاً حتى الأطفال القصر، وبطبيعة الحال، فلا ننسى رجال الدين والفعاليّات الاجتماعيّة والمتقّفين والنخب الشبّانيّة وطلّاب الجامعات، الذين هم - بحقّ - عَصَب هذه الانتفاضة ولبّها ونواتها.

أ) رجال الدين:

تشكّل المساجد، ومعها رجال الدين، الركيزة الأساسيّة للمواجهة مع الصهاينة، فضلاً عن سائر النشاطات السياسيّة والاجتماعيّة، حيث يستلهم هؤلاء من أحكام الإسلام ومقرّراته لتغذية الدافع النفسيّ لمواجهة الظلم والعدوان، كما يقومون بدور بارز في ضخّ وعي الوحدة والانسجام بين مختلف القوى، الأمر الذي يسهم في دفع عجلة الحراك الاجتماعيّ والسياسيّ نحو الأمام، وبالتأكيد: نحو صالح القضية الفلسطينيّة، ومن أبرز وجوه هذا الحراك: الانتفاضة.

ومن بين رجال الدين البارزين يمكن الإشارة إلى : الشيخ أحمد ياسين، مؤسس حركة حماس، والشيخ عبد العزيز عوده، المرشد الروحيّ لحركة الجهاد الإسلاميّ، والشيخ عبد الله درويش، أحد المؤسسين الأوائل للحركة الإسلاميّة في الداخل الفلسطينيّ.

ب) الطّلاب الجامعيّون:

لعلّ الجامعات الفلسطينيّة هي أوضح وأهمّ العلامات والدلائل التي تثبت تأثير الحركة الأصوليّة الإسلاميّة في مشهد المواجهة الفلسطينيّ، حيث نلاحظ غلبة كبيرة لصالح الإسلاميين وهيمنة منهم على الجامعات والاتّحادات الطلّابيّة.

وبالتدقيق في النشاطات والفعاليّات الإسلاميّة التي تُقام في كلّ من جامعات: النجاح، بيرزيت، غزّة، بيت المقدس، والخليل، نستطيع أن نرى ،

وبوضوح، نجاح وازدهار فعاليات القوى الإسلامية . فمنذ أواخر السبعينات،
وبتأثيرٍ من تيارات الصحوة الإسلامية في العالم الإسلامي، بدأت الحركة
الإسلامية في الجامعات الفلسطينية سيرها نحو الرشد والتقدم، واستطاعت أن
تنخّط سائر التشكيلات غير الإسلامية التي كان لها حضور في الاتحادات
الطلّابية.

ج) الشباب:

إضافةً إلى الجامعيين الذين يمثلون - هم أنفسهم - شريحةً واسعة من الشباب
في المجتمع، لا يسعنا أن نغفل الحضور الفاعل لسائر الشباب والمراهقين، الذين
لهم دور فاعل وأساسي في تحقّق النهضة الإسلامية بفلسطين، حيث تمكّن
الشباب الفلسطيني من نقل رقعة المواجهة مع العدو إلى كافّة أرجاء فلسطين،
بعد أن اتّجهوا نحو تنسيق حراكهم ونشاطهم وتأطيره وقولبته في تشكيلاتٍ
وتنظيمات محدّدة، كتّظيم: الشباب المسلم، وشباب الحركة الإسلامية.

* * *

خصائص الخطاب العاشوري

بين تجرّد الخطاب والمزاوجة بين العاطفة والعقل

□ الشيخ معين دقيق

تجربة

الكثير منا - بنسيانٍ تارةً، وتناسٍٍ أخرى، وجهلٍ للثقة - ينظر إلى واقعة كربلاء وما وقع على حاشيتي الزمان قبل الحدث الفاجعة وبعده على أنّه مجرد تراجيديا أليمة فحسب... والحال أنّ تراجيديّة كربلاء المؤكّد عليها في النصوص الواردة عن أهل البيت عليهم السلام وإن كانت محلاً للتركيز في حدّ ذاتها بلا إنكار، ولكن لا تمنع نفسيّتها لذلك، وللثواب الجزيل المترتب عليها أن نسلط الضوء عليها من أبعادها المختلفة، ولا يمنع ما تقدّم أن تكون تلك التراجيديّة مقدّمة مهمّة للوصول إلى أهداف أهم.

ولتقريب الفكرة نتأمّل في نظير لذلك، أعني : مسألة النوافل؛ فإنّها من المستحبات النفسية التي يترتب عليها الثواب في حدّ ذاتها، ولكن ثوابها النفسي واستحبابها الذاتي لم يمنع من أن تكون مقدّمة لهدف أهم، وقد أُشير إلى ذلك في

بعض النصوص، روى الصدوق بإسنادٍ صحيحٍ إلى مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ قَالَ : قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام : «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَرْفَعُ لَهُ مِنْ صَلَاتِهِ نِصْفُهَا أَوْ ثُلُثُهَا أَوْ رُبُعُهَا أَوْ خُمْسُهَا وَمَا يَرْفَعُ لَهُ إِلَّا مَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ مِنْهَا بِقَلْبِهِ وَإِنَّمَا أُمِرُوا بِالنَّوَافِلِ لِتَمِّمَ لَهُمْ بِهَا مَا نَقَصُوا مِنَ الْفَرِيضَةِ»^(١).

وعنه أيضاً بإسناده إلى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سِرِّانٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، قَالَ : «قُلْتُ لِأَيِّ عِلَّةٍ أَوْجَبَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله صَلَاةَ الزَّوَالِ ثَمَانٍ قَبْلَ الظُّهْرِ وَثَمَانٍ قَبْلَ الْعَصْرِ وَلِأَيِّ عِلَّةٍ رَغَبَ فِي وُضُوءِ الْمَغْرِبِ كُلِّ الرَّغْبَةِ وَلِأَيِّ عِلَّةٍ أَوْجَبَ الْأَرْبَعَ رَكَعَاتِ مَنْ بَعْدَ الْمَغْرِبِ وَلِأَيِّ عِلَّةٍ كَانَ يُصَلِّي صَلَاةَ اللَّيْلِ فِي آخِرِ اللَّيْلِ وَلَا يُصَلِّي فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ قَالَ لِتَأْكِيدِ الْفَرَائِضِ لِأَنَّ النَّاسَ لَوْ لَمْ تَكُنْ صَلَاتُهُمْ إِلَّا أَرْبَعُ رَكَعَاتِ الظُّهْرِ لَكَانُوا مُسْتَخَفِّينَ بِهَا حَتَّى كَادَ يَفُوتُهُمُ الْوَقْتُ فَلَمَّا كَانَ شَيْئاً غَيْرَ الْفَرِيضَةِ أَسْرَعُوا إِلَى ذَلِكَ لِكَثْرَتِهِ وَكَذَلِكَ الَّتِي مِنْ قَبْلِ الْعَصْرِ لِيُسْرِعُوا إِلَى ذَلِكَ لِكَثْرَتِهِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنْ سَوَّفْنَا وَنُرِيدُ أَنْ نُصَلِّيَ الزَّوَالِ يَفُوتُنَا الْوَقْتُ...»^(٢).

ففي هذين الخبرين دلالة واضحة على أن النوافل - على الرغم من كونها من المستحبات النفسية والتي يكون ثوابها على مجرد إتيانها بشروطها - قد شُرعت لتأكيد الفرائض التي هي أهم من النوافل.

وهكذا الحال في مسألة البكاء، وسكب العبرات، والتباكي، والندب، وغير ذلك من المفردات المرتبطة بتراجيدية كربلاء، فإن ذلك كله وإن كان مهماً في حد ذاته، ومطلوباً في نفسه، لكنه مع كل ذلك تكمن أهميته القصوى في كونه مقدمة ليبقى المجتمع في كل عصر ومصر متفاعلاً مع أهداف الثورة وغايات القيام بوجه الظالمين.

فإذا كان الهدف الأقصى لاستحضار فاجعة كربلاء هو الوصول إلى الأهداف التي أرادها صاحب النهضة؛ لكي تسير الأمم والشعوب في جميع الأزمنة والأمكنة على هذا النهج القويم في مقارعة الظلم ومحاربة الفساد،

فدراسة الخطاب العاشورائي يحظى بأهمية كبرى في فهم واقعة عاشوراء على حقيقتها؛ لكونه هو المبرز المباشر لأهداف تلك النهضة وغاياتها.

إشكالية البحث:

هذا، وبعد وضوح أهمية موضوع المقال، نسلط الضوء على أسئلته التي تتكوّن منها إشكالية البحث، وهي:

السؤال الأصلي: ما هي خصائص الخطاب العاشورائي؟

الأسئلة الفرعية:

- (١) ما هو المقصود من الخطاب العاشورائي؟
- (٢) ما هو دور الزمان في الحدث العاشورائي وتأثيره على الخطاب؟
- (٣) ما هو المنحى الذي اتّجه إليه الخطاب العاشورائي من ناحية العقلانية والعاطفة؟

المقصود من الخطاب العاشورائي:

لا نقصد من (الخطاب العاشورائي) في هذا المقال خصوص ما صدر على لسان الإمام الحسين عليه السلام، وفي اليوم العاشر من المحرم، ولا نقصد به كلّ ما صدر ممّن يرتبط بواقعة عاشوراء، سواء كان إلى طرف معسكر الخير (الذي يمثّله البيت الهاشمي) أم إلى معسكر الشر (الذي يمثّله البيت الأموي)، بل نقصد بهذا الخطاب: كلّ خطاب صدر من الإمام الحسين عليه السلام ومن كان في خطّه، سواء كان زمن الخطاب ومكانه عاشوراء وكربلاء، أم كان قبل ذلك، لكن في سياق السيرة نحو النهضة الحسينية وعلى هذا الأساس، فكلّ خطاب صدر من الحسين عليه السلام وأهل بيته، وصحبه الذين بذلوا مهجهم دونه، في إطار الوصول إلى نقطة الحسم زماناً

ومكاناً (اليوم العاشر من محرّم في كربلاء)، يعتبر موضوعاً لهذه الدراسة المختصرة، ويكون البحث عن خصائصه ومقوماته. وخصائص الخطاب العاشوري وإن كانت كثيرة، إلّا أنّ التركيز في هذا المقال على خصيصتين قد أغفلتا في كثير من الكتابات حول النهضة العاشورية.

الخصيصة الأولى: التجرد عن الزمان والمكان

يأتي على رأس الخصائص التي يميّز بها الخطاب الحسيني أنّه مجرّد عن الزمان والمكان، فالزمان والمكان -الذي لا بدّ منه في كلّ خطابٍ- مجرّد ظرفٍ لذلك الخطاب، من دون أن يغرق الخطاب في ظرفه الزماني والمكاني ويذوب فيه، بحيث لو جرّد الخطاب عن ظرفه لما كان له مدلوله وأهدافه وهذه خصيصة مشتركة في كلّ كلام يصدر من متكلم مرتبط بالوحي، يخاطب الذات الإنسانية مع قطع النظر عن امتيازاتها الفردية والشمسية. فالخطاب العاشوري نظير الخطاب الصادر من الطبيب الذي يصف الدواء لكلّ داء، من دون أن يكون فردية الفرد لها دخالة في وصفة الطبيب ولأجل ذلك صار الخطاب العاشوري خطاباً خالداً، ويبقى حيّاً يتجدّد على مرّ العصور واختلاف الأزمنة:

كذب الموتُ فالحسينُ مخلّد كلّما أخلق الزمانُ تجدد

فالحسين وخطاباته ستبقى مناراً لكلّ حرّ في كلّ مكانٍ ليوم الحساب وقيام الساعة:

ويبقى الحسينُ ليوم الحساب مناراً به تهتدي الكائنات

ويبقى الحسينُ ليوم الحساب حديثاً تجددته الذكريات
ويبقى الح سينُ ليوم الحساب نشيداً على الألسن الناطقات
وبحسب الاصطلاح : إِنَّ الخطاب الحسيني خطابٌ على نهج القضية
الحقيقية، التي وإن كان لها شأنٌ نزول، إِلَّا أَنَّهُ لا يجعل الخطاب خاصاً به.
فالخطاب الحسيني كانت غايته أحد أمرين:
- إقامة الحجّة على المباشر.

- جعله قنطرة للعبور إلى المعدوم والذي سيولد على امتداد زمان البشرية
وذلك لأننا رَوينا عن رسول الله ﷺ ما يدلّ على أَنَّ التاريخ - بما لأحداثه
من ميزةٍ مشتركة - يعيد نفسه، حيث صحّ عنه ﷺ قوله: «سيكون في أمّتي
كلّ ما كان في بني إسرائيل حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة حتى لو أَنَّ أحدهم
دخل في جحر ضب لدخلتموه»^(٣).

فالأحداث الصادرة من بني البشر - خصوصاً ما كان لها بعدٌ جمعيٌّ عامٌ -
باعتبارها تخضع للكوا من النفسية التي تتنوع بتنوع الجبلّة، والناس معادن
كمعادن الذهب والفضة، تكون - في العادة - مشتركات بين كلّ الشعوب
والأمم في كلّ زمانٍ ومكانٍ. فاحتاج - من كان في موقع الطبيب المعالج للنّفوس
- أن يُطلق خطابات ناجعة لكلّ تلك الشرائح على مرّ العصور.
ولا بأس بالتدليل على ذلك بشاهد في ضمن الأركان التالية:

- (١) نوع المخاطب : من ديدن المكابرين على مرّ العصور أن يسدّوا آذانه م
بوجه الحقّ والحقيقة مهما كانت الدلائل عليها بيّنة والشواهد فيها واضحة.
- (٢) المخاطب المباشر : وقد كانت الشريحة المباشرة للخطاب الحسيني تتميّز
بهذه المزية، ومع ذلك صدر الخطاب مع علم المتكلّم بأنّ المخاطب ممّن ينطبق
عليه قوله تعالى: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَفْتِنَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا﴾ [الرمل: ١٤]؛ لأجل أن
يستفيد من الخطاب المتردّد والجاهل.

(٣) النموذج للخطاب الحسيني:

عندما اصطفّى المعسكران للقتال في كربلاء، خرج بعض أصحاب الإمام الحسين عليه السلام واستأذنه ليكلّموا القوم ويعظوهم، وكان منهم برير بن خضير الهمداني؛ حيث يحدثنا التاريخ أنّه قال : «يا بن رسول الله، أتأذن لي فأخرج إليهم، فأكلّمهم. فأذن له فخرج إليهم، فقال: يا معشر الناس، إنّ الله عز وجل بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وهذا ماء الفرات تقع فيه خنازير السواد وكلابها، وقد حيل بينه وبين ابنه فقالوا: يا بري، قد أكثرت الكلام فاكفف، فوالله ليعطش الحسين كما عطش من كان قبله»^(٤).

ومثله ما ورد عن زهير بن القين؛ حيث خرج على فرس له ذنوب شاك في السلاح، فقال يا أهل الكوفة : «نذار لكم من عذاب الله نذار! إنّ حقاً على المسلم نصيحة المسلم ونحن حتى الآن إخوة على دين واحد ما لم يقع بيننا وبينكم السيف فإذا وقع السيف انقطعت العصمة وكنّا نحن أمة وأنتم أمة. إنّ الله قد ابتلانا وإياكم بذرية محمد ﷺ لينظر ما نحن وأنتم عاملون. إنّنا ندعوكم إلى نصره وخذلان الطاغية عبيد الله بن زياد . فسوّه وأثنوا على ابن زياد . فقال لهم: يا عباد الله ، إنّ ولد فاطمة أحق بالود والنصر من ابن سمية ، فلنّ كنتم لم تنصروهم فأعيدكم بالله أن تقتلوهم ، فلعمري إنّ يزيد يرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين عليه السلام . فرماه شمر بسهم وقال : اسكت اسكت الله نامتك أبرمتنا بكثرة كلامك . فقال زهير: يا ابن البوال على عقبيه ما إيّاك أخاطب، إنّما أنت بهيمة ، والله ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين وأبشر بالخزي يوم القيمة والعذاب الأليم»^(٥).

وهذا بعينه حصل مع سيّد الشهداء عليه السلام، فإنّه عندما قال لهم : «ارجعوا إلى أنفسكم فعاتبوها هل يحلّ لكم سفك دمي وانتهاك حرمتي أأست ابن بنت نبيكم وابن ابن عمه وابن أوى الناس بالمؤمنين من أنفسهم أوليس حمزة سيد

الشهداء عم أبي أولم يبلغكم قول رسول الله صلى الله عليه وآله مستبشراً لي ولأخي هذان سيذا شباب الجنة أما في هذا حاجزٌ لكم عن سفك دمي وانتهاك حرمتي»، قالوا «ما نعرف شيئاً مما تقول»^(٦).

٤) المخاطب عبر عمود الزمان : في عصرنا الحاضر، وفي السنوات الأخيرة، وبالتحديد في بلدنا الحبيب لبنان، قد حصل حدثٌ في لبنان له تداعياته الكبيرة على لبنان والمنطقة، وهو اغتيال رئيس وزراء لبنان السيد رفيق الحريري، وبدأ الغرب، وعلى رأسهم أمريكا، في المحاولة لتجسير هذا الحدث لصالحهم عن طريق إيجاد فتنة في لبنان يُعرف أولها ولا يعرف آخرها، ففبركت مختبراتهم السوداء قراراً اتهامياً لأشرف الناس . وقبل صدور هذا القرار الاتهامي وفي أثنائه وبعده، كان سيد المقاومة يقيم البراهين التي لا تقبل الجدل، الواحد تلو الآخر، على أن وراء هذا العمل هو الغ دة السرطانية إسرائيل، أو لا أقل ينبغي وضعها في لائحة الاتهام، وعلى رأس تلك البراهين الصور المسحبة لطائرات التجسس الإسرائيلي التي استطاعت المقاومة بتقنية عالية أن تحصل عليها. وعلى الرغم من وضوح تلك الأدلة والشواهد، وإقامة البراهين القاطعة على بروز الأيدي الخفية لإسرائيل وراء هذا العمل، على الرغم من كل ذلك نجد مقاماً رفيعاً ممن يُسمى بـ (١٦ آذار) يقول مخاطباً سيد المقاومة : «لو خطبت آلاف الخطب لن نرفع اليد عن المحكمة الدولية والقرار الاتهامي». أليس هذا مشابهاً لقول قتلة الحسين ﷺ الذي تقدّمت ناهجه بالحن مختلفة؟!!!

مناهج البحث التاريخي تؤكد على خصيصرة التجرد:

اختلف علماء المناهج في الموضوع الذي يصلح أن يكون محوراً للدراسات التاريخية، هل هو مطلق (الحدث) الذي حصل في الزمن الماضي كما يفهم من

أكثر الذين تناولوا في كتبهم التاريخية التأريخ لنشأة الكون والأرض أمثال الطبري (ت: ٣١٠) من المؤرخين المسلمين، ومن غيرهم مشى على هذا المنوال المؤرخ الإنكليزي (هربرت جورج ولز (Herbet George Wells): (١٨٦٦-١٩٤٦)؛ يحدّث بدأ كتابه في موجز تاريخ العالم بدراسة نشأة الكون والأرض، وما ظهر على سطحها من مظاهر الحياة المختلفة، ثمّ تدرّج في عرض تواريخ الأمم والشعوب والحضارات المختلفة منذ نشأتها حتى العصر الحديث^(٧).

أم أنّ الموضوع هو (الحدث الإنساني) الذي تحقّق في الزمن الماضي؛ لتشمل الدراسات التاريخية تمام ما صدر من الإنسان أيّ إنسان، كما هو الغالب على أكثر كتب المؤرخين الإسلاميين.

أم أنّ الموضوع عبارة عن (الحدث الإنساني المهمّ)؛ ليخرج الكثير من الأحداث الإنسانية غير المهمة عن دائرة البحث التاريخي. ولو حاولنا تخطّي ثغرة توسّع البحث التاريخي وتضخّمه بشكل لا حاجة إليه عن طريق إضافة قيد (المهم)، لكنّ ذلك يُكسب التعريف غموضاً؛ لأنّ مفهوم (المهم) لا يمتلك مفاداً دقيقاً موضوعياً يمكن تقيّمه^(٨).
أمّ أنه غير ذلك^(٩)...

وعلى كلّ تقدير نلاحظ أنّ (الحدث الواقع في الزمن الماضي) أمرٌ ضروريٌّ في بيان محورية البحث التاريخي عند الجميع.

وحينئذٍ يقع التساؤل عن دور الزمن في الدراسات التاريخية، وعلى أساس الجواب عن هذا التساؤل يتضح لنا مدى تأثير الحدث التاريخي على المستقبل، وكيف يتجرّد الحدث التاريخي عن عنصر الزمن.

وإنّ شئت فقل: إنّ المعرفة التاريخية حول حدث ما هل تتولّى تجريدته عن حاجز الزمان، وتحاول التعرّف عليه كما هو وكما كان يظهر لمن عاصره، وذلك

من خلال جهد علمي ينتقل من الحاضر إلى الماضي ويلغي المسافة الزمنية القائمة، فهل يستهدف البحث التاريخي تحقيق ذلك؟ أم أن عنصر الزمن يلعب دوراً مؤثراً في استيعاب الحدث التاريخي؟ هل يتجه الباحث في عملية القراءة نحو الماضي أم الحاضر؟ هل يقع على عاتق الباحث التاريخي إلغاء الحاجز الزمني؟ أم يتوجب عليه بلورة المرآة الزمنية وجانب الحكاية والتعبير في عنصر الزمن؟

وفي هذا المجال يوجد تصوّران:

التصوّر الأول: هو التصوّر الذي يعتبر أن الزمن يشكّل حاجزاً بين الحدث والباحث التاريخي الذي يكون بصدد معالجته . فالحدث شيء وقع في الزمان الماضي وتصرّم وانقضى، والباحث الحاضر يواجه الآن فاصلاً يحجزه عنه، وهو الزمن.

ويعتبر (فولتير)^(١٠) من أنصار هذا التصوّر، حيث ينقل عنه قوله ساخراً : «إنّ التاريخ لونٌ من نبش قبور الأموات»^(١١). وهذه الكلمة تتأسس على المفهوم المذكور للحدث التاريخي، وهو مفهوم يرى في الزمن مقبرة لأحداث التاريخ . وعلى هذا المفهوم للحدث التاريخي يستند تصوّر كثير من أولئك الذين يرون أنّ البحث التاريخي لا يتحلّى بالأهمية . وعلى ضوء هذا التصوّر سوف يتأطر الحدث التاريخي بالظرف الزماني الذي حصل فيه، وإنّما الحاجز الذي ألغى - على ضوء هذا التصوّر - ليس هو القطعة الزمنية التي صدر فيها الحدث، وإنّما هو الفاصل الزماني بين المبدأ والباحث التاريخي الذي يقع في منتهى العمود الزمني.

لكن ثمة تصور آخر يتباين جوهرياً مع ما ذكر، فالشيء التاريخي في ضوء الفهم الآخر يمثل ظاهرة اكتسبت توأصلاً وخلوداً في مجرى الزمن . وتنقسم الأحداث سواء كانت أفكاراً أم ظواهر إلى نوعين : فهي إمّا أن تتحرّك في إطار

الزمن وتتواصل فتخلد، أو تظلّ حبيسة زمنها فتدفن فيه وتنتهي، والقسم الأول هو الحدث التاريخي.

ويمثل الزمان في هذا التصور كذلك مفهوماً أساسياً، غير أنّه يعدّ - في إطار هذا التصور - بمثابة إكسير الخلود بالنسبة للحدث، الذي يكتسب تاريخيته بفضل ذلك الإكسير، وتقوّم الأمر التاريخي بامتلاك الحدث وجوداً تاريخياً بمعنى الحركة في الزمن.

فالشيء التاريخي - بحسب التصور الأول - أمرٌ احتجز خلف أسوار الماضي، ويجاول الباحث التاريخي إزالة الحاجز الزمني عبر أدوات ومناهج معيّنة، والاقتراب من الحادثة التاريخية كي يراها كما هي، وكلما كان الاقتراب من الحدث ألصق كانت رؤيته أكثر واقعية، واستتبع ذلك معرفةً تاريخيةً أدق وفي ظلّ ه ذا التصور يقتصر دور المؤرخ على ممارسة تسجيلة للأحداث، لا تنتقل مكانياً بيد أنّها تتخطى المسافة الزمنية . وعليه، فالمعرفة التاريخية تعني هنا فهم الماضي ودراسة الزمن المنصرم.

وعلى أساس هذه الرؤية تمّ تعريف الدراسة التاريخية في بعض كتب مناهج البحث بأنّها : «الدراسة التي تتضمّن مطالعة أحداث الماضي وشرحها واستيعابها، والهدف منها هو التوصل إلى تلك النتائج ذات العلاقة بأسباب الأحداث الماضية وانعكاساتها على الحاضر، وبواسطتها يصبح التنبؤ بالأحداث المستقبلية أمراً ممكناً»^(١٢).

بينما في ضوء التصور الثاني للمعرفة التاريخية يمكن اعتناء اتجاه علمي فيما يتصل بالدراسات التاريخية . والمعرفة التاريخية في هذا الاتجاه ليست جهداً يستهدف إلغاء الحاجز الزمني، وليست ذلك فحسب، بل هي على العكس من ذلك، فهي محاولة لرؤية الأمر التاريخي في مرآة الزمن . إنّ حركة المؤرخ تتجه نحو نقطة معاكسة تماماً لتلك التي يتجه نحوها المؤرخ في ضوء التصور الأول .

وعلى أساس هذا المفهوم للمعرفة التاريخية، فإننا نواجه في واقع الأمر لونا من الثورة الكوبرنيكية^(١٣)، تتحوّل فيها الحركة نحو الماضي إلى انتقال في المستقبل . فالدراسة التاريخية هي اكتشاف لح دث أو فكرة تاريخية في تواصلها التاريخي وفي ظلّ آثارها ونتائجها والتحديات التي واجهتها ونظائرها، وبحث عن معطياتها وتواليها، بدلاً عن ملاحقة تاريخها وأسبابها.

وعلى أساس هذا التعريف للبحث التاريخي لا تكون أكثر الدراسات اقتراباً من الحدث التاريخي هي الدراسة الأعمق والأدق بالضرورة، بل كلما تصرّم الزمن وأتيح للحدث مجال أوسع للحركة في المستقبل توفرت لنا إمكانية أكبر للاستيعاب. إنّ المسافة الزمنية تتيح إمكانية لقراءة أعمق وملاحظة لأبعاد متوارية في الموضوع التاريخي.

وفي هذا المجال ينقل جلال آل أحمد عن أستاذه في تاريخ الحضارة عباس إقبال الاشتياني (١٨٩٨-١٩٥٦) قوله: «لا يتاح لأيّ شخص أو كتاب أو أثر أن يقيم الحدث التاريخي (أي حدث كان) ما لم يمرّ عليه قرن من الزمن»^(١٤). وعلى هذا الأساس تكون الدراسة التاريخية على غرار الدراسة التفسيرية لا نهاية لها؛ ضرورة أنّ تداعيات المستقبل^(١٥) لها دورٌ في فهم الحدث التاريخي من زواياه المختلفة.

إذا تبين لنا ذلك، أمكن القول إنّ دراسة حركة الإمام الحسين عليه السلام - التي تشكّل خطاباته محوراً رئيسياً في هذه الحركة - تعني وصف هوية هذا الحدث العظيم وأبعادها، وتعليلها على أساس مرآة الزمن وفي ظلّ أحداث المستقبل. فالدراسة التاريخية: استيعاب الماضي في إطار نتائجه الحاضرة؛ ومن هذا المنطلق أكدنا على الخصوصية الأولى التي مرجعها إلى أنّ الخطابات العاشورائية ليس خطابات انقرضت واختبأت خلف جدار الزمن، بل هي حيّة متجددة ما دامت الشمس تشرق على صراع بين الحقّ والباطل.

الخصيصة الثانية: تزاوج العاطفة والعقل

هناك سؤال أريد أن ابتدئ به البحث عن هذه الخصوصية، وهذا السؤال يبدو لي خطيراً ومهماً، بل هو من أخطر الأسئلة التي تواجه النخب وأصحاب القرارات، ويمكن صياغته بالشكل التالي:

إذا أردنا أن نعلو بالإنسان من حظيظ المادة إلى سماء المعنى، فمِمَّا لا شك فيه أننا بحاجة إلى تطويره، ولكن السؤال أن ذلك التطوير الموصل إلى السمو هل يقتصر على تطوير العقول؟ أم أنه بحاجة إلى تطوير العواطف والميول؟ وأي التطويرين أصعب وأيهما أسهل وأقرب^(١٦)؟

وكل جواب نزعمه سوف يقتضي سلوكاً معيناً، فإذا زعمت مؤسسات الدولة مثلاً أن التطور العقلي هو الأهم، فسوف تكون النتيجة هو صرف العناية بالدرجة الأولى إلى المدارس والجامعات والمعاهد على اختلاف أنواعها، وهذا ما نراه بالفعل في جميع أنحاء العالم.

أما إذا كان ال التطور العاطفي هو الأهم، فيحق لنا أن نتساءل ماذا قدمت الدول ومؤسسات القرار في سبيل تطوير الإنسان عاطفياً. ولنضرب لذلك مثلاً واضحاً في داخل حوزاتنا الدينية؛ حيث نلاحظ أن الجواب عن ذلك السؤال - بحسب ما نلاحظه في مقام العمل - هو أن التطور العقلي هو الأهم، بل تكاد تنعدم أدنى الأهمية للتطور العاطفي، فنرى الاهتمام الكبير بتأسيس المدارس الدينية، وتأليف الكتب الدراسية ونشرها، وتربية الأساتذة الأكفلة من ناحية الأسلوب والمادة العلمية، وغير ذلك من الممارسات التي تخدم التطور العقلي والنبوغ الفكري.

وفي مقابل ذلك نرى إغفالاً واضحاً للتطور العاطفي وما يخدم الروح، فكل أيام الأسبوع صباحها ومساءها، تكون في خدمة التطور العقلي، وتبقى دقائق معدودة في يوم الأربعاء - لو وجدت - قد خصّصت لخدمة التطور العاطفي،

وهي مضافاً إلى عدم كفايتها في حد ذاتها تأتي في وقت قد استنزف طالب العلم كل قدراته التوجيهية.

والحال أن هذا العلم الجاف الذي ندرسه لا يولد (إنساناً) بما للكلمة من معنى، بل قد يكون حجاباً يمنع صاحبه عن الوصول إلى مصاف الإنسانية، ويتنزل به إلى حضيض البهيمية، وفي هذا المجال يقول السيّد الإمام الخميني (رحمه الله) في بعض تعليقاته على مصباح الأنس : «الفكر حجاب، والعلم هو الحجاب الأكبر»^(١٧).

ولنعتبر هذا الأمر في مثال عملي مشاهد
وزارة الداخلية أو المواصلات في كل بلد يحترم نفسه تفرض شروطاً صعبة على منح رخصة القيادة، وبعض هذه الشروط يرتبط بسلامة الإنسان، فلا بد له من أن يأتي بفحوصات طبية ترتبط بحاستي النظر والسمع وما شابه ذلك، وبعضها يرتبط بالمعرفة النظرية والعملية لقيادة السيارات، وتخضعه لامتحان صعب في ذلك، فإذا نجح فيه تمنحه الرخصة المؤقتة ولمدة سنة وعلى طرق معينة، ثم بعد ذلك إن مرت السنة من دون مخالفات، يعطى رخصة إلى مدة زمنية أطول، وعندما يصل الشخص إلى سنّي ضعف الحواس، تكون قد انتهت المدة؛ ليكون التجديد له مشروطاً بفحص يجريه بشكل دوري هذا، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو التالي:

هل نجحت هذه الإجراءات المشددة لوحدها في وصول الوزارة المعنيّة إلى أهدافها من ذلك؟

فلو منحت الرخصة لشخص كان من أوائل الناجحين، ومرّ هذا الشخص نفسه في مكان لا يوجد فيه كاميرات مراقبة ولا شرطة مرور، فهل ترى أن علمه العملي والنظري الذي نجح فيهما بحسب الفرض يكفيه للارتداع عن المخالفة؟!

ولو أنّه مرّ في طريق وكان هناك رجلٌ أعمى يريد أن يعبر الطريق، فهل تراه يقف في انتظاره، أو يخفّف من سرعته، لمجرّد أنّه قد درس قوانين السير عند أفضل المدرسين، وتدرّب على قيادة السيارات في أحدث المؤسسات؟! معلومٌ أنّ الجواب لن يكون بالإثبات!!!

فما هو السرّ في ذلك يا ترى؟! ليس ذلك إلاّ لخوائه العاطفي والأخلاقي، وأنّه لو بذلت الدولة ومؤسساتها المرتبطة بالسير جهداً موازياً للجهد الذي تبذله في مجال التطور العقلي، لو بذلت هذا الجهد في تطويره أخلاقياً وعاطفياً؛ لأمكن أن نجيب بالإثبات عن السؤال المتقدّم . فشهادة القيادة لا تكفي، بل لا بدّ من شهادة في الأخلاق وحسن السلوك وصحو الضمير.

وهكذا الحال في الطبيب والمهندس، وغير ذلك من المهن والحرف التي تعتمد على التطوير العقلي والعلمي من جهة، وتكون بحاجةٍ إلى بعدٍ أخلاقيٍّ في مقام الممارسة من جهةٍ أخرى، والذي نلاحظه أنّنا نضع أولادنا في المدارس وهم لم يصلوا إلى سنّ الخامسة بعد، وتضع الدولة وسائر المؤسسات مع الأهل تمام الإمكانيات التي تصبّ في تطوّرهم العلمي والعقلي، وتنتظر اثنتي عشرة سنة ليحصل الولد على الشهادة الثانوية، وتنتظره إحدى عشر سنة أخرى على الأقلّ ليخرج حاملاً شهادة اختصاصٍ في فرع من فروع الطبّ. وهذا يعني أنّنا انتظرناه أكثر من عقدين من الزمن، لا لمجرّد أن يكون حاملاً لشهادةٍ ومجموعةٍ كبيرةٍ من المعلومات، بل لكي يكون عنصراً صالحاً ومفيداً، وهذا بحاجةٍ ماسّةٍ إلى سلوكٍ مناسب، وللأسف لا نعطيه شيئاً مرتبطاً بذلك في تلك السنوات الثلاث والعشرين.

نماذج التزاوج بين التطوير العقلي والعاطفي في الخطاب العاشورائي:

وعلى أساس ما تقدّم نلاحظ أنّ الإمام الحسين عليه السلام في تمام أبعاد مسيرته قد زاوج في خطابه بين التطوّر العقلي والتطوّر العاطفي، ومع قطع النظر عن الخطاب العاشورائي نرى أنّ ذلك قد انعكس بوضوح على جبل عرفة في دعائه العظيم الذي رواه بشرٌ وبشيرٌ ابنا غالب الأسدي؛ حيث تراه في عين إثباته لوجود الصانع بأفضل البراهين يصيغه بصياغة تحرك الروح، فيشعر سامعه بالخشوع؛ ليظهر أثره على العين، فتذرف الدموع السواكب.

فهو القائل: «إِلَهِي تَرُدُّدِي فِي الْأَثَارِ يُوجِبُ بَعْدَ الْمَزَارِ، فَاجْمَعْنِي عَلَيْكَ بِخِدْمَةٍ تُوصِلُنِي إِلَيْكَ، كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ، أَيْكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهَرُ لَكَ، مَتَى غَبْتَ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ، وَمَتَى بَعُدْتَ حَتَّى تَكُونَ الْأَثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ، عَمِيتُ عَيْنٌ لَا تَرَاكَ عَلَيْهَا رَقِيبًا، وَخَسِرْتُ صَفْقَةً عَبْدٌ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيبًا».

فانظر - بعين البصيرة - إلى هذا الكلام الذي يُثبت لك وجود الصانع ببرهان اللّم، ويسبكه في عبارة تجعل التالي لها يعيش حالة الإحساس بالرقيب في كل حركاته وسكناته، ذلك الرقيب الذي لا يخاف منه لقسوته، بل لكونه هو المحبوب الأوحد والمعشوق الأبعد.

وهذه العقلانية في قالب التهذيب نراها بوضوح في جميع خطابه العاشورائية منذ بدء الثورة في المدينة ومكة إلى سقوطه مشخّطاً بدمه في كربلاء ونكتفي في هذه العجالة بذكر نماذج ثلاثة:

النموذج الأول:

عَنْ ابْنِ طَاوُوسٍ، قَالَ: وَحَدَّثَنِي جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ مَنْ أَشْرَفَ إِلَيْهِ بِإِسْنَادِهِمْ إِلَى عُمَرَ النَّسَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا ذَكَرَهُ فِي آخِرِ كِتَابِ الشَّافِيِّ فِي النَّسَبِ بِإِسْنَادِهِ إِلَى جَدِّهِ مُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ قَالَ سَمِعْتُ أَبِي عُمَرَ بْنَ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام يُحَدِّثُ أَخَوَالِي آلَ عَقِيلٍ، قَالَ: «لَمَّا امْتَنَعَ أَخِي الْحُسَيْنُ عليه السلام عَنِ الْبَيْعَةِ لِيَزِيدَ بِالْمَدِينَةِ

دَخَلْتُ عَلَيْهِ فَوَجَدْتُهُ خَالِيًا فَقُلْتُ لَهُ جُعِلْتُ فِدَاكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَنِي أَخُوكَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْحُسَيْنُ عَنْ أَبِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ سَبَقَنِي الدَّمْعَةُ وَعَلَا شَهِيْقِي فَضَمَّنِي إِلَيْهِ وَقَالَ حَدَّثَكَ أَنِّي مَقْتُولٌ فَقُلْتُ حُ وَشَيْتَ يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ فَقَالَ سَأَلْتُكَ بِحَقِّ أَبِيكَ بِقَتْلِي خَبَرَكَ فَقُلْتُ نَعَمْ فَلَوْلَا نَاوَلْتُ وَبَايَعْتُ فَقَالَ حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرَهُ بِقَتْلِهِ وَقَتْلِي وَأَنَّ تَرْبِيَّتِي تَكُونُ بِقُرْبِ تَرْبِيَّتِهِ فَتَظُنُّ أَنَّكَ عَلِمْتَ مَا لَمْ أَعْلَمْهُ وَأَنَّهُ لَا أُعْطِي الدُّنْيَا مِنْ نَفْسِي أَبَدًا وَلَتَلْقَيْنَ فَاطِمَةُ أَبَاهَا شَاكِيَةً مَا لَقِيَتْ ذُرِّيَّتَهَا مِنْ أُمَّتِهِ وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ آذَاهَا فِي ذُرِّيَّتِهَا^(١٨).

فهذا الحسين عليه السلام في المقطع الأخير من كلامه مع أخيه عمر عندما طلب منه المبايعة إشفافاً عليه، قد بين عليه السلام له أن ذلك غير ممكن في ضمن برهاني م ضمير في قالب عاطفي.

فأفاد: أن المبايعة ليزيد من مثله إعطاء للدنية (وهي المقدمة المذكورة صراحة في الخبر)، وإعطاء الدنية لا يرضاه الله لأوليائه (وهي المقدمة المطوية في القياس؛ لكونه من الأقيسة المضمرة كما لا يخفى). فينتج ذلك أن المبايعة ليزيد بما لا يرضاه الله لأوليائه.

ثم لم يكتف بهذا البرهان، فضمّن ما يشعر بمقامه من جهة؛ لكونه ابن فاطمة عليها السلام، وهي من نعلم من كونها قد فطم الخلق عن معرفتها^(١٩).

وأتبعه بما يحرك العاطفة، مع كونه في الوقت نفسه يمكن إرجاعه إلى قياس برهاني، فيقال - على وجه الآخر - تصار - ما يترتب من فعل على ترك الإمام الحسين عليه السلام للبيعة فيه أذية لأمه عليه السلام، وأذيتها أذية لرسول الله ﷺ، وأذيته أذية للجبار تعالى. قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي يُؤْذِنِي مَا آذَاهَا»^(٢٠)، وبديهي أن أذية الرسول أذية للمرسل.

ويمكن الاستغناء عن القضية المتوسطة بما رواه الصدوق عليه السلام: «قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو ذَرٍّ يَحْيَى بْنُ زَيْدٍ بْنُ الْعَبَّاسِ بْنِ الْوَلِيدِ الْبَرَّازُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِالْكُوفَةِ قَالَ

حَدَّثَنَا عَمِّي عَلِيُّ بْنُ الْعَبَّاسِ قَالَ حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْمُنْذِرِ قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَالِمٍ عَنْ حُسَيْنِ بْنِ زَيْدٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ عُمَرَ بْنِ عَلِيٍّ عَنِ الصَّادِقِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : يَا فَاطِمَةُ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَيَغْضِبُ لِعِصَابِكَ وَيَرْضَى لِرِضَاكَ قَالَ فَجَاءَ صَنْدَلٌ فَقَالَ لَجَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ إِنَّ هَؤُلَاءِ الشَّبَابَ يَجِيئُونَكَ بِأَحَادِيثَ مُنْكَرَةٍ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ عليه السلام وَمَا ذَاكَ يَا صَنْدَلُ قَالَ جَاءَنَا عَنْكَ أَنَّكَ حَدَّثْتَهُمْ أَنَّ اللَّهَ يَغْضِبُ لِعِصَابِ فَاطِمَةَ وَيَرْضَى لِرِضَاهَا قَالَ فَقَالَ جَعْفَرٌ عليه السلام يَا صَنْدَلُ أَلَسْتُمْ رَوَيْتُمْ فِيهَا تَرَوُونَ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَيَغْضِبُ لِعِصَابِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ وَيَرْضَى لِرِضَاهُ قَالَ بَلَى قَالَ فَمَا تُنْكِرُونَ أَنْ تَكُونَ فَاطِمَةُ عليها السلام مُؤْمِنَةً يَغْضِبُ اللَّهُ لِعِصَابِهَا وَيَرْضَى لِرِضَاهَا قَالَ فَقَالَ اللَّهُ أَعَلَمْ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ^(٢١).

النموذج الثاني:

ما ورد في تسليية المجالس وغيره : «ثُمَّ أَرْسَلَ الْحُسَيْنُ عليه السلام إِلَى عُمَرَ بْنِ سَعْدٍ لَعَنَهُ اللَّهُ أَنِّي أُرِيدُ أَنْ أَكَلِّمَكَ فَالْقَنِي اللَّيْلَةَ بَيْنَ عَسْكَرِي وَعَسْكَرِكَ فَخَرَجَ إِلَيْهِ ابْنُ سَعْدٍ فِي عَشْرِينَ وَخَرَجَ إِلَى يَدِ الْحُسَيْنِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ فَلَمَّا التَقِيَا أَمَرَ الْحُسَيْنُ عليه السلام أَصْحَابَهُ فَتَنَحَّوْا عَنْهُ وَبَقِيَ مَعَهُ أَخُوهُ الْعَبَّاسُ وَابْنُهُ عَلِيُّ الْأَكْبَرُ وَأَمَرَ عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ أَصْحَابَهُ فَتَنَحَّوْا عَنْهُ وَبَقِيَ مَعَهُ ابْنُهُ حَفْصٌ وَغُلَامٌ لَهُ. فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْنُ عليه السلام وَيْلَكَ يَا ابْنَ سَعْدٍ أَمَا تَتَّقِي اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ مَعَادُكَ أَتَقَاتِلُنِي وَأَنَا ابْنُ مَنْ عَلِمْتَ ذُرَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ وَكُنْ مَعِيَ فَإِنَّهُ أَقْرَبُ لَكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَقَالَ عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ أَخَافُ أَنْ يُهْدِمَ دَارِي فَقَالَ الْحُسَيْنُ عليه السلام أَنَا أَبْنِيهَا لَكَ فَقَالَ أَخَافُ أَنْ تُؤْخَذَ ضَيْعَتِي فَقَالَ الْحُسَيْنُ عليه السلام أَنَا أَخْلِفُ عَلَيْكَ خَيْرًا مِنْهَا مِنْ مَالِي بِالْحِجَازِ فَقَالَ لِي عِيَالٌ وَأَخَافُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ سَكَتَ وَلَمْ يُجِبْهُ إِلَى شَيْءٍ فَأَنْصَرَفَ عَنْهُ الْحُسَيْنُ عليه السلام وَهُوَ يَقُولُ مَا لَكَ ذَبَحَكَ اللَّهُ عَلَى فِرَاشِكَ عَاجِلًا وَلَا غَفَرَ لَكَ يَوْمَ حَشْرِكَ فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَا

تَأْكُلَ مِنْ بُرِّ الْعِرَاقِ إِلَّا يَسِيرًا فَقَالَ ابْنُ سَعْدٍ فِي الشَّعْرِ كِفَايَةٌ عَنِ الْبُرِّ مُسْتَهْزِئًا
بِذَلِكَ الْقَوْلِ»^(٢٢).

فالحسين عليه السلام في هذا النص - على الرغم من معرفته بأن عمر بن سعد قد ختم الله على قلبه، ولا تنفعه حجة ولا موعظة، لكن لما كان الخطاب الحسيني غير متقيد بزمان ولا مكان، كما تقدم في الخصوصية الأولى، فهو بالتالي على الرغم من كون فائدته المباشرة تأكيد الحجة، يكون خطاباً سيالاً لكل من ألقى السمع وهو شهيد - زاوج بين العاطفة والعقل.

فهو يعرف أن البواعث المحركة لمثل هذا الرجل هي البواعث المادية؛ فلذا أراد تغطية هذا البعد العاطفي عنده، فوعده بتأمينها عن طريق البيت والضيعة، كما أنه لما لم ينفع ذلك معه انتقل إلى البعد العاطفي الأخرى وكانت تغطية البعد العقلي قد سبقت ذلك عن طريق تذكيره بمقامه في هذه الأمة بقوله: «أَتَقَاتِلُنِي وَأَنَا ابْنُ مَنْ عَلِمْتَ»، فإنه صغرى في قياس مضمير، كما تقدم في النموذج السابق.

النموذج الثالث:

قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام: «لَمَّا اشْتَدَّ الْأَمْرُ بِالْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام نَظَرَ إِلَيْهِ مَنْ كَانَ مَعَهُ فَإِذَا هُوَ بِخِلَافِهِمْ لِأَنَّهُمْ كُلٌّ مَا اشْتَدَّ الْأَمْرُ تَغَيَّرَتْ أَلْوَانُهُمْ وَارْتَعَدَتْ فَرَائِصُهُمْ وَوَجَبَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَانَ الْحُسَيْنُ عليه السلام وَبَعْضُ مَنْ مَعَهُ مِنْ خَصَائِصِهِ تُشْرِقُ أَلْوَانُهُمْ وَتَهْدَأُ جَوَارِحُهُمْ وَتَسْكُنُ نَفُوسُهُمْ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ انْظُرُوا لَا يُبَالِي بِالْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ الْحُسَيْنُ عليه السلام صَبْرًا بَنِي الْكَرَامِ فَمَا الْمَوْتُ إِلَّا قَنْطَرَةٌ تَعْبُرُ بِكُمْ عَنِ الْبُؤْسِ وَالضَّرَاءِ إِلَى الْجَنَانِ الْوَاسِعَةِ وَالنَّعِيمِ الدَّائِمَةِ فَأَيُّكُمْ يَكْرَهُ أَنْ يَنْتَقِلَ مِنْ سَجْنٍ إِلَى قَصْرِ وَمَا هُوَ لِأَعْدَائِكُمْ إِلَّا كَمَنْ يَنْتَقِلُ مِنْ قَصْرِ إِلَى سَجْنٍ وَعَذَابٍ إِنَّ أَبِي حَدَّثَنِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ الدُّنْيَا سَجْنٌ

الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ وَالْمُوتُ جِسْرٌ هُوَ لَاءٌ إِلَى جَنَّتِهِمْ وَجِسْرٌ هُوَ لَاءٌ إِلَى جَحِيمِهِمْ
مَا كَذَبْتُ وَلَا كُنْتُ»^(٢٣).

والتطوير العاطفي والأخلاقي في هذا النص في غاية الوضوح من خلال
خطابٍ يشدُّ الروح قبل العقل.

وهذا التزاوج بين التطور العقلي والعاطفي كثيرٌ في كلمات أهل بيته عليه السلام
وأصحابه من خلال مواقفهم المتعددة، ولكن فيما قدمناه كفاية بعد وضوح
الفكرة.

وفي غيره ممَّا يرتبط بحادثة كربلاء، ولكنه صادر على لسان سائر الأئمة كثير
أيضاً، ومن الموارد الواضحة في ذلك زيارة عاشوراء المنتسبة إلى مولانا صاحب
العصر والزمان عليه السلام؛ حيث يظهر فيه بوضوح سبك الفكر في قالب العاطفة
وإطارها، وليس ذلك إلا لأن جفاف الفكر لا يؤثر إلا مع ليونة العاطفة
ولنتأمل في الفقرات التالية ليتضح لنا حقيقة ما أروم إليه

- (السَّلَامُ عَلَى الْحُسَيْنِ الَّذِي سَمَحَتْ نَفْسُهُ بِمُهْجَتِهِ... السَّلَامُ عَلَى مَنْ أَطَاعَ
الله فِي سِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ، السَّلَامُ عَلَى مَنْ جُعِلَ الشِّفَاءُ فِي تُرْبَتِهِ، السَّلَامُ عَلَى مَنْ
الْإِجَابَةُ تَحْتَ قُبَّتِهِ، السَّلَامُ عَلَى مَنْ الْأَيْمَةُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ... السَّلَامُ عَلَى مَنْ أَرِيقَ
بِالظُّلَمِ دَمُهُ، السَّلَامُ عَلَى الْمُغْسَلِ بِدَمِ الْجِرَاحِ، السَّلَامُ عَلَى الْمُجَرَّعِ بِكَاسَاتِ
الرَّمَّاحِ، السَّلَامُ عَلَى الْمُضَامِ الْمُسْتَبَاحِ، السَّلَامُ عَلَى الْمُهْجُورِ فِي الْوَرَى، السَّلَامُ عَلَى
مَنْ تَوَلَّى دَفْنَهُ أَهْلُ الْقُرَى، السَّلَامُ عَلَى الْمُقْطُوعِ الْوَتَيْنِ، السَّلَامُ عَلَى الْمُحَامِي بِلَا
مُعِينٍ).

فها هو عليه الصلاة والسلام يطوِّع أجمل العبارات العاطفية؛ لبيان فضله
من جهة، الذي هو مقدّمة لكبرى مطوية، وهي: أن من كان كذلك لا يجوز قتله
وسفك دمه، ثم يرتب على ذلك المظلومية بأشدّ الصور حزناً ولهفةً.

ثم يتابع في ركوب مركب البلاغة، مزاجاً بين التأثير العاطفي والإقناع العقلي فيقول:

(سَلَامٌ مَنْ لَوْ كَانَ مَعَكَ بِالطُّفُوفِ لَوْ قَاكَ بِنَفْسِهِ حَدَّ السُّيُوفِ، وَبَدَلْ حُشَاشَتَهُ دُونَكَ لِلْحُتُوفِ، وَجَاهَدَ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَ نَصَرَكَ عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيْكَ، وَفَدَاكَ بِرُوحِهِ وَجَسَدِهِ، وَمَالِهِ وَوُلْدِهِ، وَرُوحَهُ لِرُوحِكَ فِدَاءً ... فَلَيْنُ أَخَرْتَنِي الدُّهُورُ، وَعَاقَنِي عَنْ نَصْرِكَ الْمُقْدُورُ، وَلَمْ أَكُنْ لِمَنْ حَارَبَكَ مُحَارِباً، وَلَكِنْ نَصَبَ لَكَ الْعِدَاوَةَ مُنَاصِباً، فَلَا تُدْبِنَكَ صَبَاحاً وَمَسَاءً، وَلَا بُكَيِّنَ عَلَيْكَ بَدَلَ الدَّمُوعِ دَمًا، حَسْرَةً عَلَيْكَ وَتَأْسُفًا عَلَى مَا دَهَاكَ وَتَلَهَّفًا، حَتَّى أَمُوتَ بِلَوْعَةِ الْمُصَابِ وَغُصَّةِ الْإِكْتِيَابِ).

والعبارة تفيض بلاءةً، فتنتطق فيما رمناه، بلا حاجةٍ إلى تكلفٍ وتأويلٍ. السلام على الحسين، وعلى علي بن الحسين، وعلى أصحاب الحسين، الَّذِينَ بذلوا مهجهم دون الحسين ﷺ...

* * *

الهوامش:

- (١) الشَّيْخُ الصَّدُوقُ، مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ، عِلَلُ الشَّرَائِعِ ٣: ٢٢٨، الحديث: (٢)، تقديم: السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ صَادِقُ بَحْرِ الْعُلُومِ، منشورات مكتبة الحيدري ١٣٨٥ هـ. ق، النجف الأشرف.
- (٢) المصدر نفسه، الحديث الثالث.
- (٣) الفيض الكاشاني، محمد محسن، الوافي ٢: ٤٦٠، نشر: مكتبة أمير المؤمنين ﷺ، الطبعة الأولى ١٤٠٦، إصفهان.
- (٤) الشَّيْخُ الصَّدُوقُ، مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي بَابُوِيَه، الْأَمَالِيُّ ٢٢٢: ٣٠، المجلس: ٣٠ (مقتل الإمام الحسين ﷺ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤١٧، نشر: مؤسسة البعثة، قم.
- (٥) الطبري، مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ، تَارِيخُ الْأُمَمِ وَالْمُلُوكِ ٤: ٣٢٤، نسخة مقابلة مع نسخة مطبعة بريل

- بمدينتي ليدن، نشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت
- (٦) ابن نما الحلي، محمد بن جعفر، مثير الأحزان : ٣٧، نشر: منشورات المطبع الحيدرية، النجف ١٩٥٠م.
- (٧) راجع: عثمان، حسن، منهج البحث التاريخي: ١١، نشر: دار المعارف، الطبعة الثامنة ٢٠٠م.
- (٨) انظر: قراملكي، أحد فرامرز، روش شناسی مطالعات دينی : ٢٦٦، نشر: جامعة العلوم الإسلامية الرضوي، مشهد، الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ.ش.
- (٩) الأولى أن يجعل الموضوع هو الحدث الصادر في الزمن الماضي، والذي له تداعياته على المستقبل
- (١٠) فرانسوا ماري أرويه (François-Marie Arouet) المعروف باسم فولتير (بالفرنسية: Voltaire) من مواليد (٢١ نوفمبر ١٦٩٤) ووفيات (٣٠ مايو ١٧٧٨)، فولتير هو اسمه المستعار. كاتب فرنسي عاش في عصر التنوير، وهو أيضاً كاتب وفيلسوف ذاع صيته بسبب سخريته الفلسفية الظريفة، ودفاعه عن الحريات المدنية خاصة حرية العقيدة.
- (١١) انظر: قراملكي، أحد فرامرز، روش شناسی مطالعات دينی : ٢٦٨، نشر: جامعة العلوم الإسلامية الرضوي، مشهد، الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ.ش.
- (١٢) انظر: خاكي، غلام رضا، روش تحقيق در مديريت : ١٠٣، تهران، مركز انتشارات علمي دانشگاه آزاد اسلامي ١٣٧٩ هـ.ش.
- (١٣) نسبة إلى العالم البولندي نيكولاس كوبرنيكوس الذي تبرئ فكرة وجود الشمس - وليست الأرض - كجسم ثابت في مركز المجموعة الشمسية. ولما كانت هذه النظرية تعدُّ ثورةً تغييرية في علم الفلك وما يرتبط به، أطلقت الثورة الكوبرنيكية على كل اكتشاف أو فكرة تؤدي إلى تغيير جذري في مجالها.
- (١٤) آل أحمد، جلال، سرکه نقد یا حلوای تاريخ: ١١، تهران، فردوسی.
- (١٥) نعني بالمستقبل ما يكون كذلك بالنسبة لوقت صدور الحدث التاريخي، وإن كان بالنسبة للباحث قد يكون ماضياً.
- (١٦) هناك مقالة للأديب السوري الراحل الأستاذ حافظ الجهمالي تحت عنوان : (التطور العقلي والتطور العاطفي) أخذت هذا السؤال منها . انظر: مجلة المعرفة الصادرة عن وزارة الثقافة والإرشاد السوري، العدد الحادي عشر، كانون الثاني ١٩٦٣م.
- (١٧) الفناري، محمد بن حمزة، مصباح الأنس بين المعقول والمشهود : ١٨١، تصحيح وتقديم محمد خواجوي، مع تعليقات لمجموعة من العلماء، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ، انتشارات مولی، طهران.

- (١٨) ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف على قتلى الطفوف، مع ترجمة الفهرري الزنجاني، نشر: جهان، الطبعة الأولى ١٣٨٩ هـ، طهران.
- (١٩) إشارة إلى ما ورد في الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّمَا سُمِّيَتْ فَاطِمَةُ لِأَنَّهَا خُلِقَتْ فَطُمُوعًا عَنْ مَعْرِفَتِهَا»، انظر: تفسير فرات الكوفي: ٥٨١، نشر: مؤسسة الطبع والنشر في وزارة الإرشاد الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ، طهران.
- (٢٠) التيسابوري، مسلم، صحيح مسلم ١: ١٤١، نشر دار الفكر، بيروت.
- (٢١) الصدوق، محمد بن علي، الأمالي: ٣٨٣، نشر: كتابچی، الطبعة السادسة ١٤١١ هـ، طهران.
- (٢٢) الحسيني الموسوي، محمد بن أبي طالب، تسلية المجالس وزينة المجالس ٢: ٢٦٤، نشر: مؤسسة المعارف الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ، قم.
- (٢٣) الصدوق، محمد بن علي، معاني الأخبار: ٢٨٨، نشر: مؤسسة النشر التابعة لجامعة المد رسين بقم، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ، قم.

مودة النبي ﷺ وأهل بيته ﺍﻟﻌﻠﻴﻬﻢ ﺍﻟﺴﻼﻡ أجرٌ لكم

□ السيد حسن نصر الله (*)

تقديم:

كلّنا يعرف أنّ رسول الله ﷺ كانت له تضحياتٌ جسّامٌ وجهادٌ عظيم، وكان له سعيٌّ دؤوبٌ من أجل إبلاغ رسالة الله تعالى إلى أهل مكّة، ومنها إلى كلّ البشرية. وقد تحمّل ﷺ الكثير من الأذى في طريق تبليغ الرسالة والدعوة إلى التوحيد وهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وإنقاذهم من الباطل إلى الحق، حتّى قال النبي ﷺ نفسه: «ما أُوذي نبيٌّ مثل ما أُوذيت»^(١). لقد كان همُّ الرسول الأعظم ﷺ كبيراً في قبال نجاح دعوته وإنقاذ الناس إلى حدّ أنّ الله سبحانه وتعالى قد خاطبه في سورة طه قائلاً: ﴿طه ١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۖ إِلَّا نَذْكُرْكَ لَئَمْ يَخْشَى ۖ ﴿٢﴾ وَذَلِكَ لِيُهَوِّنَ عَلَيْهِ وَيَخَفِّفَ عَنْهُ. وفي موضع آخر يخاطبه الله سبحانه بقوله: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ لَمْ يَضِلُّ مِنْ يَشَاءُ وَيَهْدَى مِنْ يَشَاءُ ۖ فَلَا نَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨]. أي: لا تغتم ولا تندم ولا تهلك نفسك لأجل عدم إيمانهم

(*) أُعدّت من محاضرة له - حفظه الله - بمناسبة أيام محرّم الحرام.

برسالتك وتكذيبهم لك.

من جهة أخرى، إذا نظرنا إلى حركات ودعوات الأنبياء والرسل ﷺ قبل نبينا محمد ﷺ، نجد أن أياً منهم لم يطلب من أمته أجراً على دعوته وجهاده وتعبه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩]. وفي المقابل، نرى - بحسب القرآن والروايات ومصادر التاريخ - أن النبي الوحيد الذي علمه الله تعالى أن يطلب أجراً مقابل تأديته للرسالة هو نبينا المصطفى ﷺ. ومن هنا لا بد من التأمل والتفكير بدلالات ذلك ومعانيه، فلا يعقل أن يكون أمراً غير مدروس واعتباطيا.

المودة في القربى:

في الآية التالية، يطلب الله سبحانه وتعالى من نبيه أن يسأل الناس، ويطلب منهم، ويقول لهم:

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۖ وَمَن يَقَرِّفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣].

إذاً.. نحن أمام أعظم رسول وأعظم رسالة، ثم يطلب الله سبحانه من المسلمين، مقابل تأدية أعظم رسول لأعظم رسالة، المودة في القربى. والمودة تعني الحب الحقيقي، الحب الواقعي والعميق، وليس مجرد التظاهر به. أما القربى، فبحسب غالبية مفسري السنة والشيعة - كما وردت الروايات عن رسول الله ﷺ - هم أهل بيت رسول الله ﷺ.

فالزخشي الذي يعد من كبار مفسري إخواننا أهل السنة يورد في كتابه (الكشاف) أنه لما نزلت آية المودة في القربى، قيل: «يا رسول الله، من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال ﷺ: «علي وفاطمة وابناهما»^(٢). ويظهر من هذه الرواية أن الناس تسأل عن المصداق، أي: من هم هؤلاء

القربى؟

وفي السياق نفسه، ينقل الزمخشري روايات أخرى ذات صلة ببحث المودة، فعن النبي ﷺ أنه قال: «حَرَّمَتِ الْجَنَّةُ عَلَى مَنْ ظَلَمَ أَهْلَ بَيْتِي وَأَذَانِي فِي عَتْرَتِي»^(٣).

ومن المعلوم أنَّ ظلم المؤمن وإيذائه حرام، بل من الكبائر، فكيف إذا كان الإيذاء لرسول الله ﷺ، ومن أمر الله بمودتهم، وهم أهل بيته عليه السلام.

المودة واجبة لا مستحبة:

وفي رواية أخرى، ذكرت في كثير من كتب المفسرين من جميع الفرق عن رسول الله ﷺ: «مَنْ مَاتَ عَلَى حَبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ شَهِيداً، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حَبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ مَغْفُوراً لَهُ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حَبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ تَائِباً...»^(٤). وبالمقابل يوجد: «أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى بَغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ: آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ». ومضمون هذه الرواية قد ذكر في الكثير من كتب التفسير والأحاديث.

ثم إنَّ المفسرين متفقون - في المحصلة - على أنَّ الله سبحانه وتعالى قد أوجب على الأمة مودة قربي رسول الله ﷺ؛ ففي مقابل تبليغ هذه الرسالة وهذا الجهاد أوجب على الأمة مودة قربي رسول ﷺ، والحديث هنا عن المودة الواجبة، وليست المستحبة، والتخلف عنها هو تخلف عن أمر الله عز وجل، وعن تكليف جعله الله تعالى في مقابل تبليغ أعظم الرسل لأعظم رسالة

لوازم الحب الحقيقي:

إنَّ هذه المودة وهذا الحب والتعلق الحقيقي بقراءة رسول الله ﷺ، لم يكن إلا لتوفر مواصفات معينة فيهم تجعلهم محبوبين من قبل الآخرين

ويقال توضيح الواضحات من أشكال المشكلات ، ومن هذه الواضحات
 محبة الإنسان، فما معنى أن تحب إنساناً؟
 معناه: أنك إذا أحببته تنصره، تعينه، تقضي حوائجه، تدافع عن كرامته. ومن
 لوازم حبه أن تواسيه عندما تقع له مصيبة، وإلا فلا يكون هناك حب حقيقي،
 بل هو حب كاذب، وفي حدّه الأدنى إن كان.
 فمن يودّ إنساناً، فعلى الأقل لا يؤذيه، ولا يجرّحه، ولا يقتله، ولا ينهب
 ماله، ولا يذبح ولده، ولا يسبي نساءه، ولا يهتك عرضه.

اصطفاء إلهي:

وبالرجوع إلى الآية الكريمة يتضح لنا أن طلب المودة كان طلباً من الله
 سبحانه، ولم يكن من رسوله ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، فالله هو الذي
 أوجب هذا الأجر على المسلمين، وهذا إن دلّ على شيء فهو يدلّ على عظيم
 منزلة أهل البيت ﷺ عند الله.

وما ورد في الآية إنما هو اصطفاء إلهي وتفضيل رباني لهؤلاء القريبى .
 والتفضيل الإلهي عند الله ميزانه التقوى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾
 [الحجرات: ١٣]. هذا هو مقياس القرب من الله سبحانه وتعالى، فاختيار الله لأهل
 هذا البيت ليجعل مودتهم أجراً على أعظم رسالة لأعظم رسول كاشف عن
 مكانتهم ومقامهم العظيم والراقي والرفيع عنده سبحانه وتعالى

ضمانة بقاء الرسالة:

إذا، فإن الآية الكريمة ترتّب علينا مسؤولية شرعية تجاه أهل بيت رسول
 الله ﷺ، وتجاه كيفية التعاطي معهم ﷺ، وبالتالي توجد حكمة إلهية وغايات
 إلهية من خلال هذا الت شريع وهذا التأكيد، وهو أمر لا نستطيع بعقولنا أن

نستوعب كل جوانبه وأبعاده وغاياته . ولكن من جملة الأمور التي يمكن أن نفهمها أن هؤلاء القريبى خصوصيات، ومن جملة خصوصياتهم أنهم يشكلون ضماناً لبقاء الرسالة وضمانة لتضحيات وجهاد وأعمال الرسول ﷺ إلى قيام الساعة، وهو صلوات الله وسلامه عليه وعليهم الذي قال فيهم: «إني قد تركت فيكم الثقلين ... كتاب الله وعترتي أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض»^(٥).

إذاً، هؤلاء القريبى هم ضمان بقاء جهود رسول الله في تبليغ الرسالة، وهم باقون مع القرآن إلى يوم القيامة.

وشهادة الإمام الحسين عليه السلام كانت لأجل هذه الهدف؛ فبعد أن تسلّم يزيد الخلافة، وكان وجوده فيها يشكل تهديداً لبقاء الإسلام وإعادة للأمة إلى الجاهلية الأولى، وقف بوجه هذا المشروع، وقدم نفسه وأهل بيته وأصحابه من أجل الحفاظ على هذا الدين الحنيف الذي جاء به جدّه ﷺ وإنقاذه.

* * *

الهوامش:

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار ٥٦: ٣٩، الطبعة الثالثة ١٤٠٣، دار إحياء التراث، بيروت.

(٢) جابر الله الزمخشري، محمود بن عمر، الكشف عن حقائق التنزيل ٤٦٧: ٣، نشر: شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ١٩٦٤ م، مصر.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ذكره الزمخشري وغيره في سياق تفسير آية المودة، فراجع.

(٥) سنن النسائي: ٤٥: ٥.

قسمة الاشتراك

الاسم :
العنوان :
.....
المدينة :
البلد :
المهنة :
مدة الاشتراك :
ابتداءً من :
.....
عدد النسخ :

رسالة الثقلين

مجلة اسلامية جامعة

البلد الاشتراك
الإرسال السنوي / مدة ٦ أشهر
☐ الجمهورية الإسلامية في إيران
(بالريال) ٦٠٠٠٠ ٣٠٠٠٠
☐ باقي دول العالم بالدولار الأمريكي
٢٠ ١٠ (أو ما يعادلها)

يرافق اشتراكي: ☐ صك ☐ صك بريدي ☐ حوالة بريدية
أرسل هذه القسمة مع قيمة الاشتراك باسم «رسالة الثقلين» إلى العنوان التالي:
الجمهورية الإسلامية في إيران. قم. ص. ب ٨٩٤ - ٣٧١٨٥



الاشتراكات:

☐ داخل الجمهورية الإسلامية في إيران : تسدد قيمة الاشتراك السنوي (٦٠٠٠٠ ريال) بحوالة مصرفية على العنوان التالي:
الجمهورية الإسلامية في إيران - قم - بنك تجارة / شعبة سمية، شارع سمية - رقم الحساب الجاري: ٤٦٢٥٤ - ١٥١٢٠ (بالريال)، المعاونة الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت (عليه السلام).

☐ خارج الجمهورية الإسلامية في إيران : قم - بنك ملي (شعبه مركزي قم) رقم الحساب: ٢٠٠٦٥ - ٢٧٠١ (بالدولار).

ثمن النسخة:

☐ الجمهورية الإسلامية في إيران ١٥٠٠٠ ريال.
☐ وفي باقي دول العالم ٥ دولارات أمريكية أو ما يعادلها



The ahl – ul Bayt (a)
World Assembly

RISALATUTH - THAQALAYN

A General Islamic Periodical

Vol . 19, No . 75, Autumn 2012